جامعة الأزهر

كلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات ببورسعيد

التماسك النصي في وصايا المعمرين

إعداد الأستاذ الدكتور

السيد أحمد أحمد موسى

أستاذ البلاغة والنقد بكلية

الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

البريد الإلكتروني:

Khaterelsayed187@gmail.com

العدد الأول

1446 هـ/2024م

عنوان البحث

التماسك النصي في وصايا المعمرين

السيد أحمد أحمد موسى **رقم البحث (10)**

قسم: البلاغة والنقد، كلية: الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، بورسعيد، جامعة الأزهر، القاهرة، الدولة: مصر

البريد الالكتروني: Khaterelsayed187@gmail.com

ملخص البحث:

يعكف هذا البحث على دراسة التماسك النصي في نمط قولي فريد، وجنس أدبي متميز، ضارب بجذوره في أعماق العقل العربي منذ العصر الجاهلي، وهو " وصايا المعمرين "

وترجع أهمية الموضوع إلى دوره الكبير في العمل على إحياء التراث البلاغي والنقدي، وأثره الضخم في رقي البحث البلاغي وتطوره، والخروج به من دائرة النمطية في المعالجة، وارتياده إلى آفاق أخري جديدة.

ويهدف هذا البحث في المقام الأول إلى محاولة التعرف على كيفية إحكام أصحاب هذه الوصايا صنعتهم الفنية، وتبين مدى قدرتهم اللغوية على تحقيق الترابط البنيي، والتماسك النصي لمعانيهم وأغراضهم، من خلال انتظامها وتسلسلها تسلسلا منطقيا يقوم على الإقناع والتأثير، وترتيب النتائج والنهايات على المقدمات والبدايات.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة محاور، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات – المحور الأول: التماسك النصي بالوسائل الحرفية – المحور الثاني: التماسك النصي بألفاظ وأساليب ذات طابع إحالي أصيل – المحور الثالث: التماسك النصي بأساليب التناسب – المحور الرابع: التماسك النصي بأساليب الإيضاح بعد الإبهام – الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

الكلمات المفتاحية: التماسك – النصي – الوصية – المعمرين – الإحالة

Textual cohesion in the wills of centenarians

Alsayed Ahmed Ahmed Musa **research no (10)**

Department of Rhetoric and Criticism، College of Islamic and Arab Studies for Girls، Port Said، Al-Azhar University، Egypt.

Email: Khaterelsayed187@gmail.com

Summary:

This research studies the textual coherence of a unique verbal style and a distinct literary genre، rooted in the depths of the Arab mind since the pre-Islamic era، which is “The Commandments of the Long-lived”.

The importance of the topic is due to its great role in working to revive the rhetorical and critical heritage، and its huge impact on the advancement and development of rhetorical research، breaking it out of the stereotypical circle of treatment، and taking it to other new horizons.

This research aims primarily to try to identify how the owners of these commandments mastered their artistic craft، and to show the extent of their linguistic ability to achieve structural cohesion and textual cohesion of their meanings and purposes، through their regularity and logical sequence based on persuasion and influence، and the arrangement of results and endings over introductions and beginnings.

This research included an introduction، a preface، four axes، a conclusion، an index of sources and references، and another for topics - The first axis: Textual cohesion using literal means -The second axis: Textual cohesion using words and methods of an authentic referential nature -The third axis: Textual cohesion using methods of proportionality -The fourth axis: Textual cohesion using clarification methods after ambiguity -Conclusion: It contains the most important results of the research.

Keywords: cohesion -textual -will -centenarians – referral

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وخاتم النبيين سيدنا محمد-صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه أجمعين-وبعد:

فالوصية جنس أدبي متميز، ضارب بجذوره في أعماق العقل العربي منذ العصر الجاهلي، وله من السمات والخصائص، والمزايا ما يجعله قرين الأجناس الأدبية الأخرى في الرتبة والمكانة.

والوصية من الفنون النثرية التي تتسم بالأسلوب المرسل ذي الطابع الخطابي القوي، الخالي من التكلف والتعمل، والتشدق والتقعر.

ووصايا المعمرين خاصة ضرب أصيل من ضروب هذا الجنس الأدبي، ونمط فريد من نوعه؛ لوروده على ألسنة فئاممن الناس طالت أعمارهم، وتراخت آجالهم، حتى تجاوزت الغالب المعتاد في أقرانهم من أبناء جيلهم وقرنهم، مع ما عرفوا به من تمام الحكمة، وكمال العقل، وسداد الرأي، وصدق المشورة، وفرط الخبرة، وشدة الفراسة، وامتلاك ناصية اللغة، وزمام الفصاحة والبلاغة.

والغالب في هذا النوع من الوصايا أن يخرج في إطار نثري يتسم-من وجه- بالقوة والجزالة مع الوضوح والسهولة، ويميل إلى الإطناب، ويجنح إلى الاستقصاء والاستطراد؛ وفاءً بحق المعنى، ونزولا على مقتضيات المقام وطبيعة الموقف، وإلحاحًا على تحقق المطلوب وحصوله، ويندر جدًا أن يكون شعرًا، أو يجمع فيه بين الشعر والنثر.

ويتسم-من وجه آخر -بالتماسك والترابط، والانسجام والتآلف، حتى ترى الوصية من أولها إلى آخرها قد أفرغت إفراغًا واحدًا، وسبكت سبكًا واحدًا، يأخذ كل جزء منها بعناق صاحبه.

ومن هنا كان اختيار هذا الموضوع البكر الذي جاء بعنوان " التماسك النصي في وصايا المعمرين"، والتركيز فيه على عنصر التماسك ليكون محور الدراسة في هذه الوصايا نابعًا من وعي عميق، وقناعة شديدة، ورأي سديد، وإيمان راسخ لدى أهل هذا الفن المتخصصين فيه بأهمية التحليل النصي، ودوره الكبير–أولاً-في إحياء التراث البلاغي والنقدي، وبعث فكر عبدالقاهر ذي الرؤية الشمولية التي أسس لها في كتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة.

وأثره الخطير-ثانيًا-في رقي البحث البلاغي، ونموه وتطوره، والخروج به من دائرة النمطية في المعالجة، وارتياده إلى آفاق أخرى، وإن بدت جديدة في شكلها ومصطلحها إلا أنها عتيقة في مضمونها، ضاربة بجذورها في أعماق تراثنا اللغوي والنقدي، على تشعبه وتنوعه، فقد عرف علماؤنا الأوائل مصطلح التماسك النصي،

وإن لم يطلقوا عليه هذا المسمى، وتناولوه في نطاق بحث أنواع من العلاقات والروابط النحوية بين الجمل والمفردات.

كما تناولوه في إطار تأمل أنواع من العلائق والوشائج اللفظية والمعنوية بين أجزاء الكلم وعناصره في مجال نظرية متكاملة هي نظرية النظم التي أرسى قواعدها، وأشاد بناءها عبد القاهر الجرجاني، وكذا في باب الفصل والوصل، وغيره من الأبواب البلاغية والنقدية التي توفرت على العناية ببحث هذا الجانب وبيانه. وتناولوه –أيضًا-في إطار بحثهم في علم المناسبة الذي أصل أصوله، وأرسى دعائمه علماء القرآن وأهل التفسير.

وهذا الموضوع ينهض على أساس من البحث في تماسك النصوص، وتعانق أجزائها وتشابكها في وصايا المعمرين، ويبغي التعرف على كيفية إحكام أصحابها لصنعتهم اللغوية، وتبين مدى مقدرتهم على تحقيق الترابط البنيوي لمعانيهم وأغراضهم، من خلال انتظامها -أولاً-وتسلسلها تسلسلًا منطقيًا، يقوم على الإقناع والتأثير، وترتيب النتائج والنهايات على المقدمات والبدايات، ومن خلال علاقة الكلمة -ثانيًا -بما جاورها، وعلاقة الجملة مع الجملة الأخرى،، حتى تكون في النهاية بناءً نصيًا كليًا، أو بنية كلية ذات ترابط وثيق على المستويين الدلالي والشكلي، وتؤدي أغراضًا معينة، في مقامات تبليغية محددة.

ولا يتأتى تحقيق هذا الهدف، أو الوصول إلى هذه النتيجة بحال إلا باعتماد وسائل وأدوات، وتوفر معايير وأطر، تعمل على تعميق هذا الترابط، وترسيخ هذا التماسك، وتضمن -في الوقت ذاته -للنص الديمومة والاستمرارية، وتجددية العطاء، وحيوية الدلالة وبكارتها.

لذا جاءت خطة البحث متناغمة مع أسبابه، مصورة لغاياته وأهدافه، ومركبة من مقدمة، وتمهيد، وأربعة محاور، وخاتمة، وفهارس.

١-المقدمة: أضأت فيها جوانب الموضوع، وتحدثت فيها عن أهميته، وضمنتها الأسباب الدافعة إليه، وأودعتها الخطة التي يقوم عليها البحث، ومنهج الدراسة.

٢-التمهيد: وجاء في ثلاثة عناصر: -

الأول: مفهوم التماسك النصي وأدواته ومعاييره.

الثاني: التماسك النصي في التراث العربي القديم.

الثالث: إضاءة موجزة لفن الوصايا في الأدب العربي.

٣-المحور الأول: التماسك النصي بالوسائل الحرفية، ويشتمل على ثلاث صور.

٤-المحور الثاني: التماسك النصي بألفاظ وأساليب ذات طابع إحالي أصيل، ويشتمل على ست صور.

٥-المحور الثالث: التماسك النصي بأساليب التناسب ويشتمل على إحدى عشرة صورة.

٦-المحور الرابع: التماسك النصي بأساليب الإيضاح بعد الإبهام، ويشتمل على صورتين اثنتين فقط.

٧-الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

٨-فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وقد أسلمني تنفيذ هذه الخطة إلى اتباع المنهج الوصفي التحليلي، الذي يصف الظاهرة المدروسة، ويعرف بها، ويشرحها، ويؤطر لها، من خلال استقصاء أدوات التماسك وصوره في سياقاتها من وصايا المعمرين، وبيان العلاقات الرابطة فيها، وتحليلها تحليلاً بلاغيًا يحاول الكشف عن مكنون أسرارها، وخبيئ نكاتها، ويسجل بعض الملاحظات والخصائص التي تفتقت عنها الدراسة في صورها ومحاورها.

وقد اعتمدت في تأصيل هذه الوصايا وتوثيقها في المقام الأول على كتابي أبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني المتوفى سنة ٢٣٥ه، والمسمى أولهما: "المعمرون والوصايا"، والمسمى ثانيهما: "كتاب المعمرين من العرب وطرف من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم"، فهذان الكتابان -مع ما بينهما من اتفاق شبه تام إلا في بعض الجوانب اليسيرة -هما اللذان تفردا بجمع هذا النوع من الوصايا، وإن أورد المؤلف عليهما جانبًا من أخبار ووصايا غيرهم ممن لم ينطبق عليه وصف المعمرين[1]، كما استعنت ببعض الكتب الأخرى التي تناولت هذا الفن، وأوردت جانبًا من هذه الوصايا، مما سيأتي ذكره بمشيئة الله –تعالى-في هوامش البحث، ويثبت في فهرس المصادر والمراجع، والله أسأل أن يكون من وراء القصد، وأن يعصمني من الزلل، وأن يرزقني السداد والتوفيق، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(1) وقد أوردت في الدراسة بعض هذه الوصايا؛ نظرًا لقوة أسلوبها، وإحكام صنعتها، وتماسك سبكها، وتأثرها الشديد بالقرآن والسنة؛ لأنها وردت في الغالب على ألسنة بعض أصحاب النبي – ﷺ – وبعض أهل اللسن والبلاغة من التابعين وغيرهم في عصر صدر الإسلام، وفي العصر الأموي.

التمهيد

ويشتمل على ثلاثة عناصر:

الأول: مفهوم التماسك النصي وأدواته ومعاييره.

الثاني: التماسك النصي في التراث العربي القديم.

الثالث: إضاءة موجزة لفن الوصايا في الأدب العربي.

أولًا: مفهوم التماسك النصي وأدواته ومعاييره

يعد الترابط أو التماسك النصي ظاهرة من ظواهر علم النص، وخصيصة من أبرز خصائصه التي أولاها علماء النص اهتمامًا بالغًا؛ لأن التماسك هو قوام النص، أو هو شرط أساس لكي يكون الكلام نصًا[1].

وقد حاول علماء النص أن يضعوا إطارًا لتحديد مفهوم التماسك النصي، وذلك من خلال تحديد مفهوم كل من عنصري التماسك والنص كل على حدة، لكنهم اختلفوا في ذلك اختلافًا كبيرًا بلغ – أحيانًا – حد التناقض، والتدابر، أو بلغ حد الاستغلاق وعدم الوضوح أحيانًا أخرى، وهذا أمر بدا متوقعًا ومجزومًا به؛ لما يحيط بالمصطلح نفسه –أولًا-من غموض يحول دون الرؤية الواضحة لمدلوله؛ ولتنوع معاييره، وتعدد منطلقاته ومداخله –ثانيًا-؛ ولأنه يمثل –ثالثًا-قاسمًا مشتركًا بين عدد من العلوم والفنون التي تحدد معناه وفقًا لتوجهاتها البحثية، وبما يتواءم مع طبيعة الأدوات التي تستعين بها، ويفي بغاياتها وأهدافها؛ فبعض هذه العلوم والفنون يركز في تعريف التماسك على الجانب السطحي [الشكلي]، وبعضها يركز على الجانب العميق [الدلالي]، وبعضها يركز على الجانب التداولي.

وقبل أن أعرض لبعض هذه التعريفات أرجع إلى الوراء قليلًا؛ للوقوف على دلالات كل من اللفظتين اللتين تركب منهما المصطلح، واستعمالاتهما في اللسان العربي من خلال المعاجم اللغوية، وأبدأ من ذلك بأولى اللفظتين، وهي لفظة [التماسك]، المشتقة من الفعل مسك، الذي يدور حول معاني الحبس، والاعتصام، والاعتدال، والتعلق، جاء في لسان العرب: يقال: مسك بالشيء وأمسك به، وتمسك وتماسك واستمسك، ومسَّك، كل بمعنى احتبس، وأمسكت بالشيء وتمسكت به، واستمسكت به، وامتسكت به: اعتصمت، وكذلك مسكت به تمسيكًا.

وفي حديث أبي باهلة في صفة النبي – ﷺ -: "بادن متماسك"، أراد أنه مع بدانته متماسك اللحم، ليس بمسترخيه، ولا بمنفضه، أي أنه معتدل الخلقة، كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضًا[2].

---

(1) ينظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق. دراسة تطبيقية على السور المكية 32/1، د/ صبحي إبراهيم الفقي، الطبعة الأولى 2000م، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، كما ينظر من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، سعيد يقطين صـ127، الطبعة الأولى 2005م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

(2) لسان العرب لابن منظور، مسك، 4204/6، دار المعارف، مصر 1979.

ومسك بالشيء مسكا: أخذ به وتعلق، والتماسك: ترابط أجزاء الشيء حسيًا أو معنويًا، ومنه التماسك الاجتماعي[1].

أما لفظة [النص] فهي في اللغة مأخوذة من نص الحديث، ينصه نصًا، رفعه، وكل ما أظهر فقد نص، وقال عمرو بن دينار ما رأيت رجلًا أنص للحديث من الزهري، أي أرفع له وأسند، ونص الحديث إلى فلان، رفعه إليه، ونصص الرجل غريمه إذا استقصى عليه، وفي حديث هرقل: ينصهم، أي: يستخرج رأيهم ويظهره، ومنه قول الفقهاء: نص القرآن، ونص السنة، أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام[2]، فالمادة تدور في اللغة حول معنى الرفع والإظهار.

والنص في الاصطلاح يختلف مفهومه في القديم عن مفهومه في الحديث، كما يختلف مفهومه عند علماء الأصول عنه عند علماء اللغة؛ فالنص عند الأصوليين هو كل ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة، فكل ما ورد عن صاحب الشرع فهو نص[3]، وذكر الجرجاني في التعريفات أن النص: "ما لا يحتمل إلا معنى واحدًا، وقيل ما لا يحتمل التأويل"[4]، وعرفه الكفوي في الكليات بقوله: "النص قد يطلق على كلام مفهوم المعنى، سواء كان ظاهرًا، أو نصًا، أو مفسرًا؛ اعتبارًا منه للغالب"[5].

والنص في الدراسات اللغوية الحديثة: "هو متتالية من الجمل شريطة أن تكون بين هذه الجمل، أو بين بعض عناصرها علاقات تتم بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو جملة لاحقة، أو بين متتالية برمتها سابقة أو لاحقة". [6]

وقيل: "هو نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كلٍّ واحد هو ما نطلق عليه مصطلح نص"[7]، وقيل: "هو سلسلة من الجمل كل منها يفيد السامع فائدة يحسن السكوت عليها، وهو مجرد حاصل جمع للجمل الداخلة في تشكيله"[8]، وقيل: "هو مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة، وقيل غير ذلك"[9].

---

(1) المعجم الوسيط صـ86، تأليف: إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة للنشر والتوزيع، تركيا، بدون تاريخ.

(2) لسان العرب لابن منظور/ نصص، 4441/6 وما بعدها.

(3) ينظر التطور اللغوي عند الأصوليين. د/ السعيد أحمد عبد الغفار صـ146، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 1981م.

(4) كتاب التعريفات للجرجاني صـ309، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الريان للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

(5) الكليات للكفوي صـ908، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.

(6) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، د/ محمد خطابي صـ13، الطبعة الأولى 1991م، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء.

(7) إنجاز النص، مقاربات في التنظير والتطبيق. د/ أسامة عبد العزيز جاب الله، صـ1، علم الكتب الحديث، الأردن 2015م.

(8) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص. د/ سعد مصلوح صـ407، بحث بالكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية، جامعة الكويت، 1989 – 1990م.

(9) تحليل الخطاب الشعري [استراتيجية التناص]، تأليف: د/محمد مفتاح صـ120، الطبعة الأولى 1995م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

وهذا الاختلاف السابق في تحديد مفهوم النص ترتب عليه – أيضا – اختلاف كبير في تحديد مفهوم [التماسك النصي]؛ فذكر بعضهم أن التماسك النصي: "يعني الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم"[1].

وذكر آخرون أن التماسك النصي: "هو الأدوات الكلامية التي تكون العلاقات المتبادلة في التراكيب بين الجمل، لاسيما الاستبدالات التركيبية التي تحيل على هوية المرجع"[2].

وعرفه محمد خطابي بأنه "التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص خطاب ما"[3].

وقيل: "هو الكيفية التي تمكن القارئ من إدراك تدفق المعنى الناتج عن تنظيم النص، ومعها يصبح النص وحدة اتصالية متجانسة"[4].

ولعل أقرب تعريف يمكن للبحث أن يرتضيه هو ما ذكره أحد الباحثين من أن التماسك النصي: "هو تعلق عناصر النص بعضها ببعض؛ بعلاقات وأدوات شكلية ودلالية؛ لتكون في النهاية رسالة يتلقاها متلق فيفهمها، ويتفاعل معها سلبًا وإيجابًا"[5].

وإنما كان هذا التعريف أقرب إلى القبول، وأدنى إلى تحديد مفهوم المصطلح؛ لأنه جمع بين الترابط على المستويين، المستوى السطحي [الشكلي] الذي يتكئ على وسائل وأدوات لغوية، تقوم بإبراز ترابط العلاقات السببية بين العناصر المكونة للنص في مستواه الخطي المباشر للقول.

والمستوى الدلالي العميق الذي يعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى في إطار من الوحدة والاستمرار والتشابك.

وهذا في الحقيقة هو ما حاول أحد الباحثين أن يشرحه في قوله: المقولة العامة: هي التماسك، وأما المفاهيم الخاصة فهي التنضيد، والاتساق، والتشاكل والترادف[6].

وكما اختلف علماء النص حول تحديد مفهوم التماسك اختلفوا –أيضًا– في تحديد الأدوات والوسائل التي بها يتحقق التماسك قلة وكثرة، شكلًا وضمنًا، لكنهم – ومع هذا الاختلاف – اتفقوا على عدة أدوات رئيسة، صارت قاسمًا مشتركًا بينهم جميعًا، وهذه الأدوات هي الإحالة، والاستبدال، والحذف، والوصل، والتماسك المعجمي.

---

(1) نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية. د/ سعد مصلوح صـ154، مجلة فصول ج1، م10، العدد 154/1، أغسطس 1991م.

(2) التماسك النحوي في الحديث النبوي الشريف، نماذج من صحيح مسلم، د/ أحلام هويوة صـ54، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر 2016م.

(3) لسانيات النص، د/ محمد خطابي صـ5.

(4) علم لغة النص "النظرية والتطبيق" د/ عزة شبل محمد صـ184، الطبعة الأولى 2007م، مكتبة مكتبة الآداب، القاهرة.

(5) التماسك النصي. دراسة تطبيقية في نهج البلاغة. د/ عيسى جواد فضل محمد الرباعي صـ16، صـ16، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية 2005م.

(6) ينظر نحو التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية. د/ محمد مفتاح صـ125، الطبعة الأولى 1996م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

أما الإحالة فهي علاقة معنوية، وتتمثل في المرجعية، وهي إما داخلية أو خارجية، أو بعبارة أخرى: إما مقامية، وإما نصية، والنصية تنقسم إلى قبلية، وإلى بعدية[1].

والاستبدال: هو عملية تتم داخل النص، بتعويض عنصر في النص بعنصر آخر، شأنه في ذلك شأن الإحالة، إلا أنه يختلف عن الإحالة بكونه يتم في المستوى النحوي المعجمي بين كلمات وعبارات، بينما الإحالة علاقة معنوية[2].

والحذف: هو علاقة داخل النص – أيضا_ لكنه يتم باستبعاد بعض العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يتمثل في الذهن، ويقوم فيه؛ بمعونة القرائن الدالة، لفظية كانت أم معنوية[3].

فإذا تجاوزنا هذا إلى الوصل [العطف] فهو تحديد للطريقة التي يرتبط بها اللاحق مع السابق بشكل منظم، من خلال بعض الأدوات والوسائل المنطوقة أو المفهومة[4].

وأما التماسك المعجمي فيختلف عن الأدوات السابقة بالحصول على مستوى المفردات؛ إما بتكرارها، وإما بتوارد الكلمات المرتبطة دلاليًا، إما بالترادف، أو التناظر أو غير ذلك في سياق واحد[5].

وهناك وسائل وأدوات أخرى كثيرة يتحقق بها التماسك النصي، كالمطابقة، والسياق الخارجي [المقام] والتلازم والارتباط، والعموم والخصوص، وغير ذلك من العلاقات والآليات التي أفاض الباحثون في الدراسات النصية الحديثة في إيرادها وذكرها، مما ستقوم الدراسة في محاورها ومباحثها بتفصيله وتحليله بمشيئة الله تعالى.

فإذا تجاوز البحث حديث الوسائل والأدوات إلى معايير التماسك التي لا يكون النص نصًا إلا بحصولها مجتمعة فيه، وجدناهم قد حصروها في سبعة معايير[6]، يتمثل أولها في السبك، وهو الاتساق أو الترابط الشكلي من خلال الوسائل السطحية الظاهرة، ويتمثل ثانيها في الالتحام، وهو التماسك الدلالي العميق، ويطلقون عليه- أيضًا-مصطلح الانسجام أو الحبك، ويتحقق من خلال وسائل وأدوات ضمنية أو معنوية.

أما ثالثها فيطلقون عليه القصد، ويتمثل في الغاية من النص والهدف منه، وأما رابعها فهو القبول أو المقبولية، ويتعلق بموقف المتلقي من قبول النص أو رفضه.

وأما الخامس فيطلقون عليه مصطلح الإعلامية أو الإخبارية، وتعني توقع المعلومات الواردة في النص من عدمه.

---

(1) ينظر نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصًا للأزهر الزناد صـ118 وما بعدها، الطبعة الأولى 1993م، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء.

(2) ينظر لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب. د/ محمد خطابي صـ19، 20.

(3) ينظر النص والخطاب والإجراء، لدوبو جراند صـ301، 302، تحقيق: د/ تمام حسان، الطبعة الأولى 1998م، عالم الكتب، القاهرة.

(4) ينظر لسانيات النص د/ محمد خطابي صـ22.

(5) ينظر نفس المرجع صـ23، 24.

(6)ينظر النص والخطاب والإجراء، لـ دوبو جراند صـــ 103-105، تحقيق: د/تمام حسان.

السادس: رعاية الموقف أو المقامية، ويتمثل في مناسبة النص للموقف، ومطابقته للمقام.

وأما المعيار السابع والأخير فهو التناص، ويتضمن العلاقات بين نص ما والنصوص الأخرى.

ثانيًا: التماسك النصي في التراث العربي القديم

مصطلح التماسك النصي، وإن بدا قشيبًا في شكله، وفي كيفية تناوله إلا أنه على المستوى الدلالي العميق ضارب بجذوره في أعماق التراث العربي القديم، اللغوي والنقدي على حد سواء؛ فليس "افتقاد المصطلح يعني بالضرورة افتقاد المضمون"[1]أو غيبته، أو عدم معرفته؛ لأن الثابت أن علماءنا الأوائل عرفوا التماسك النصي بمفهومه الحديث، وأفاضوا في بيانه وتفصيله وتحليله تحت مسميات أخرى تلتقي في مفهومها وفحواها مع مصطلح التماسك، مثل مصطلح السبك، والحبك، والانسجام، والنظم، والضم، والتعليق، والاتساق، وغير ذلك من المصطلحات التي تفيد هذا المضمون، وتلتقي في هذا الاتجاه.

وليس أدل على ذلك من الجاحظ الذي جعل المعيار الذي يحتكم إليه في الحكم على الشعر بالجودة هو تلاحم نسيجه، وتماسك بنائه، يقول: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فيعلم بذلك أنه أفرع إفراغًا جيدًا، وسبك سبكًا واحدًا، فيجري على اللسان كما يجري على الدهان"[2].

واستعمل عبد القاهر الجرجاني في كتابيه في البلاغة-على نحو لافت- مصطلحات لا تختلف في موضوعها عن مفهوم التماسك النصي في الدراسات اللغوية والنقدية الحديثة، كمصطلحات: السبك، والحبك، والتعليق، والتعلق، والاتساق، والنظم، والضم، والتصوير، والوشي المنمنم، والثوب المطرز، وغيرها من المصطلحات ذات الصلة القوية بهذا المضمون.

بل إن تلك النظرية المتكاملة التي وضعها عبد القاهر في الإعجاز (نظرية النظم) هي بحق " نظرية نصية واضحة"[3]؛ إذ النظم في جوهره عبارة عن تضام أجزاء الكلام، واعتبار بعضها مع بعض، وتعليق بعضها ببعض، يقول عبد القاهر: "وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلي الشيء كيف جاء واتفق، ولذلك كان عندهم نظيرًا للنسج والتأليف، والصياغة، والبناء، والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لو وضع

---

(1)قراءات أسلوبية في الشعر الحديث. د/محمد عبد المطلب صـ13، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995م.

(2)البيان والتبيين للجاحظ 1/49-50، تحقيق: فوزي عطوان، دار صعب بيروت 1968م.

(3) منهج التحليل النصي للقصيدة "تنظير وتطبيق"، د/ محمد حماسة صـ115، مجلة فصول ج 1 م 15، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1996م.

كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك، وحتى لوضع في مكان غيره لم يصلح"[1].

فليس الغرض بنظم الكلم إذا: "أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[2].

ويقول في موضع آخر: "واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت، أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا....."[3]

بل إن كثيرًا من الشواهد التي تناولها في كتابه الدلائل يقوم منهجه في تحليلها على هذا الأساس، وينهض على اعتبار هذا الأصل.

وعلى هذا النهج-أيضًا-سار علماء البديع بعد عبد القاهر؛ فأسامة بن منقذ يشير إلى أن خير الكلام ما كان متماسكًا، يقول: "خير الكلام المسبوك المحبوك، يأخذ بعضه برقاب بعض"[4] وابن أبي الإصبع يذكر أن الكلام الجيد هو ما " يأتي متحدرا كتحدر الماء المنسجم بسهولة سبك، وعذوبة ألفاظ، وسلامة تآلف، حتى يكون للجملة في المنثور، وللبيت من الموزون وقع في النفوس، وتأثير في القلوب ما ليس لغيره، وإن خلا من البديع"[5].

وإذا كان هذا شأن النقاد والبلاغيين فلم يكن اللغويون من أمثال سيبويه [6]، والمبرد [7]، وابن جني [8]، وابن هشام [9] أقل وعيًا منهم بمفهوم التماسك؛ فقد كانت كانت لهم إشارات متقدمة، وإضافات جيدة في هذا المجال.

ليس هذا فحسب بل بلغ الوعي بطبيعة المصطلح ذروته عند علماء القرآن وأهل التفسير؛ من خلال بحثهم في علم المناسبة التي هي أعم مجالًا، وأوسع ميدانًا من

---

(1) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني صـــ49، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة 1992م، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني-جدة.

(2)دلائل الإعجاز صـــ49-50.

(3) المرجع نفسه صـــ93.

(4)البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ صـــ131، تحقيق: أحمد بدوي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر 1960م.

(5)بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري صـــ 167، تحقيق: حفني محمد شرف، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

(6)ينظر الكتاب لسيبويه 1/ 84-87-88، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة 1988م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(7)ينظر المقتضب للمبرد 126/4، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة 1994م.

(8) ينظر الخصائص لابن جني 331/2، تحقيق: محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986م.

(9) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام 249/1، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

مصطلح التماسك ومفهومه في العصر الحديث، فبحثوا في مناسبة سور القرآن بعضها ببعض، وارتباط آيات السورة الواحدة بعضها ببعض، وانسجام أول الآية مع آخرها، واتصال آخر السورة بأولها، وهكذا، وأرجعوا ذلك كله: "إلي معنى ما، رابط بينهما، عام، أو خاص، عقلي، أو حسي، أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بعناق بعض، فيقوي بذلك الارتباط، ويصير التآلف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[1]، إلي غير ذلك مما أفاض فيه الزركشي والسيوطي من تفصيل أنواع المناسبات، والعلاقات الرابطة التي هي عين ما يفهم من مصطلح التماسك النصي في العصر الحديث.

ثالثًا: إضاءة موجزة لفن الوصايا في الأدب العربي

الوصية فن أصيل ضارب بجذوره في أعماق العقل العربي منذ العصر الجاهلي، وهي جنس من أجناس الأدب التي تتسم بالأسلوب المرسل القوي، ذي الطابع الخطابي الخالي من التكلف والتمحل، والتشدق والتقعر، تحقيقًا للمصداقية، وضمانًا للتأثير، ورعاية للمقام وطبيعة الموقف الذي قيلت فيه.

والوصية في اللغة تدل على وصل شيء بشيء، جاء في مقاييس اللغة: "الواو والصاد، والحرف المعتل أصل يدل على وصل شيء بشيء، يقال: وصيت الشيء وصلته، ووصيت الليلة باليوم وصلتها، وذلك في عمل تعمله، والوصية من هذا القياس، كأنه كلام يوصى، أي: يوصل"[2].

وهي في عرف أهل الأدب: خلاصة قول حكيم، وخبرة حياتية طويلة، وملاحظة دقيقة، صادر عن مجرب، ذي عقل واع، وتفكير سليم، يوجهها إلى من تربطه بهم صلة، ويلقيها إلى من تجمعه معهم علاقة؛ بدافع من المودة الصادقة، والحب العميق؛ لينتفعوا بها، عند تحقق المقتضى، ووجود الداعي لذلك[3].

والوصية من الفنون النثرية التي أولتها كتب الأدب عناية خاصة، وحرصت على أن تفسح لها مساحة واسعة في صفحاتها، وأن تخصص لها أبوابًا مستقلة؛ اعتبارًا بأهميتها، ونداءً على أصالتها ورسوخ قدمها في الأدب العربي.

ويتمحور موضوع الوصية في الغالب حول غرض النصح والإرشاد، والتربية والتوجيه، والحث على الأخلاق النبيلة، والمعاني السامية، والسلوكيات الطيبة النافعة، والتحذير من الأخلاق السيئة، والطباع اللئيمة، والسلوكيات الضارة التي تورث صاحبها الذم والاستهجان، والضعة والحقارة، ويكون الدافع إليها هو حب

---

(1)البرهان في علوم القرآن للزركشي 35/1، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة 1980م، دار الكر، بيروت.

(2)مقاييس اللغة لابن فارس 116/6، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر 1979م.

(3)ينظر في تاريخ الأدب الجاهلي، د/علي الجندي صـ268، الطبعة الأولى 1991م، دار التراث، القاهرة.

من توجه إليهم، والخوف والحرص عليهم، والرغبة في رفعة شأنهم، وسمو مقامهم، وإرادة جلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم.

وتتنوع الوصايا من حيث الموضوع والمضمون إلى عدة أنواع؛ فهناك وصايا الملوك والأمراء لمن يخلفونهم، ويقومون على الأمر بعدهم، وهناك وصايا الحكماء وأهل الدربة والخبرة لأبنائهم، أو لأبناء عشيرتهم وقومهم، وهناك وصايا الأباء لأبنائهم، والأمهات لأبنائهن وبناتهن، وهناك وصايا الحرب، وهناك الوصايا الدينية، والوصايا السياسية والاجتماعية.

وهناك وصايا المعمرين التي تعد مزيجًا من الأنواع السابقة، وهذا النوع من الوصايا هو الذي يتمحور حوله عنوان هذا البحث، وينهض إلى دراسته ومعالجة قضية التماسك النصي فيه.

وترد هذه الوصايا عادة على ألسنة طوائف من الحكماء المعمرين الذين أطال الله في أعمارهم، ومد في أجالهم، حتى تجاوزت الغالب والمعتاد في أقرانهم، هذا إلى جانب ما عرفوا به من الحكمة، وسداد الرأي، وصدق المشورة، وفرط الخبرة، وشدة الفراسة، من أمثال أكثم بن صيفي، وزهير بن جناب الكلبي، وعامر بن الظرب العدواني، وغيرهم ممن كان على شاكلتهم.

ولا يتأتى بحال –خلافًا لبعضهم-وضع حد أدنى من العمر لهذا الصنف من أصحاب الوصايا؛ لأن الحكم في هذا الأمر نسبي، يختلف من أمة لأمة، ومن جيل لجيل، ومن عصر لعصر؛ فقد كانت أعمار الأمم قبل أمة الإسلام متطاولة، وآجالهم متراخية، حيث كان الواحد منهم يتجاوز عمره المائة سنة، أما أمة الإسلام فغالب أعمارها بين الستين والسبعين، ومن يتجاوز ذلك يكون معمرًا، وهم قليل، وتصديق هذا من حديث النبي -ﷺ-: "أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين، وأقلهم من يجوز ذلك"[1].

والغالب في هذا النوع من الوصايا أن يخرج في إطار نثري، يتسم بالسهولة والليونة، والعذوبة والوضوح، ويميل إلى الإطناب بالتكرار قليلًا، وبالترادف والتعليل، والإجمال والتفصيل كثيرًا، وفاء بحق المعنى، وإلحاحًا على تحقق المطلوب، ونادرًا جدًا ما يكون شعرًا، أو يجمع فيه بين الشعر والنثر.

---

(1) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه، النوع السبعون، باب ذكر الإخبار عن وصف العدد الذي به يكون عوام أعمار الناس، حديث رقم: 5033، 146/6، تحقيق: محمد علي سونمز، الطبعة الأولى 2012م، دار ابن حزم، بيروت.

المحور الأول

التماسك النصي بالوسائل الحرفية

تعددت الوسائل الحرفية أو الأداتية التي تترابط بها النصوص، وتنوعت صورها في وصايا المعمرين، حيث اتخذ أصحاب هذه الوصايا منها ركائز ودعائم لتحقيق التماسك النصي في أنسجة وصاياهم، ومتكأً لتعميق مضامينها، وترسيخ غاياتها وأهدافها في أنفس المتلقين ووجداناتهم.

وأكثر هذه الأدوات الحرفية استعمالًا، وأبرزها دورانًا في سياقات هذه الوصايا هي حروف العطف: الواو، والفاء، وثم خاصة؛ لندرة استعمال حروف العطف الأخرى، أو انعدامها بالكلية، يلي ذلك حروف الإضراب والاستدراك، وكذلك أدوات الاستثناء، وغير ذلك من الحروف والأدوات الأخرى التي سوف نعرض لها في صور الدراسة من هذا المحور بمشيئة الله تعالى.

الصورة الأولى

التماسك النصي بحروف العطف

باب العطف من الأبواب التي التفت إليها العلماء قديمًا وحديثًا بالنظر والتأمل، على اختلاف توجهاتهم، وتنوع مشاربهم؛ فقد بحثوا في تعريفه، ودرسوا أقسامه، وتناولوا أدواته، وفصلوا القول في معنى كل أداة وحكمها.

ومن جانب آخر: فلم يتوقف بحثهم عند حدود عطف الألفاظ المفردة بعضها على بعض، أو عطف الجملتين أو الجمل، بل تجاوز نظرهم كل هذا ليشمل ما أطلقوا عليه عطف القصة على القصة، أو عطف الغرض على الغرض[1]، وما كان من الجمل له محل وموقع من الإعراب، وما لم يكن له محل.

كما تنبه العلماء إلى دور العطف في عملية الربط ورصدوا أثره في تماسك النصوص، واتصال بعضها ببعض، وتشارك المعطوف، والمعطوف عليه في الحكم، والدخول معه في المعنى، حتى يصير النص اللغوي وحدة كلية متجانسة، لا يتدابر فيها جزء مع جزء آخر، ولا ينبو فيها كلام عن كلام؛ لذا لا نعجب حين نجد عالما كابن يعيش يحصر دور العطف وفائدته في تحقيق هذا البعد الوظيفي، حين نص على أن الغرض من عطف الجمل هو ربط بعضها ببعض، واتصالها، والإيذان بأن المتكلم لم يرد قطع الجملة الثانية عن الأولى[2]، ثم كان حديث البلاغيين -وبخاصة عبد القاهر[3]-في باب الفصل والوصل تتويجًا لهذه النظرة العميقة، وإكمالًا لهذه الجهود المتواصلة، بل إن الكيفية التي تناول بها البلاغيون باب الفصل والوصل، والمنحى الذي أخذوه في معالجته، وحصرهم إياه في نمط معين، ونوع خاص من الجمل، وهي الجمل التي لا محل لها من الإعراب لينطق

---

(1) ينظر الكشاف للزمخشري ١/ ٥٤، الطبعة: الثالثة ١٩٨٧م، دار الريان للتراث، القاهرة.

(2)ينظر شرح المفصل لابن يعيش 90/8، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.

(3)ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، ص 224، 225، تحقيق محمود محمد شاكر.

بوعيهم الشديد بلب قضية التماسك، وجوهر عملية الترابط النصي، وليس بموضع لمز أو طعن، أو تهمة بتقصير ومحدودية رؤية، كما ظن بعض الملصقين بالعلم من المحدثين؛ لعدم ظهور المناسبة ووضوحها، أو قرب الوجه الجامع في أمثال هذه الجمل.

ويرجع السبب في هذا إلى أن إدراك الصلات والروابط، وتلمس العلائق والوشائج في هذا الضرب يتطلب قدرًا كبيرًا من التأمل في لب المعنى، وجوهر النص؛ لأنك ترى جملة ثانية ذات معنى جديد، إذا أدرته في نفسك، وتأملته في عقلك وجدته يلتقي نوعًا من الالتقاء مع معنى الجملة السابقة، بخلاف ماله محل من الإعراب، فإن الموقع الإعرابي نفسه يقوم في جوهره ويرتكز على وصف وتحليل العلاقة القائمة بين مفردات الكلام وجمله، وأننا حين نقول: إن هذا المفرد، أو هاتيك الجملة وقعت وصفًا، أو حالًا، أو خبرًا، أو ما شئت فنحن نبين الرابطة والعروة التي تصلها بجاراتها، وتجعلها تتشابك معها في خيط واحد[1].

وإذا كان العلماء قديمًا وحديثًا قد رصدوا دور العطف وفائدته في تحقيق عنصر التماسك النصي في أنسجة الكلام إلا أن أيًا منهم لم يشر إلى وجه ذلك، أو يكشف عن سببه، فلم يحاولوا معالجة هذا الأمر الذي ينهض في هذا الباب على بعدين، الأول: أن العطف يمثل نوعًا من أنواع الإحالة القبلية [2]، من جهة اللفظ والمعنى؛ حيث يحيل حرف العطف المعطوف على المعطوف عليه، ويرده إليه؛ ويلحقه به، ويشركه معه في الإعراب والمعنى، إن كان للمعطوف محل من الإعراب، أو في المعنى فقط، إن لم يكن للمعطوف محل من الإعراب.

وقرينة هذا الوجه في التحليل من الارتداد إلى المعنى اللغوي للعطف وتأمله؛ إذ هو في اللغة: ليُّ الشيء والالتفات إليه، يقال: عطفت العود، إذا ثنيته، وعطفت على الفارس، إذا التفت إليه، وهو مستعمل في هذا المعنى في علم النحو -أيضًا -، حسبما أشار إليه أبو البقاء العكبري [3].

الثاني: أن العطف يقوم على علاقة الضم والجمع، وهي ترتكز في بعدها اللغوي على معنى التداخل والتشابك بين المتعاطفين، والتأليف بينهما في حكم ومعنى، أو في معنى فقط، وذلك على نحو ما سبق بيانه، وتنهض على وصل الكلام واتصال بعضه ببعض، وتنأى به عن الترهل والهشاشة التي تفقد الأساليب تماسكها وتآلفها،

---

(1) ينظر دلالات التراكيب د محمد محمد أبو موسى ص ٢٩٣وما بعدها، الطبعة الثانية ١٩٨٧م، مكتبة وهبة، القاهرة.

(2) الإحالة هي العلاقة بين العبارات من جهة، وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، د/ محمد خطابي، ص ١٧، أو هي علاقة معنوية بين ألفاظ معينة وما تشير إليه من أشياء أو معان، أو مواقف تدل عليها عبارات أخرى في السياق، أو يدل عليها المقام، الإحالة في نحو النص دراسة في الدلالة والوظيفة، د/ أحمد عفيفي، العربية بين الجملة ونحو النص – كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية 527/2، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة 2005م.

(3) ينظر اللباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء العكبري ١ / ٤١٦، تحقيق: غازي مختار طلمبات، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، دار الفكر المعاصر، بيروت.

ولهذا اشترط العلماء أن يكون بين الطرفين، المعطوف والمعطوف عليه، وجه يجمع بينهما، ومناسبة تؤلف بين أجزائهما، وتجعل العطف مستساغا. [1]

وقد تناول الباحثون في علم اللسانيات النصية الحديثة العطف، وركزوا على دوره في الربط، وأثره في تحقيق التماسك البنيوي، والدلالي في تراكيب الكلام، من خلال نظرهم في أدوات العطف التي تضرب على أوتار هذا البعد الوظيفي، وبخاصة حرف (الواو، والفاء، وثم)؛ إذ هي أكثر حروف العطف دورانًا واستعمالًا في وصايا المعمرين؛ كما أنها جميعًا تشترك في دلالة الضم والجمع، مع اختصاص كل واحدة منها بخصوصية فيه، حسبما يأتي تفصيله لاحقًا في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

أما سائر حروف العطف الأخرى المتفق عليها والمختلف فيها، فأكثر ما ورد منها في وصايا المعمرين لا يتحقق فيه شرط اعتبارها من حروف العطف، أو جاء على وجه من الندرة النادرة التي لا يعتد بها في هذا الجنس الأدبي.

أولًا: التماسك النصي بالعطف بالواو

الواو هي أكثر أدوات العطف مجالاً، وأشهر حروفه استعمالًا، ولا عجب في ذلك فهي قلب باب العطف وأم حروفه.

وهي-كذلك -أصل رئيس في القضية التي يعالجها البحث؛ إذ تعد من أبرز وسائل التماسك النصي في وصايا المعمرين، وأقواها في تأليف الكلام بعضه ببعض؛ إذ يستحيل أن تجد وصية من هذه الوصايا قد خلت من الواو في حبك الكلام، سواء أكانت الواو لعطف المفردات بعضها على بعض أم كانت لعطف الجمل بصورتيها، ما كان له محل من الإعراب، وما لم يكن له محل، فإن الكلام العالي لا بد له من رباط يشد بعضه إلى بعض، لفظيا كان هذا الرباط أم معنوياً.

ويرجع السبب في وفاء الواو بتحقيق هذا البعد الدلالي، إلى أنها تفيد-إلى جانب ما سبق تفصيله في توطئة هذا المبحث-مطلق الجمع بين المتعاطفين وتشريك أحدهما للآخر في الحكم والمعنى، من غير دلالة على مصاحبة، أو ترتيب زمني، أو مهلة، أو نحو ذلك [2]، وهذه الدلالة تقتضي أن وظيفة الواو تكمن في الربط بين مستويات النص، حتى يمكن للنص أن يظهر متماسكًا ومتجانسًا، كما تقتضي أن يصير المتعاطفان شيئًا واحدًا أو في حكم الشيء الواحد.

وأما ما ذهب إليه بعضهم من أن وظيفة العطف بالواو هي الجمع بين خيوط أو معان قد تبدو متنافرة، أو مبعثرة، لا توجد بينها علاقات معنوية في الغالب[3] فلا يعني انفصام عرى المتعاطفين بها، بل لا بد أن يكون بينهما نوع تلاؤم وتناسب، أو شراكة، أو تضاد ومقابلة، أو غير ذلك من أوجه المناسبة التي أشار إليها عبد

---

(1) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٢٢٤، كما ينظر شروح التلخيص ٣ / ٨ وما بعدها، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

(2) ينظر ضياء السالك إلى أوضح المسالك، تأليف: محمد عبد العزيز النجار، ١٨١/٣، الطبعة الثانية بدون تاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(3) ينظر التماسك والتناسب دراسة في بلاغة النص القرآني د/ محمد أبو عامود، ص١٢١، الطبعة الأولى ٢٠١٤م، دار النابغة للنشر، القاهرة.

القاهر[1] وأفاض العلماء بعده في الحديثِ عنها، ولذلك يقول العلوي: " ومن حق المحدث عنه في الجملة الثانية أن يكون له تعلق بالمحدث عنه في الجملة الأولى، حتى يكونا كالنظيرين والشريكين، ولا يجوز أن يكون أجنبيًا عنه بحيث لا علاقة بينهما، ولا مشابهة بحال"[2].

والناظر في وصايا المعمرين يجد أن الواو قد جاءت للعطف في أنساقها التعبيرية على عدة مستويات، تعانقت فيما بينها على تجسيد هذا البعد وتصويره، فجاءت للعطف على مستوى المفردات، وجاءت للعطف على مستوى الجملة التي لها محل من الإعراب، كما جاءت لذات الغرض على مستوى الجملة التي لا محل لها من الإعراب، وهي في كل ذلك تقوم بوظيفة الربط، وتنهض بتشديد التماسك النصي في سياق هذه الوصايا، إلا أن البحث سوف يقتصر في الدراسة هنا على المستويين: الأول والثاني المختصين بعطف المفردات، والجمل التي لها محل من الإعراب، أما المستوى الثالث الخاص بالجمل التي لا محل لها فهو أكثر المستويات الثلاثة دورانًا في وصايا المعمرين، وسوف يأتي بحثه في التماسك النصي في باب الفصل والوصل بمشيئة الله تعالى.

أما الربط بالواو بين المفردات فإنك حين تراجع وصايا المعمرين بالتأمل يتبين لك أن أكثر ما تقع فيه الواو عاطفة على هذا المستوى يكون بين القيود والمتعلقات، وقلما تقع بين عناصر ركن من أركان الجملة، وهذا أمر بدهي يفسره-أولًا-أن تعلق القيود بالمعاني والصفات التي يقع عليها التعدد أكثر من تعلق الأركان، وتعلق الأركان بالذوات أكثر من تعلق القيود بها.

ويفسره -ثانيًا -وحدة الخطاب النصي في هذه الوصايا، فقائل الوصية واحد يتمثل في الموصي، والخطاب فيها يتجه إلى جهة واحدة من أول الوصية إلى آخرها، وهو الموصَى، ويكون في الغالب ذا صلة وثيقة بالمتكلم.

ويفسره- ثالثًا-أن أركان الجمل يشد بعضها بعضا من خلال علاقة الإسناد، وليست في حاجة إلى رباط يشدها إلا إذا اقتضى المقام ذلك، وأما القيود والمتعلقات فلما كانت في طبيعتها زائدة على أصل الدلالة، خارجة عن أصل الإسناد-لا جرم- افتقرت إلى ما يوثق عراها، ويربط بعضها ببعض، أو يربطها بعناصر الجملة الأصلية، ولا شك في أن الواو تمثل الأداة المثلى، والحرف الأشهر في هذا الباب؛ للاعتبارات التي عرض لها البحث آنفًا.

ويفسره-رابعًا-أن كثرة القيود وتعددها؛ لكثرة ما تدل عليه من معان وصفات، وخلال وشمائل تتعلق بها الوصية وتقوم عليها في الأصل؛ إذ هي المطلوب تحققه وامتثاله، أمرًا أو نهيًا، ترغيبًا أو تحذيرًا، وعدًا أو وعيدًا، يتطلب روابط تجمع شتاتها، وتضم متفرقها، فنسقت الواو بينها؛ لتحقيق هذا البعد الوظيفي الذي يقوم على الوفاء بهذا المطلب دون اعتبارات أو دلالات أخرى.

---

(1) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص ٢٢٤.

(2) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي، ص٢٢٥، تحقيق/ محمد عبد السلام شاهين، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

وإن شئت تبيانًا لذلك فلك أن تراجع هذه الوصايا، حتى تقف على صحة هذا الاستنباط، ووكادة هذا التوجيه، راجع إن شئت قول أكثم بن صيفي[1] في وصيته لملك هجر لما طلب إليه النصيحة: "وخير الأمور مغبة ألا تنى في استصلاح المال، وإياك والتبذير؛ فإن التبذير مفتاح البؤس، ومن التواني والعجز نتجت الهلكة"[2]، فقد نسق أكثم [التواني والعجز] المتعلقين جرًا بالفعل المتأخر عنهما، وشد وثاقهما بالواو التي أمسكت بزمامهما معا، وجعلت كل واحد منهما قرين الآخر ومكافئًا له على نحو من الاستقلالية التي آذن بها ما في الواو من معنى المغايرة في تحقيق الهلكة والضياع، وهو ما يجعل النأي عنهما أشد وأقوى، وأخذ الحيطة والحذر من الوقوع في أسبابهما أجد وأسرع.

ولك أن تراجع قول نهد بن زويد في وصيته لأولاده: " أوصيكم بالناس شرًا، طعنًا وضربًا"[3] فقد جمع الرجل بين (طعنًا وضربًا) المنصوبين على البدلية، أو عطف البيان، ونسق بينهما بالواو التي أمسكت بعناقهما، وأخذت بحجزهما؛ لتدل هذه الواو إلى جانب خاصية الربط والحبك على أن الأمرين معًا (الطعن والضرب) مقصودان للمتكلم معًا وعلى حد سواء.

وإن شئت فراجع قول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: أي بنية، إن الوصية لو تركت لعقل وأدب أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك"[4] حيث جمعت أمامة لابنتها بين العقل والأدب، ونسقت بينهما بالواو التي أحالت المفردة الثانية إلى الأولى؛ وردتها إليها؛ ليتماسك المتعاطفان معًا، ويتعانقا من خلال الواو على تصوير رجحان عقل هذه البنت، وحسن أدبها، وأن كل صفة من الصفتين كفيلة وحدها بترك الوصية، كما ينبئ هذا الرابط من خلال الواو عن قناعة المرأة الموصية، وفرط ثقتها الشديدة في ذكاء ابنتها، وتمام عقلها، وكمال أدبها.

وغير ذلك مما خرج هذا المخرج كثير، خذ-مثلاً-قول عامر بن الظرب[5] في وصيته لقومه:" من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له"[6]، وقوله -أيضًا-: "إن خالق الشر والخير وسعهما، ولكل يد منهما نصيب"[7]، وقول زرارة بن عدس[1]

---

(1) أكثم بن صيفي بن رياح (ت: 9ه)، حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين، عاش زمنا طويلا، وأدرك الإسلام، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق. ينظر الأعلام لخير الدين الزركلي (ت: 1396هـ)، 6/2، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م.

(2) المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني صـ35، تحقيق/ بشير محمد عيون، الطبعة الأولى 2020م، مكتبة دار البيان دمشق، وجهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ص492، دار الفكر، بيروت، 1988م.

(3) المعمرون والوصايا صـ39، ونهد بن زويد من بني الحافي، جد جاهلي يمني، كان يسكن بقرب نجران، وعاش عمرًا طويلًا، وكثرت ذريته من أبنائه في عهده. ينظر الأعلام 49/8.

(4) المعمرون والوصايا ص١٤١.

(5) عامر بن الظرب العدواني، حكيم خطيب، كان إمام مضر وحكمها وفارسها وممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، وهو أحد المعمرين في الجاهلية، وأول من قرعت له العصا. ينظر الأعلام للزركلي 252/3.

(6) المعمرون والوصايا ص٧٦

(7) المرجع نفسه ص٧٧

لبنيه: "..... يا بني قد أدركت سفيان بن مجاشع..... فأخبرني أنه قد حان خروج نبي بمكة، يقال له: أحمد.... فإن أدركتموه فاتبعوه تزدادوا بذلك شرفًا إلى شرفكم، وعزاً إلى عزكم"[2]، وقوله -أيضًا -في نفس الوصية: "وإياكم وشرب الخمر، فإنها مفسدة للعقول والأجساد، ذهّابة بالطريف والتلاد "[3]، وقول علي-رضي الله عنه- في وصيته لأولاده: "عليكم يا بني بالبر والتواصل، والتبار، و إيّاكم والتقاطع والتدابر والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"[4]، وقول جابر بن مالك الكلبي في وصيته لبنيه: "أوصيكم برهبة الله، وصلة الرحم، والحفظ للعهد، والمباعدة لأهل الغدر، وأهل الذكر للمعاير"[5]؛ فإن وقوع الواو بين هذه المواضع ممسكة رباط هذه المفردات: "الحق والباطل-الشر والخير -شرفاً إلى شرفكم، وعزاً إلى عزكم-للعقول والأجساد -بالطريف والتلاد - بالبر والتواصل والتبار -التقاطع والتدابر والتفرق -البر والتقوى -الإثم والعدوان - برهبة الله وصلة الرحم، والحفظ للعهد والمباعدة لأهل الغدر، وأهل الذكر للمعاير"، قد شد وثاقها، وجمع بينها بميثاق غليظ، وعرى وثقى، وآذن باستقلالية كل واحدة منها في بابه، وأنه وحده كاف في الوفاء بالمعنى، وتحقيق الغرض المقصود.

ولا يخفى ما بين هذه المفردات المتعاطفة من أوجه التناسب والتلاؤم التي سوغت الربط بالواو؛ فهذه المفردات يكاد يجمعها – إلى جوار تشاركها في الحكم الإعرابي الذي يرتكز في الأصل على وصف العلاقة وتحليل الصلة القائمة بين مفردات الكلام وجمله -علاقة واحدة، هي علاقة التناظر؛ [فالتواني والعجز] -مثلاً -في وصية أكثم متناظران؛ لأنهما من وادٍ واحد، هو وادي الضعف والوهن، كما أن أحدهما مسبب عن الآخر، ومترتب عليه، و[العقل والأدب] في وصية أمامة من وادٍ واحد -أيضًا-؛ إذ الأدب من لوازم العقل، فبينهما علاقة عموم وخصوص، وكذلك: [الطريف والتلاد] في وصية زرارة بن عدس، بينهما تناسب قوي، وتلاؤم شديد؛ لأنهما متقابلان، فبينهما علاقة تباين وتضاد، وكذلك سائر المواضع السالفة، يمكنك أن تقف بسهولة على هذه اللحمة التي تشد هذه المفردات المتعاطفة، وتصل بعضها ببعض، وتجعلها شيئًا واحدًا، أو في حكم شيء واحد؛ لذا كان وجود الواو بينها لتعميق هذه الصلة، وتوكيد هذا التماسك في غاية المناسبة.

وقد تجئ المفردات المتعاطفة بالواو، وهي تمثل في مجملها ركنًا من أركان الإسناد في بنية هذه الوصايا، كأن تقع مسندًا إليه، أو مسنداً مبتدأ وخبرًا، أو ما أصله كذلك، وحين تقع متعاطفة بالواو في هذا الموقع لا تختلف في سمتها ودلالتها وترابطها وتماسكها عن ذي قبل مما كانت فيه هذه المفردات قيدًا متممًا، حيث وصلت الواو بينها على نحو قوي ومتين، وآخت بينها على نحو ظاهر وعميق،

---

(1) زرارة بن عدس، من تميم، وكان حكمًا من قضاتهم، وقادهم وغيرهم يوم شويحط، من أولاده: حاجب بن زرارة، والمنذر بن ساوى، صاحب هجر. ينظر الأعلام للزركلي 43/3.

(2)المعمرون والوصايا ص 144

(3)المرجع نفسه ص 143

(4) المرجع نفسه ص 181

(5) المرجع نفسه ص 152

وإن انفرد كل موضع منها بخصوصيات في الدلالة تقتضيها طبيعة الموقف، وخصوصية الموقع.

وتبيان هذا أن تراجع قول المنذر بين ماء السماء في وصيته لولده النعمان: "إن لك عقلاً وجمالاً ولسانًا، فاكتس من ثناء الناس ما يؤيد جمالك..." [1]، فقد جمع الرجل بين ألفاظ: العقل والجمال واللسان الواقعة موقع المسند إليه، وشد رباطها بالواو التي آذنت باجتماع هذه الصفات المتناظرة، وتعانقها جميعًا على تكوين شخصية النعمان، ورسم ملامحها، وإبراز قسماتها، كما آذنت بما فيها من معنى المغايرة المؤذنة بالاستقلالية بكفاية كل واحدة من هذه الصفات في إضفاء معاني الوجاهة والنباهة، والتقدم والفضيلة على النعمان، ودلت على تعدد وتنوع مظاهر التميز والتفرد، والحسن والكمال، المكونة لشخصية النعمان؛ لذا كان جديرًا بإيصاء والده إياه دون سائر إخوته، كما نطق به أول الوصية، ووراثته الملك من بعده.

ولك أن تراجع-أيضًا -قول أكثم بن صيفي في وصيته لملك هجر: " وحب المديح رأس الضياع، وفي المشورة صلاح الرعية، ومادة الرأي، ورضا الناس غاية لا تدرك"[2]، فإنك تقف على صحة ما ذكرته لك، حيث جمع أكثم بين: "صلاح الرعية ومادة الرأي"، الواقعتين مبتدأ مؤخراً بالواو التي دلت على اشتراك تحققهما في المشورة، واقترانهما في ذلك على وجه التكافؤ، والتناظر، والاستقلالية، وأنهما كالجناحين للطائر، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر.

وقول دريد بن الصمة [3] في وصيته لقومه: " وإياكم والفاحشة في النساء فإنه عار أبد، وعقوبة غد"[4]، فنسق في المسند بين " عار أبد" و"عقوبة غد" بالواو التي ألصقت كليهما بالآخر، وردته إليه، وجعلتهما في القبح والشناعة سواءً، وآذنت بكفاية كل واحدة من العقوبتين في مقام التحذير والتخويف، ودلت على تعدد المصير السيئ، وتنوع العقوبة القاسية التي يئول إليها أمر من يجرؤ على ارتكاب الفاحشة في النساء.

ووجه المناسبة والملاءمة بين المعطوف عليه والمعطوف ظاهر بقوة في المواضع السابقة، ومن هنا جاءت الواو ببعدها الدلالي لتعميق قوة الرابطة بينهما، وتوثيق عرى الاتصال في نسق الكلام، وكانت في غاية المناسبة، وشدة التلاؤم.

وأما الربط بالواو بين الجمل التي لها محل من الإعراب، فهو -أيضًا -واقع بكثرة في طوايا وصايا المعمرين، مبثوث بغزارة في تراكيبها ومعاقدها؛ لترسخ هذه الكثرة على هذا النحو بعدًا دلاليًا، وتعطي انطباعاً قويًّا بتماسك بنايات هذه

---

(1) المعمرون والوصايا ص146، والمنذر هذا هو المنذر بن ماء السماء، أحد ملوك الحيرة، توفي سنة 60 قبل الهجرة، أمه هي ماوية بنت جشم وقد سميت بماء السماء لجمالها وحسنها. ينظر الأعلام للزركلي 292/7.

(2) المعمرون والوصايا ص ٣٥.

(3) دريد بن الصمة البكري، من هوازن، شجاع من الأبطال، المعمرين في الجاهلية. كان فارس قومه وقائدهم، وغزا نحو مئة غزوة لم يهزم في واحدة منها، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، وقتل يوم حنين كافرًا. ينظر الأعلام للزركلي 339/2.

(4) المعمرون والوصايا ص 41، وتاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي 236/17، تحقيق: محب الدين العمري، دار الفكر، بيروت 1995م.

الوصايا بشدة، وتلاحم عناصرها بقوة على الوفاء بمعانيها وأغراضها، وتحقيق أهدافها ومطالبها.

وأكثر ما تتعاطف فيه الجمل التي لها محل من الإعراب، وتتماسك فيما بينها بالواو في خبر الحرف الناسخ "إن"، وفي جواب الشرط أو الطلب، ودليل هذا أن تراجع مواضع الصورة الأولى في نسيج هذه الوصايا، كأن تراجع مثلاً قول أكثم بن صيفي في وصيته لبنيه :"وإنه لا ينفع من الجزع التبكي، ولا مما هو واقع التوقي"[1]، وقول دريد بن الصمة في وصيته لقومه:" وعليكم بصلة الرحم، فإنها تعظم الفضل، وتزين النسل"[2]، وقول الحارث بن كعب في وصيته لبنيه في شأن المال، وفضله: " وإنه ليسود غير السيد، ويؤيد غير الأيد"[3]، وقول معاوية في وصيته لابنه يزيد: " إني كفيتك الحل والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعزاء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك ما جمع واحد" [4]، وقول عبدالملك بن مروان في وصيته لأولاده: "وإياكم والاختلاف والفرقة، فإن بها هلك الأولون قبلكم، وذل ذوو العدد والكثرة"[5]، وقول المهلب بن أبي صفرة[6] في وصيته لأولاده: "وإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل، وتكثر العدد، وتعمر الدار، وتعز الجانب....." [7]، فقد عملت الواو في الأخبار السابقة للحرف الناسخ على توثيق عراها، وشد رباطها، وتماسك بنايتها؛ لدلالتها على تناسبها وتلاؤمها، وأنها من أودية واحدة، ومن حقول دلالية متقاربة؛ فبين الكثير منها تناظر في الدلالة، وانسجام في المضمون، وإن شئت فعاود وصية معاوية لابنه يزيد؛ لترى ظهور التناسب، وقوة الملائمة بين المسند إليه والمسند، وبين القيود والمتعلقات في هذه الأخبار: " إني كفيتك الحل والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعزاء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك ما جمع واحد"، بداية باتحاد المرسل والمتلقي؛ فالمرسل هو معاوية -رضي الله عنه - المدلول عليه بضمير الفاعل (التاء) المتصل بالأفعال السالفة، باعتباره مسندًا إليه، والمتلقي هو يزيد بن معاوية المدلول عليه بكاف الخطاب.

والأفعال المسندة إلى ضمير معاوية (تاء الفاعل) هي المسند في هذه الأخبار، وبينها علاقة تناظر؛ لأنها من حقول دلالية متقاربة المعنى، أو مترادفة المفهوم؛ كالترادف الذي بين ألفاظ: " وطأت – ذللت -أخضعت" والتقارب الذي بينها وبين

---

(1) المعمرون والوصايا ص 25

(2)المرجع السابق ص 41

(3) نفس المرجع ص 145، والأيد: القوي الشديد، وغير الأيد: الضعيف. لسان العرب، أيدا، 188/1.

(4) المعمرون والوصايا ص 185

(5) المرجع نفسه ص ١٩١.

(6) المهلب بن أبي صفرة، أبو سعيد، أمير، بطاش، جواد، قال فيه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق. وولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير. وفقئت عينه بسمرقند، وتوفي 83هـ. ينظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن خلكان، 350/5، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، بدون تاريخ، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال لأبي محمد القضاعي الكلبي المزي،8/29، تحقيق/ د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، 1400ه– 1980م.

(7) المعمرون والوصايا ص 169

الفعلين " كفيت -جمعت"، ووراء هذا التعدد والتناسب الذي حبكته الواو في مقام الوصاية برعاية السلطان، والمحافظة على الملك الموروث ما وراءه من دلالة على استفراغ الوسع، وعظم الجهد، وبالغ المعاناة، وطول المدة، وضخامة العوض الذي بذله معاوية -رضي الله عنه-في توطيد دعائم الملك، وترسيخ أركانه من بعده لابنه يزيد؛ ليأخذ يزيد الوصية على محمل الجد والقوة، من غير تهاون أو تخاذل، أو إفراط وتفريط.

ووراءه ما وراءه -أيضًا -من إيذان بكفاية كل خبر منها واستقلاليته في تصوير المعنى السابق وإبرازه، وإيحاء بشدة خبرة معاوية بالحياة وتقلباتها، وقوة تمرسه بالدهر وصروفه، وحسن اضطلاعه بمسئوليات الملك والسياسة، ليعظم من رغبة ابنه يزيد في القيام على تنفيذ وصيته، والحفاظ على ملكه، وكذلك سائر المواضع السابقة يمكن إجراؤها في التفصيل والتحليل هذا المجرى، والله المستعان.

وقد يقع هذا الترابط والتماسك من خلال الواو، لكن على وجه الندرة النادرة في الخبر المتعدد لمبتدأ واحد، كقول مالك بن المنذر البجلي لولده في التحذير من عقوق الوالدين: "عقوق الوالدين يعقب النكد، ويمحق العدد، ويخرب البلد "[1]؛ لتؤذن الواو الممسكة بزمام هذه الأخبار الجملية المتعددة: " يعقب النكد، ويمحق العدد، ويخرب البلد" بتعدد صور المصير السيء الذى ينتظر العاق لوالديه، وكفاية كل واحد منها واستقلاليته بتصوير سوء عاقبة العقوق، وشناعة مصيره، وخيبة مسعاه؛ ليحمل ذلك الملتقي على وضع هذا التحذير والتخويف نصب عينيه، وقبالة ناظريه.

وقد تتعاطف هذه الأخبار أو الجمل في جواب الطلب أو الشرط؛ كقول القلمس[2] أمية بن عوف في وصيته لأشراف قومه: "وأيسروا الصداق بينكم تنفق أياماكم، ويكثر نسلكم"[3]، وقول قيس بن معد يكرب لأبنائه: "واتبعوا وصايتي تلحقوا بصالح قومكم ويستعل أمركم"[4]، وقول عوف بن كنانة الكلبي لبنيه: "وجازوا الناس بالكف عن مساوئهم تسلموا وتصحوا"[5]، وقول أمامة بنت الحارث لابنتها: "أي بنية، إن الوصية لو تركت لعقل وأدب، أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك، ولزويته عنك"[6]، وقول الحارث بن كعب في وصيته لأبنائه، وهي في بيان فضل المال: "ومن اكتسب مالًا فلم يصل به رحمًا، ولم يعط منه سائلًا، ولم يصن به عرضًا بحث الناس عن أصله، فإن كان مدخولًا هرتوه

---

(1)المعمرون والوصايا ص 148

(2) القلمس بن أمية بن عوف الكناني، أبو ثمامة، من بني الحارث بن مالك، آخر من نسأ الشهور في الجاهلية وكان يعلن أيام اجتماع الحجيج في " منى " وتولى إعلانه وراثة عن أبيه، واستمر نحو أربعين سنة، فلما ظهر الإسلام أبطله، والقلمس معناه السيد أو الداهية البعيد الغور، يلقب به كل من تولى نسأ الشهور، وهو من الخطباء الوعاظ قبل الإسلام. ينظر الأعلام للزركلي 203/5.

(3) المعمرون والوصايا صـــ 135.

(4) المرجع السابق صـــ 149.

(5) المرجع نفسه ص: 162.

(6) المرجع نفسه صـــ 141.

وهتكوه[1]، وإن لم يكن مدخولًا ألزموه دنية، وأكسبوه عرقًا لئيمًا، حتى يهجنوه به" [2]، فالمناسبة المقتضية للربط بين أجزية الطلب أو الشرط السابقة إما من خلال علاقة التناظر، كالذي بين "تسلموا وتصحوا" في جواب طلب عوف بن كنانة: "وجازوا الناس..."، وكالذي بين "هرتوه وهتكوه-ألزموه دنية وأكسبوه عرقًا لئيمًا" في جوابي شرطي الحارث: "فإن كان مدخولًا-وإن لم يكن مدخولًا"، وكالذي بين "لتركت ذلك منك، ولزويته عنك" في جواب شرط أمامة: "إن الوصية لو تركت لعقل وأدب....."، وإما من خلال علاقة التباين والتضاد كالذي في قول القلمس: "تنفق أيامكم، ويكثر نسلكم" في جواب الطلب السابق " وأيسروا الصداق فيما بينكم"؛ لذا كان وقوع الواو بينها في غاية المناسبة، وتمام الملاءمة؛ لتعميق التماسك النصي، والتلاحم البنيوي في سياقات هذه الوصايا؛ لاضطلاعها بوظيفة الضم والجمع بين هذه الجزاءات، وردها الثاني إلي الأول، وإلحاقه به.

وقد كان للربط للواو فيما سبق من أجوبة دور كبير في تلبية داعي الفطرة الإنسانية في التعلق بالمزيد، وحب الزيادة؛ لدلالته على تعدد الأجزية المرتبطة بالشرط وتنوعها تنوعًا ظاهرًا، مع كفاية كل واحد منها بتحقيق الغاية، وتلبية المراد، وهذا في مقام الوصية أوفق، وبمقتضى الحال أليق؛ لأبلغيته في الحث على امتثال الوصية، والحض على تنفيذ مضمونها.

وقد تتعاطف جملتان نعتيتان على منعوت واحد، كقول عمرو بن الغوث في وصيته لأولاده: "يابني إنكم قد حللتم محلًا تخرجون منه، ولا يدخل عليكم فيه، فارعوا مرعى الضب الأعور"[3]، وقد تتعاطف جملتان حاليتان متعاقبتان على صاحب واحد، كقول الصديق رضي الله عنه في وصيته لعمر: " وذكر آية الرحمة وآية العذاب؛ ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقي بيديه إلى التهلكة"[4]، وقد تتعاطف جملتان واقعتان موقع البدل أو عطف البيان، كقول عمر رضي الله عنه في وصيته للخليفة من بعده: "ويوصيك بالمهاجرين والأنصار أن تقبل من محسنهم، وتتجاوز عن مسيئهم"[5]، وقد تعطف جملة على محل جملة أخرى سدت مسد مفعولي "علم" أو سدت مسد المفعول الثاني والثالث للفعل "أخبر"، كالذي في قول عامر بن الظرب في وصيته لابنته على لسان أمها: "يا هذه، أخبري ابنتك أن العشق حلو، وأن الكرامة المؤاتاة"[6]، وقول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: "واعلمي –أي بنية-أن الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود" [7]، أو عدة جمل عطفت على محل جملة أخرى، انتصب المضارع فيها ب "أن" مضمرة بعد "حتى"، كقول أكثم في وصيته للنعمان بن المنذر: "لن يهلك امرؤ، حتى يضيع الرأي عند فعله، ويستبد

---

(1) الهرت: ذم العرض والطعن فيه، والهتك: خرق الستر عما وراء، والفضيحة. لسان العرب، هرت ــ هتك 4647/6، 4612.
(2) المعمرون والوصايا ص: 145.
(3) المعمرون والوصايا ص: 148.
(4) المرجع نفسه ص: 178.
(5) المعمرون والوصايا ص: 179.
(6) المرجع نفسه ص: 78.
(7) المرجع السابق ص: 142.

على قومه بأموره، ويعجب بما ظهر من مروءته، ويغتر بقوته"[1]، فإنك ترى الواو العاطفة في كل هذه المواضع السالفة الذكر ممسكة بزمام هذه الجمل المتعاطفة، آخذة بحجزها، على هذا النحو: "محلًا تخرجون منه، ولا يدخل عليكم فيه-ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقى بيديه إلي التهلكة –أن تقبل من محسنهم، وتتجاوز عن مسيئهم-أن العشق حلو، وأن الكرامة المؤاتاة-أن الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود-حتى يضيع الرأي عند فعله، ويستبد على قومه بأموره، ويعجب بما ظهر من مروءته، ويغتر بقوته"، وهذا يقتضي-لصحة المعنى-أن تكون ثمت جهة جامعة بين الطرفين المتعاطفين، نشأت -أولًا-من تشاركهما في الحكم الأعرابي الذي يمثل نوعًا من أنواع الاتصال القوي بين المعطوف والمعطوف عليه فيها، ونمت-ثانيًا من خلال ما بينهما من وشائج وصلات تناسب وتلاؤم، وأن كل واحد منهما بسبب قوي من الآخر، كأن يكون مباينًا له، أو مناظرًا، أو مشاركًا، وقد جاءت الواو بينهما لتعميق هذه الصلة، وتقوية هذه الأواصر، وشد تلك الروابط.

ثانيًا: التماسك النصي بالعطف بالفاء

لا يقل دور الفاء في سبك النصوص وحبكها في وصايا المعمرين عن دور الواو أهمية، أو كثرة واستعمالًا، ودليل هذا أنك إذا فليت هذا النوع من الوصايا واحدًا واحدًا فلن تجد وصية واحدة منه، طالت أم قصرت لم تكن الفاء هي إحدى أبرز وسائل التماسك النصي فيها.

والفاء إذ تنهض إلى أداء هذا البعد الوظيفي إنما تلتقي مع وجهه وسببه في العطف عمومًا، وفي الواو خصوصًا، غير أن الفاء تنفرد بخصوصية دلالية جديدة في هذا المجال، لا توجد في الواو، كما أن الواو هي الأخرى تتميز بخصوصية دلالية في هذا المعنى لا توجد في الفاء؛ فإذا كانت الواو لمطلق الجمع، مع التشريك في الحكم، من دون اعتبار آخر؛ فإن الفاء هي الأخرى تقوم بوظيفة الجمع، لكنها تفيد إلى جانبه معنى آخر؛ هو الترتيب[2] الذي يعد في جوهره علاقة دلالية كاشفة عن وجه الصلة، ومناط الترابط أو التماسك بين الكلام الذي دخلت فيه؛ فإن خلاصة مفهوم هذه العلاقة ومجمله هو أن يكون مضمون الجملة الثانية المعطوفة بالفاء نتيجة مترتبة على الجملة الأولى، والجملة الأولى كأنها توطئة وتقدمة للجملة الثانية، وهذا المفهوم هو ما تقتضيه طبيعة الدلالة في الفاء؛ إذ هي موضوعة-حسبما ذكر ابن يعيش[3]-لدخول الثاني فيما دخل فيه الأول، متصلًا به، من دون

---

(1) المرجع نفسه ص: 36-37.

(2) الترتيب نوعان، ترتيب معنوي، وترتيب ذكري، فالمعنوي، كما في قولهم: "قام زيد فعمرو" والذكرى هو عطف المفصل على المجمل، كما في قوله تعالى: "فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه" سورة البقرة: 36، وقوله: " فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة" سورة النساء: 153، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام 161/1، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية-صيدا، بيروت 1987.

(3) ينظر شرح المفصل لابن يعيش 95/6، كما ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي للمرادي صـ61، تحقيق، د/ فخر الدين قباوة، أ/محمد نديم فاضل، الطبعة الأولى 1992م، دار الكتب العلمية، بيروت.

مهلة أو تراخ، وقرينة هذا وتأكيده من دخول الفاء ووقوعها دون غيرها من حروف العطف في صدر جملة الجواب الشرطي، وبهذا تتماسك الجمل، وتتعانق مفاصل النظام البنيوي الذي يقوم عليه النص[1].

وأبرز صور الترابط بالفاء، وأكثرها دورانًا واستعمالًا في وصايا المعمرين أن تتمحض هذه الفاء لمعنى العلية، أو أن تكون رابطة للجواب بالشرط، وهذه الأخيرة لا تخلو هي الأخرى من معنى السببية-أيضًا-، غير أن البحث سوف يرجئ دراسة هاتين الصورتين السابقتين إلى محور التماسك النصي بأسلوبي التعليل والشرط؛ لأنهما أكثر التصاقًا، وأمس رحمًا بهما هناك، واحترازًا عن الإعادة والتطويل الذي يفت كثيرًا في عضد الأبحاث العلمية، ويذهب بترابطها وتماسكها، وقوتها ورونقها.

وأما الفاء الثالثة التي تدور عليها الدراسة في هذا المحور فهي العاطفة التي تكون للترتيب والتعقيب، وتنبئ عن أن الجملة المعطوفة بها تمثل نتيجة مترتبة على الجملة الأولى المعطوف عليها، وأن الجملة الأولى كأنها مقدمة وتمهيد بين يدي الثانية، وهذه الفاء في وصايا المعمرين تأتي دون الفاءين السابقتين كثرة واستعمالًا، وهي في غالب مواضعها من هذه الوصايا إما أن تدخل على الجملة الشرطية بكثرة، كما تدخل على هذا النحو من الكثرة-أيضًا-على الجملة الإنشائية في صورة الأمر أو النهي خاصة، وتدخل على نحو أقل مما سبق قليلًا على الجملة الخبرية المؤكدة بـــ "إن" أو "إنما"، وقد تدخل بقلة على الجملة الخبرية الخالية من المؤكدات.

فمن مواضع دخول الفاء على الجملة الشرطية، قول أكثم بن صيفي في وصيته لأولاده: "ويتشابه الأمر إذا أقبل، فإذا أدبر عرفه الأحمق والكيس"[2]، وقول عامر بن الظرب في وصيته لبني عدوان: "إن الأول كفى الآخر، فمن رأيتموه أصابه شر فإنما أصابه فعله، فاجتنبوا ذلك الذي فعله"[3]، وقول القلمس أمية بن عوف لأشراف قومه: "وأيسروا الصداق فيما بينكم تنفق أياماكم، ويكثر نسلكم، فإن نكحتم في العرب فاختاروا لكم ذوات العفاف، والحسان أخلاقًا[4]، وقول الحارث بن كعب في وصيته لبنيه: "ومن اكتسب مالًا، فلم يصل به رحمًا، ولم يعط منه سائلًا، ولم يصن به عرضًا بحث الناس عن أصله، فإن كان مدخولًا هرتوه وهتكوه" [5]، وقول صيفي بن رياح والد أكثم: "سلطانك على أخيك في كل حال، فإذا أخذ السيف فلا سلطان لك عليه"[6]، حيث وقعت الفاء في صدر الجملة الشرطية في المواضع السابقة: "فإذا أدبر عرفه الأحمق والكيس-فمن رأيتموه أصابه شر-فإن نكحتم في

---

(1) ينظر نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصًا، تأليف: الأزهر الزناد صـ37، الطبعة الأولى 1993م، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، كما ينظر العلاقات النصية في لغة القرآن. د/ أحمد عزت يونس صـــ185، الطبعة الأولى2014م، دار الآفاق العربية، القاهرة.

(2) المعمرون والوصايا ص: 25.

(3) المرجع نفسه ص: 77.

(4) المرجع نفسه ص: 135.

(5) المرجع نفسه ص: 145، والحارث بن كعب بن عمرو، من مذحج، من كهلان، جد جاهلي، من نسله بنو الديان رؤساء نجران. ينظر الأعلام للزركلي 157/2.

(6) المعمرون والوصايا ص: 175.

العرب فاختاروا-فإن كان مدخولًا هرتوه-فإذا أخذ السيف فلا سلطان لك عليه"؛ للدلالة على عمق الصلة وقوة الوشيجة التي تربط الجملة الشرطية بما قبلها، وأن الجملة الشرطية نتيجة حتمية مترتبة على الجملة الأولى، ومتفرعة عنها، وأن الجملة الأولى مهدت لها وطاءها، وهيأت لها وسادها، وأن قول الحارث مثلًا: "فإن كان مدخولًا هرتوه وهتكوه" ذو صلة وثيقة بما قبله؛ لأنه نتيجة طبعية مرتبة عن بحث الناس عن أصله" الذي وقع في جواب شرط "من"، وأن قول القلمس –أيضًا- : "فإن نكحتم في العرب فاختاروا لكم ذوات العفاف، والحسان أخلاقًا" هو-كذلك- نتيجة بدهية ترتبت على الأمر بإيسار الصداق المجاب بما ذكر بعده من قوله: "تنفق أياماكم، ويكثر نسلكم" ومتمازج معه، وبينه وبينه رحم مسيسة؛ لأنه من واديه وحقله، وبينهما-من وجه-عموم وخصوص، وبينهما-من وجه آخر-علاقة تناظر، وهكذا باقي المواضع يمكن إجراؤها في التفصيل والتحليل على هذا النحو.

وقد زاد من قوة التماسك، وعمق الصلة بين اللاحق والسابق ما أشربته هذه الفاء من عنصر المفاجأة، ودلالة المباغتة التي ترتد إلي طبيعة معنى التعقيب فيها، والمفاجأة عنصر حيوي من العناصر التي تشد أوصال التراكيب، وتعقد عليها؛ لما يحدثه من التشويق الذي يتطلع به المتلقي إلي اللاحق، ويترقب مجيئه في لهفة عارمة.

ومن مواضع دخولها على الجملة الإنشائية أمرًا أو نهيًا قول أكثم بن صيفي في وصيته لملك هجرأو نجران: "ورضا الناس غاية لا تدرك، فتحر الخير بجهدك"[1]، وقول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: "والعقوبة نكال، وفيها ذمامة، فلا تذموا العقوبة"[2]، وقوله-أيضًا-في وصيته لابنته: "أخبري ابنتك أن العشق حلو، وأن الكرامة المؤاتاة، فلا تستكرهن زوجها من نفسها، ولا تمنعه من شهوته"[3]، وقول أسيد بن أوس التميمي لأولاده: "ورأيت الدهر فل الصخور، فليقترب بعضكم من بعض في المودة"[4]، وقول القلمس لأشراف قومه: "فإن من ظفرتم به فهو ظافر بكم لابد، وهو عامل فيكم بما عملتم فيه، فلا تقتلن أسيرًا، فإنه دخل عندكم، ومصيبة فيكم"[5]، وقول المنذر لولده النعمان: "إن لك عقلًا وجمالًا ولسانًا، فاكتس من ثناء الناس عليك ما يؤيد جمالك"[6]، وقول الأفوه الأودي في وصيته: "وفي ترك المراد راحة للبدن، فلينظر كل رجل منكم إلى جهته"[7]، وغير وغير ذلك مما دخلت فيه الفاء على الجملة الطلبية أمراً أو نهياً، فإنك تراها قد حاكت الكلام بعضه إلى بعض، وحبكت نسيجه في قوة وإحكام، من خلال علاقة الترتب التي دلت على أن الجملة الثانية: "فتحر الخير-فلا تذموا العقوبة -فلا تستكرهن زوجها-فليقترب بعضكم من بعض في المودة-فلا تقتلن أسيرا-فاكتس من ثناء الناس-فلينظر كل رجل منكم" تفرعت عن الجملة الأولى، وخرجت من

---

(1) المعمرون والوصايا ص: 35.
(2) المرجع نفسه ص: 76.
(3) المعمرون والوصايا ص: 78.
(4)المرجع نفسه ص:94.
(5) المرجع نفسه ص: 134.
(6) المرجع نفسه ص: 146.
(7) المرجع نفسه ص:156.

رحمها، وأن بينهما لحمة وشيجة، ومصاهرة قوية؛ لأنها إما مقابلة لها، كما في وصية عامر لقومه، أو لابنته، وكما في قول أسيد بن أوس التميمي، وإما مناظرة أو مشاركة لها، كما في سائر المواضع المذكورة الأخرى، وقد كان للفاء فيما سبق من مواضع-إلى جوار دور الربط بين الجمل المتعاطفة بها-أثر كبير في تحقيق مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ إذ تصور –بما فيها من دلالة التعقيب بلا مهلة-شدة حرص الناصح، وفرط رغبته في امتثال وصيته، وتنفيذ مطلوبه فيها على وجه السرعة، وغاية الجد.

وأما مواضع دخولها على الخبر المؤكد بـ"إن" أو بـ"إنما"، أو الخبر الخالي من التأكيد أصلاً فإنك تجد من ذلك قول المنذر بن ماء السماء في وصيته لولده النعمان:" يا بنيّ، إن لي فيك رأياً دون غيرك من ولدي، فإني آمرك بما أمرني به والدي، وأنهاك عما نهاني عنه والدي" [1] وقول أكثم بن صيفي في وصيته لجهينة، ومزينة، وأسلم، وغيرهم:" أشراف القوم كالمُخّ من الدابة فإنما تنوء الدابة بمخها، وأشد القوم مؤونة أشرافهم"[2] وقول أمامة بنت الحارث لابنتها:-" أي بنية، إنك قد فارقت الجواء الذي منه خرجت، والوكر الذي منه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك ملكاً، فكوني له أمة يكن لك عبداً"[3]

وقول زرارة بن عُدُس في وصيته لأولاده: "يا بني، قد أدركت سفيان بن مجاشع بن دارم شيخاً كبيراً محجوباً، فأخبرني أنه قد حان خروج نبي بمكّة من مضر، يقال له، أحمد، يدعو إلى عبادة الله وحده، فإن أدركتموه فاتبعوه"[4] وقول قيس بن عاصم المنقري لبنيه: -"ولا يعلمنّ بمدفني بكر بن وائل، فإني كنت أغاورهم في الجاهلية، وكانت بيني وبينهم خماشات، فأخاف أن يفتنوكم في دينكم، أو يدخلوا عليكم غضاضة"[5].

وقد جاءت الفاء في كل ما سبق من مواضع لتحكم وصال الجملة الثانية، وتشد وثاقها إلى الجملة الأولى، وتختم عليه بميثاق غليظ؛ لتدل في الجملة الخبرية الخالية من التأكيد:" فأصبح بملكه عليك ملكاً-فأخبرني أنه قد حان خروج نبي بمكة من مضر يقال له أحمد-فأخاف أن يفتنوكم في دينكم، أو يدخلوا عليكم غضاضة" وتنبئ عن أن مدخولها قد أصبح حقيقة واقعة، وأمراً حاصلاً، ولا مجال فيه للشك أو التردد، أو الإنكار، وأنه من الظهور والوضوح بمكان؛ بقرينة دخولها على الماضي في موضعين: "فأصبح-فأخبرني" وعلى المضارع الذي وضع موضع الماضي في قوله: "فأخاف"؛ لتصوير الخوف وتشخيصه، وهذا أبلغ في تقريره، وأدخل في تحقيقه، وأدعى إلى سرعة امتثاله وتنفيذه.

وتشير في الجملة الخبرية المؤكدة بـ "إن" في قوله: "فإني آمرك بما أمرني به والدي" أو المؤكدة بإنما في قوله: "فإنما تنوء الدابة بمخها" إلى شدة قناعة المتكلم،

---

(1)المعمرون والوصايا صـ146

(2) المرجع نفسه صـ30

(3)المرجع نفسه 141.

(4)المرجع نفسه صـ144.

(5) نفس المرجع صـ162، والخماشات: هي الجنايات، لسان العرب، خمش 1265/2، وقيس بن بن عاصم المنقري صاحبي جليل. الأعلام 7/ 309.

وفرط تشبعه بمضمون كلامه، وامتلائه بمعانيه، وأنه شديد الحرص على أن يأخذ المخاطب الوصية على محمل الجد والاجتهاد، وبالغ العناية والاهتمام.

ثالثاً: التماسك النصي بالعطف بـ (ثم)

من اللافت للنظر أن العطف بـ"ثم" يتشابه إلى حد كبير مع العطف بالفاء؛ إذ يشتركان في الدلالة على معنى الترتيب الذي يعد في جوهره علاقة منطيقة تجمع – إلى جانب العلاقات الأخرى التي كشف عنها البحث في التمهيد لباب العطف-بين أطراف الكلام، وتمسك بمفاصله، وهذا يعني أن مأخذ الحرفين في تعميق الترابط، وتحقيق مبدأ التماسك يكاد يكون واحداً فيهما، إلا أن ثمت فرقاً جوهرياً بين دلالة كل منهما على ما دل عليه؛ فالفاء تفيد مع الترتيب معنى التعقيب، والاتصال بلا مهلة، أما "ثم" فتفيده مع الحصول على وجه التراخي والامتداد الزمني.[1]

ولعل هذا الفرق المفصلي بين دلالة كل منهما هو ما يفسر بوضوح، وعلى نحو لافت ندرة الربط بـ"ثم" في وصايا المعمرين؛ إذ لم يقف البحث له في هذا الجنس الأدبي إلا على عدة مواضع.

ويمكن تفسير هذا بلاغياً بعدم مطابقة هذا التراخي والامتداد الزمني لمقتضيات الأحوال في هذه الوصايا، وبخاصة حال المتكلم البالغة الشدة في الحرص، والنهاية في الدلالة على توفر العناية والاهتمام بمضمون هذه الوصايا؛ إذ يتوسم الموصى فيمن يوجه إليه الوصية أن يشرع على الفور في امتثال وصيته وقت التخاطب، وتنفيذ مطلوبه فيها على وجه السرعة، بالإضافة إلى ما يدل عليه لفظ الوصية من معاني الإلزام المؤكد، والإيجاب المشدد الذي يقتضي الفور في الغالب، وهو ما يتنافى مع أصل دلالة التراخي والامتداد الزمني في "ثم" ويجعل الربط بالفاء أو الواو أكثر انسجاماً في هذا المعنى، وأشد تجانساً مع هذه الدلالة.

وانطلاقاً من هذا التأصيل العلمي، والتقعيد النظري لوجه التماسك بهذه الأداة يجدر بالبحث أن يشرع في إيراد المواضع التي كانت "ثم" هي وسيلة الربط والتماسك في سياقها من هذه الوصايا، ثم تحليلها وفقاً لهذا المنهج المتبع في الدراسة، وبما يتوافق مع قضية البحث التي يعالجها، وحين تطلب ذلك يوافيك قول دريد بن الصمة في وصيته لقومه: " وليكن لكم سيد، فإنه لابد لكل قوم من شريف، ومن كانت له مروءة فليظهرها، ثم قومه أعلم، وحسبه بالمروءة صاحباً"[2] وقول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: "إن الذي أرسل الحيا أنبت المرعى ثم قسمه، وكلأ لكل فم بقلة"[3]

وقول القلمس في وصيته لأشراف قومه: "وإذا نكحتم الغريبة فأوغلوا صداقها، وتزوجوا في أشراف القوم، ثم أكرموا مثوى صاحبتهم ما كانت فيكم، ولا تحرموها إذا انصرفت إلى قومها مالها"[4] كما يطالعك قول الحارث بن كعب في وصيته لبنيه: " يا بني، عليكم بهذا المال فاطلبوه أجمل الطلب، ثم اصرفوه في أجمل

---

(1)ينظر شرح التسهيل لابن مالك 351/3 تحقيق: د/عبد الرحمن السيد، د/محمد بدوي المختون، الطبعة الأولى 1992م، دار هجر للطباعة، القاهرة

(2)المعمرون والوصايا صـ41

(3) المعمرون والوصايا صـ82

(4)نفس المرجع صـ135

مذهب"[1] وقول زهير بن الكلبي لبنيه: "فإن الإنسان في الدنيا غرض، تعاوره الرماة، فمقصر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لابد أنه مصيبه"[2] وقول الخليفة هشام بن عبد الملك لمؤدب ولده سليمان الكلبي:-" وإذا حضر الناس أبوابكم فعجلوا إذنهم، ثم ليحسن بشركم بهم"[3]، فإنك ترى حرف التراخي[ثم] في كل هذه المواضع السابقة قد آذن باتصال الجملة المعطوفة:" ثم قومه أعلم-ثم قسمه-ثم أكرموا مثوى صاحبتهم ما كانت فيكم – ثم اصرفوه في أجمل مذهب – ثم لا بد أنه مصيبه – ثم ليحسن بشركم بهم" بالجملة المعطوف عليها، وارتباطها بها ارتباطاً وثيقاً؛ من خلال إحالة الجملة الثانية إلى الأولى، وإلحاقها بها، وردها إليها في حكمها ومعناها، ومن خلال ترتبها عليها، وتفرعها عنها، وكونها نتيجة حتمية لها، وأن الجملة الأولى المعطوف عليها كأنها مقدمة وتمهيد لها، وتوطئة وإعلام بها، مع تراخي زمن حصول الثانية عن زمن حصول الأولى وتأخره، حسبما تقتضيه دلالة "ثم"، وهذا في شدة الظهور، وغاية الوضوح لمن يراجع قول دريد:-"ثم قومه أعلم" المعطوف، بـ"ثم" على قوله: "ومن كانت له مروءة فليظهرها" فإن هذا العلم المسند إلى القوم لا يتأتى إلا بإظهار المروءة؛ لكونه فرع عليها، ونتيجة حتمية لها، ثم هو لا يحصل إلا على وجه التراخي، ولا يكتسب إلا على طول زمن، وامتداد دهر، وبعد ممارسة وخبرة، وأخذ وعطاء، وشد وجذب، واحتكاك ومعاملة؛ لذا كانت "ثم" هي الأداة المثلى، والرباط الأوثق، والحبل المتين الذي يشد رباط المعنى، ويعمل على تماسك النص.

وهو-أيضا-في غاية الظهور لمن يراجع قول عامر: -"ثم قسمه، وكلأ لكل فم بقلة"، وقول الحارث: "ثم اصرفوه في أجمل مذهب" وقول زهير: "ثم لا بد أنه مصيبه"، فإن القسمة في قول عامر مرتبة على وجه التراخي على إنبات المرعى في قوله: "إن الذي أرسل الحيا أنبت المرعى"، إذ لا تقع إلا بحصوله، كما أن حصولها يستغرق زمناً، ويمتد دهراً.

وصرف المال وإنفاقه في أجمل الوجوه وأحسنها في قول الحارث شديد الصلة بجمعه وطلبه، المدلول عليه من قوله: " يا بني، عليكم بهذا المال فاطلبوه أجمل الطلب "لترتبه لا محالة عليه، وتسببه عنه، وتفرعه عليه، ثم إن إنفاقه وصرفه على الوجه الأمثل الذي ذكره يتطلب نوعاً من التريث والأناة، والعقل والحكمة، والتؤدة والسكينة، ومن هنا جاء إيثار "ثم" في الربط والحبك على نحو من الدقة والإحكام، والصنعة والإتقان، وهكذا يمكن قياس الأمر –أيضا-في قول زهير.

أما قول القلمس: "ثم أكرموا مثوى صاحبتهم ما كانت فيكم"، وقول هشام: " ثم ليحسن بشركم بهم" فمع أن "ثم" فيهما قامت بوظيفة الربط، وحققت معيار التماسك النصي بين الجمل في نسق الوصيتين لكون ما دخلت عليه يمثل نتيجة حتمية مترتبة على ما سبقه؛ فإن إكرام مثوى الزوجة الغريبة والإحسان إليها ما كانت في بيت الزوجية يترتب على الزواج المأمور به في قوله: "وتزوجوا في أشراف

---

(1)نفس المرجع صـ145

(2) نفس المرجع صـ154، وزهير الكلبي خطيب قضاعة وسيدها وبطلها، ووافدها إلى الملوك في الجاهلية، كان يدعى الكاهن؛ لصحة رأيه، وعاش طويلًا، وهو أحد الذين شربوا الخمر صرفا حتى ماتوا، وولاه أبرهة الحبشي بكرًا وتغلب. ينظر الأعلام 51/3.

(3)المعمرون والوصايا صـ165.

القوم" وحسن السرور والبشر بالناس في قول هشام يترتب لا محالة على التعجيل بإذنهم، ويتفرع عليه، إلا أنه لا يتأتى بحال حمل "ثم" في الموضعين على التراخي الزمني؛ لفساد المعنى عليه؛ لأنه يستلزم تأخر إحسان البشر بالناس، وتراخى إكرام مثوى الزوجة الغريبة عن زمن الأمر المعطوف عليه، وهذا ينافي مقام الإحسان المأمور به في الموضعين، ويباين خلال المروءة والشهامة في الأمرين معاً؛ لذا كان حمل "ثم" على التراخي الرتبي، والترقي في درج الإحسان هو الأولى بها، والأوفق بحالها، الموافق لسياقها ومقامها.

الصورة الثانية

التماسك النصي بالحرف (حتى)

(حتى) الغائية من الحروف التي تتنوع في صورها، وتتعدد في استعمالاتها، ويتغاير مدخولها؛ فتارة تكون جارة، ومرة تكون عاطفة، وأخرى تكون ابتدائية، ولها -عدا ذلك -أقسام أخرى، كانت محل جدل وخلاف بين العلماء.[1]

وقد تدخل على المفرد، وتدخل على الجملة اسمية كانت أم فعلية، كما تدخل على الفعل الماضي والمضارع.

وأيًّاما كان نوعها أو مدخولها فهي من أقوى وسائل الربط، وأدوات التماسك النصي في أبنية الكلام وسياقاته، ويرجع السبب في ذلك إلى وجود علاقة تلازم وارتباط بين ما قبلها وما بعدها، وهي علاقة قوية تعمل على شد مفاصل الكلام، وتداخل نظمه، وتعليق بعضه ببعض؛ لأن ما بعدها -على تنوع صورها واستعمالاتها، وتعدد مدخولها -إما أن يكون غاية لما قبلها؛ ونهاية متصلة به[2]، وما قبلها كأنه توطئة لما بعدها، وتمهيد له، فبينهما ارتباط شديد، وعلاقة متينة.

وإما أن يكون جزءًا مما قبلها، أو كالجزء منه، والعكس، فبينهما ما يشبه العموم والخصوص، أو العام والخاص، والعكس[3].

ومع تنوع صور حتى وكثرة استعمالاتها، وتعدد مدخولاتها غير أن الناظر في وصايا المعمرين يجد أنها لم تخرج فيها عن صورتين اثنتين فقط، الأولى "حتى" الجارة، وقرينة هذا من وقوع الفعل المضارع بعدها في السواد الأعظم من مواضعها في الوصايا منصوبًا بأن مضمرة، على تأويله مع أن بمصدر مجرور، وعامل الجر فيه هو حتى، ودخول حتى على الفعل المضارع هو الذي ينسجم مع دلالتها على الغاية؛ لتعلق كل منهما في حصوله بالمستقبل غالبا.

وإن شئت دليلًا على ذلك فلك أن تتأمل قول أكثم في وصيته للنعمان بن المنذر: "لن يهلك امرؤ حتى يضيع الرأي عند فعله، ويستبد على قومه بأموره"[4]؛ فقد نصب الفعل المضارع "يضيع" بأن مضمرة في قوله: "حتى يضيع الرأي عند فعله" على أن يكون مؤولاً معها بمصدر مجرور بعد "حتى" التي تعاظم دورها في ربط ما بعدها بما قبلها، وشده إليه؛ لفرط تعلق كل منهما بالآخر وقوة اتصاله به؛ لأن ما بعدها غاية لما قبلها وهدف له، كأن غاية الهلاك التي يجد في دركها ومطلبه الذي ينشد الوصول إليه هو الاستبداد بالرأي، وضياع المشورة؛ لأن الهلاك لن يتحقق إلا بذلك، وهذا فيه ما فيه من المبالغة في تصوير خطورة الاستبداد بالرأي، وضياع المشورة، وتجسيد الأثر السيئ الناجم عنه، والعاقبة الوخيمة المترتبة عليه ما لا يخفى، حتى صار تعلق الهلاك به مطلبًا ملحًا وغاية لا يحيد عنها.

---

(1) ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص ٥٥٤وما بعدها.

(2) ينظر المرجع نفسه ص٥٥٢، ٥٥٣.

(3) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ١ /١٢٣، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،١٩٨٧م.

(4) المعمرون والوصايا ص٣٦، ٣٧.

ولك أن تراجع قول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: "يا معشر عدوان إن الخير عزوف ألوف، ولم يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه، ولن يرجع إليه حتى يأتيه".[1]، فقد تولت حتى من ربط ما بعدها في جملتي عامر بما قبلها: "حتى يفارق-حتى يأتيه"؛ لشدة تعلق كل منهما بالآخر واتصاله به؛ لمباينة ما بعدها في الموضعين لما قبلها، ومقابلته إياه؛ وذلك في صورة تشبه في الجملة الأولى: " ولم يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه" طريقة طباق السلب، أو هي منها، وتقترب منها أو تناظرها في الجملة الثانية: " ولن يرجع إليه حتى يأتيه".

ولكون ما بعدها غاية لما قبلها، ونهاية موصولة به، للتأكيد من خلال هذا الارتباط على تلك العلاقة الطردية أو العكسية القائمة على الندية بين الخير وصاحبه، وأن مفارقة الخير صاحبه مرتهن بمفارقة صاحبه إياه، ورجوعه إليه مرتبط بإتيان صاحبه إياه أيضًا؛ ليكون المنصوح على رفقة الخير وصحبته أحرص، وفي طلبه أجد وأشغف.

وهكذا الشأن-أيضًا-في قول عامر من وصيته لقومه ليلة عرس ابنته: " أرى أمورًا شتى، وشيئًا شيئًا، حتى قالوا: وما حتى؟ قال حتى يرجع الميت حيًا، ويعود لا شيء شيئًا؛ ولذلك خلقت السماوات والأرض"[2]، وفي قول القلمس أمية بن عوف من وصيته لقومه: "وأوصيكم ببيوت الشرف فيكم، أقيموا لهم شرفهم، ولا تنزعوا الرئاسة منهم، حتى تجدوا لها منهم أهلاً"[3]، وقول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: " واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه، حتى تؤثري هواه على هواك، ورضاه على رضاك"[4]، وقول الحارث بن كعب لبنيه في شأن المال: "وإنه ليسود غير السيد، ويؤيد غير الأيد؛ حتى يكون عند الناس نبيلا، وفي أعينهم مهيبًا"[5]

كما تجد هذا في قول معاوية -رضي الله عنه -في وصيته لابنه يزيد: " وأما الحسين بن علي فإن له رحمًا وحقًا وولادة من رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم -، ولا أظن أهل العراق تاركيه، حتى يخرجوه عليك، فإن قدرت عليه فاصفح عنه"[6]، وقول حصن بن حذيفة في وصيته لأولاده: "ولا تسرحوا، حتى تأمنوا الصباح، وعجلوا القرى؛ فإن خيره أعجله"[7]؛ فإنك إن عاودت" حتى " في كل المواضع السابقة: " حتى يرجع الميت حيا، ويعود لا شيء شيئًا -حتى تجدوا لها منهم أهلا -حتى تؤثري هواه على هواك -حتى يكون عند الناس نبيلا -حتى يخرجوه عليك-حتى تأمنوا الصباح " رأيتها وقد دخلت على الفعل المضارع منصوبًا بـ(أن) مضمرة، على تأويل مصدر مجرور بـ" حتى"؛ لتمثل وسيلة الربط، وأداة التماسك بين أول الكلام وآخره، وبين ما بعدها وما قبلها؛ لما بين الطرفين من علاقة وثيقة، وتلاؤم قوي؛ نشأ-أولا-من كون ما بعدها غاية لما قبلها،

---

(1) المعمرون والوصايا ص ٧٧.
(2) المرجع نفسه ص٨٢.
(3) المرجع نفسه ص ١٣٢.
(4)المعمرون والوصايا ص ١٤٢
(5) المرجع نفسه ص ١٤٥
(6) نفس المرجع ص ١٨٩
(7) نفس المرجع ص ١٥٩

ونتيجة متصلة به، ونشأ-ثانيا-من كون ما بعدها -في الغالب -جزءًا مما قبلها، أو ما هو -لقرب الملاءمة -في حكم الجزء منه.

وأما الصورة الثانية من صور "حتى" فهي الابتدائية التي يستأنف بعدها الجمل، وهذه الصورة شديدة الندرة في وصايا المعمرين، ولم أقف لها في الوصايا إلا على موضع واحد، جاء في وصية عامر بن الظرب لقومه:" وإني والله ما كنت حكيمًا حتى تبعت الحكماء، وما كنت سيدكم حتى تعبدت لكم"[1]، ودليل هذا من وقوع الفعل الماضي بعدها: "حتى تبعت الحكماء -حتى تعبدت لكم" وما بعدها لا يخرج عن كونه غاية لما قبلها ونهاية له؛ إما لكونه مجانسًا ومماثلاً له، كما في الجملة الأولى، وإما لكونه مباينًا ومقابلاً له، كما في الجملة الثانية.

الصورة الثالثة

التماسك النصي بحروف الإضراب والاستدراك

الإضراب والاستدراك علاقتان دلاليتان وضع للتعبير عن أولاهما الحرف "بل"، أو ما ينوب منابه كـ "أم"، ووضع للتعبير عن ثانيتهما الحرف " لكن".

وعلى الرغم من قوة هاتين العلاقتين في سبك النصوص، وتوثيق عراها، وإحكام نسيجها إلا أن أصحاب الوصايا من المعمرين لم يعولوا عليهما كثيرًا في تحقيق التماسك النصي والبنيوي في وصاياهم، والدليل على هذا من قلة دورانهما واستعمالهما في هذا الجنس الأدبي؛ إذ لم يرد منهما فيه إلا مواضع قليلة جدا، كانت الغلبة فيها لأداة الاستدراك "لكن" دون أداة الإضراب "بل ".

ويمكن تحليل هذا بلاغيًا ورده إلى بنية هذه الوصايا التركيبية، وطبيعتها الدلالية؛ فهي في مجملها رسائل ذات طابع سردي يقوم على الأسلوب الخطابي ذي الصبغة الوعظية التذكيرية، والطبيعة الدلالية التي تنهض في جانبها الأكبر على النصح والإرشاد، والتربية والتعليم، والحث والترغيب في التحلي بمحاسن الخلال، وجميل الشمائل، أو النهي والتحذير مما هو ضد ذلك.

ومن وجه آخر: فإن المخاطب بهذه الوصايا في غاية الرضا ونهاية القبول لما يوجهه إليه الموصي، وينصحه به، ويحثه عليه، فلا يداخله شك، ولا تزايله ريبة، ولا تبدو عليه بوادر الإنكار والرفض، وهذه أحوال ومقتضيات تتنافى – في الغالب – مع الطبيعة الدلالية للإضراب والاستدراك؛ فإنهما مؤسستان في الغالب على إثبات أمر ونفي آخر مخالف له؛ ولذلك يكثر استعمالهما في مقامات الرد والإبطال، والحجاج والجدل، والمواقف التي تقوم على مجابهة الخصم بغير ما يعتقد، ويغلبان على خطاب المنكر أو المتردد، وهي مقامات وأحوال تتسم في الغالب بالأخذ والرد، والشد والجذب، والإثبات والنفي، وهو ما يجعل طبيعة الدلالة في هاتين الأداتين أبعد ما يكون من سياقات هذه الوصايا ومقاماتها، وألصق ما يكون بمثل هذه المقامات الأخرى المذكورة.

والاستدراك – حسبما عرفه ابن هشام – "هو أن تنسب لما بعد الأداة حكمًا مخالفًا لحكم ما قبلها"[2]، أو هو تعقيب الكلام بنفي ما يتوهم ثبوته، أو إثبات ما

---

(1) المعمرون والوصايا ص ٧٨

(2) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام 290/1.

يتوهم نفيه، وقريب من هذا التعريف قولهم: هو رفع ما يتوهم من الكلام السابق رفعًا شبيهًا بالاستثناء؛ ولذلك قدروا الاستثناء المنقطع بـ " لكن" دون غيرها[1].

أما الإضراب فقد ذكر صاحب الكتاب "أنه ترك شيء من الكلام والأخذ في غيره"[2]، وقيل: هو السكوت عن كلام سابق، وإثبات كلام جديد يختلف عنه[3]، وهو نوعان؛ لأنه إما أن يكون لإبطال حكم سابق ونقضه، وإما أن يكون انتقالًا من غرض لغرض آخر له به صلة، وتجمعه به نوع مناسبة.

ومع أن الباحثين في علم اللسانيات الحديثة قد عولوا كثيرًا على دور كل من الإضراب والاستدراك وأثرهما القوي في عملية التماسك النصي؛ إذ عدوهما من أبرز وسائله إلا أن أيًا منهم لم يشر إلى وجهه فيهما، ولم يتطرق إلى ذكر مناشئه وأسبابه؛ لذا اقتضت المنهجية العلمية أن يتتبع البحث هذه القضية ويؤصل لها، ثم ينطلق منها إلى دراستها وربطها بوصايا المعمرين؛ لينهض البحث على أصل راسخ، ودعائم قوية ومتينة، وقد رد البحث السبب في هذا بعد مراجعة وتأمل إلى ثلاثة أوجه، الأول: أن كلًا من الإضراب والاستدراك يمثل وجهًا من وجوه الإحالة القبلية التي يرد فيها الثاني إلى الأول، ويضم إليه، ويلحق به؛ إما استدراكًا عليه؛ بإثبات ما يتوهم نفيه والعكس، أو بنسبة حكم لما بعدها مخالف لحكم ما قبلها، وإما إبطالًا للأول بإثبات نقيضه، أو بالانتقال منه إلى غيره مما له به صلة، مع كون الثاني أولى وأحق بالمعنى منه،؛ بقرينة استعمال أداتي الإضراب والاستدراك في العطف كثيرًا؛ بشروطهما المقررة في النحو والبلاغة، وقد سبق أن وفى البحث بتأصيل كون العطف من أبرز وسائل التماسك النصي؛ لقيامه على علاقة الإحالة، وكذا علاقة الضم والجمع.

ثانيًا: أن العلاقة الحاكمة، والوجه الجامع بين أول الكلام وآخره، ما قبل أداتي الاستدراك والإضراب وما بعدهما يكمن -في الغالب – في علاقة التضاد أو التقابل؛ حيث نجد ما بعد الأداة مباينًا لما قبلها، ومغايرًا له، أو كأنه كذلك، وتأكيد هذا مما ذكره أبو حيان من أن "لكن" تقع بين متنافيين[4]، ومما ذكره ابن هشام في تعريف الاستدراك من أنه يتمثل في أن تنسب لما بعد الأداة حكمًا مخالفًا لحكم ما قبلها[5]، ومن مضمون التعريف الآخر الذي ذكروه، وحاصله أن الاستدراك نفي ما يتوهم ثبوته، أو إثبات ما يتوهم نفيه[6]، والإثبات والنفي ضدان، وإثبات ما يتوهم عكسه، والعكس في كل منهما هو عين التقابل والتضاد، ومن المعلوم أن علاقة الضدية من العلاقات النصية التي تقوم بوظيفة الربط والتماسك النصي بين معاقد الكلام، وذلك على الوجه الذي سيأتي تفصيله لاحقًا إن شاء الله تعالى في باب

---

(1) ينظر تسهيل نيل الأماني في شرح عوامل الجرجاني لأحمد بن علي الفطامي صـ12، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1939م، وضياء السالك إلى أوضح المسالك لمحمد عبد العزيز النجار 186/2.

(2) الكتاب لسيبويه 223/4، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة 1988م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(3) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام 112/1.

(4) ينظر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 480/5، دار الفكر، بيروت، 1992م.

(5) ينظر مغني اللبيب لابن هشام 290/1.

(6) ينظر تسهيل نيل الأماني في شرح عوامل الجرجاني صـ12 للفطاني.

الطباق والمقابلة، أو غيرهما من الأساليب التي تستند في تحقيق التماسك إلى هذه العلاقة.

ثالثًا: قيام الإضراب والاستدراك على عنصري المفاجأة والمباغتة التي تبعث على النشاط، وتثير في النفس عوامل التيقظ والتنبه، فيظل المتلقي مشدودًا إلى بدء معنى كأنه جديد، لكنه في حقيقة الأمر يعد امتدادًا للمعنى الأول؛ بالاستدراك عليه، أو الإضراب عنه، ويبقى مربوطًا بنهايته، ويكون آخر الكلام متعلقًا بأوله، وناظرًا إليه، وبهذا يقع الترابط، ويتحقق التماسك.

وبعد هذا التأصيل السابق يشرع البحث في ربطه بوصايا المعمرين، وتطبيقه على مواضعه فيها، ومن أظهر ما جاء من ذلك في الوصايا قول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: "أي بنية؛ إن الوصية لو تركت لعقل وأدب، أو مكرمة في حسب، لتركت ذلك منك، ولزويته عنك، ولكن الوصية تذكرة للعاقل ومنبهة للغافل" [1]، وقولها – أيضا -: " أي بنية؛ إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عن الزوج، ولكن للرجال خلق النساء، كما لهن خلق الرجال"[2]، فإن أداة الاستدراك " لكن " في الموضعين، قد جاءت لشد مفاصل الكلام، وتوثيق معاقده، وربطت ما بعدها بما قبلها عن طريق الإحالة التي ردت ما بعد "لكن " في الموضعين إلى ما قبلها، وألحقته به؛ من خلال الاستدراك عليه بإثبات عكسه؛ إذ توهم الجملة الأولى في الموضع الأول: "إن الوصية لو تركت لعقل وأدب أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك، ولزويته عنك" انتفاء الوصية وتركها من أصله، وتوهم الجملة الأولى في الموضع الثاني: " إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عن الزوج" عدم احتياج المرأة إلى الزوج، وقلة ميلها إليه، فجاءت "لكن " في الموضعين لربط ما بعدها بما قبلها، وشده إليه؛ بالاستدراك عليه في قولها في الموضع الأول: " ولكن الوصية تذكرة للعاقل، ومنبهة للغافل" وقولها في الموضع الثاني: " ولكن للرجال خلق النساء، كما لهن خلق الرجال"، بإثبات الوصية التي توهم انتفاؤها في الموضع الأول، وبإثبات شدة احتياج المرأة إلى الرجل، والرجل إلى المرأة، وذلك حسبما تقتضيه الفطرة، وتدعو إليه الجبلة التي خلق الله عليها كلًا من الرجل والمرأة في الموضع الثاني، وبين الإثبات والنفي تضاد في المعنى، وتقابل في الدلالة.

ومن أبرز هذه المواضع – أيضا – ما جاء في وصية عامر بن الظرب لقومه في يوم عرس ابنته: " يا معشر عدوان، خرجت كريمتكم من بين أظهركم من غير رغبة عنكم، ولكنه من خط له شيء جاءه، رب زارع لنفسه ما حاصده غيره"[3]، حيث وقعت "لكن ": في صدر قوله: ولكن من خط له شيء جاءه" استدراكًا يتمثل بعده الوظيفي في ربط ما بعدها بما قبلها، ويمسكه به، وينفي ما توهم ثبوته في جملة: " خرجت كريمتكم من بين أظهركم من غير رغبة عنكم" من أنهم قد قهروا

---

(1) المعمرون والوصايا صـ141.

(2) المرجع نفسه صـ141.

(3)المعمرون والوصايا صـ81.

على أمرهم في ذلك؛ لعجز أو ضعف؛ للتأكيد على أن الزواج في قدر كل من الرجل والمرأة، وحتمية القدر أمر مفروغ منه.

وقول عبد الملك بن مروان في وصيته لابنه الوليد بن عبد الملك: " يا وليد، لا أعرفنك إذا وضعتني في حفرتي تمسح عينيك، وتعصرهما، فعل الأمة، ولكن إذا وضعتني في حفرتي فشمر واتزر والبس جلد النمر، ثم اصعد المنبر، وادع إلى البيعة... "[1] الذي جاءت فيه "لكن" تعقيبًا على قوله: "لا أعرفنك إذا وضعتني في حفرتي..." الذي خرج في معرض الخبر الذي أريد به النهي؛ ليثبت فيما وقع بعدها معنى ربما توهم انتفاؤه فيما تقدمها، والمعنيان متقابلان؛ لأن ما بعدها أمر: "فشمر واتزر، والبس جلد النمر، ثم اصعد المنبر، فادع إلى البيعة" وما قبلها في حقيقته نهي، والأمر والنهي متضادان؛ ليتعانق الاستدراك والتضاد على ربط ما بعد "لكن " بما قبلها، ويؤذنا بشدة تماسكهما، وقوة اتصال بعضهما ببعض، عن طريق تلك العلاقات.

كما تقف من هذه المواضع – أيضا – على قول سليمان بن عبد الملك لرجاء بن حيوة، لما أحس بنزول الأجل، وانتهاء العمر: " يا هذا قد ترى ما نزل بي من الأمر، فما رأيك؟ قال: بل يرفع الله صرعتك يا أمير المؤمنين، ويعلي كعبك" [2]، وقول عمر بن عبد العزيز في وصيته لأولاده: " هذا – يقصد مسلمة بن عبد الملك – يزعم أني تركتكم عالة لا مال لكم، بل تركتكم من الله بخير"[3]، فإنك ترى "بل" في الموضعين قد أمسكت بزمام الكلام، وألفت بين ما بعدها وما قبلها، من خلال علاقة الإضراب التي تمثل وجهًا من وجوه الإحالة، وعنصرًا من عناصر المفاجأة والمباغتة، التي تذكي الحس، وتثير الانفعال، وتبعث على النشاط واليقظة؛ لأن ما بعد الأداة غير متوقع، أو محتمل؛ لمخالفته لما قبله، ومباينته له.

ومن خلال علاقة التضاد التي وضعت ما بعد "بل" في الموضعين في مقابلة الآخر ومواجهته؛ ليعكس هذا التقابل البون الشاسع، والهوة السحيقة التي تنأى بطرفيهما وتباعد بينهما.

فقول عمر بن عبد العزيز: "بل تركتكم من الله بخير" إضراب بإبطال ما زعم مسلمة بن عبد الملك من أن عمر خلف أولاده فقراء، لا مال لهم، حسبما نطقت به الجملة التي قبل "بل": "هذا يزعم أني تركتكم عالة لا مال لكم "، ورده بإثبات نقيضه، وأن الأمر على خلاف ما زعم، وإبراز التباين الشديد ما قبلها وما بعدها.

وقول رجاء: "بل يرفع الله صرعتك يا أمير المؤمنين، ويعلي كعبك" إضراب بالانتقال عما ظنه سليمان بن عبد الملك من أن ما نزل به من بلاء إنما يفضي به إلى الموت، إلى الدعاء له، الذي ينفي ثبوت ما توهم سليمان حصوله، ويستلزم ثبوت خلافه ونقيضه؛ لتتضافر كل هذه العلاقات والروابط الدلالية في الموضعين من إضراب، وإحالة قبلية، وتضاد، ومفاجأة إلى تحقيق التماسك النصي في سياق الوصية، وائتلاف أجزاء الكلام فيها، وحبك ألفاظه، وسبكها، وتتعانق – في الوقت ذاته – على تأكيد مضمونه، وتقرير معناه، وتثبيت أركانه وتمكينها.

---

(1)المعمرون والوصايا صـ192.

(2) المرجع نفسه صـ198.

(3) المرجع نفسه صـ197.

وقريب من الإضراب والاستدراك في مأخذهما، وسمتهما في إرساء مبدأ التماسك والترابط، وترسيخه بين معاقد الكلام ومفاصله في وصايا المعمرين، الاستثناء بأدواته المختلفة؛ لأنه يمثل -هو الآخر-وجهًا من وجوه الإحالة القبلية؛ إذ تحيل أداة الاستثناء المستثنى إلى المستثنى منه، وتدخله معه في حكمه، وترده إليه في دلالته، على جهتي الإثبات والنفي معًا.

غير أن العلاقة الضابطة، والجهة الجامعة بين الطرفين (المستثنى والمستثنى منه)، وبخاصة في الاستثناء المتصل ليست علاقة تضاد أو تقابل، بل ترجع في الغالب إلى ما بينهما من تناظر وتناسب؛ إذ المستثنى في الغالب واحد من أفراد المستثنى منه، ومخرج من جنسه، أو من جنس مقارب له[1].

وإن شئت أن أنصب لك دليلًا على ذلك فراجع قول عمرو بن كلثوم التغلبي في وصيته لأولاده: "فاحفظوا عني ما أوصيكم به، إني والله ما عيرت رجلًا قط إلا عير بي مثله، إن حقًا فحق، وإن باطلًا فباطل"[2]، وقوله من الوصية نفسها: "وما عجبت من أحدوثة إلا رأيت بعدها أعجوبة" [3].

وقول أكثم في وصيته للنعمان: "ولا تعاقب على الذنب إلا بقدر عقوبة الذنب، فتكون مذنبًا..."[4]، وقول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: "وما رأيت شيئًا قط إلا سمعت حسه، ووجدت مسه...وما رأيت موضوعًا إلا منصوعًا، وما رأيت جائيًا إلا ذاهبًا، ولا غانمًا إلا خائبًا، ولا نعمة إلا ومعها بؤس"[5]، وقول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: "وأما الثالثة والرابعة فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح"[6]، وقول معاوية – رضي الله عنه – في وصيته لابنه يزيد: "وإني لست أخاف عليك من قريش إلا من الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير"[7]، وغير ذلك مما كانت فيه أداة الاستثناء هي وسيلة وسيلة الربط والتماسك بين أطراف الكلام في معارضه المختلفة؛ لإحالتها المستثنى إلى المستثنى منه، ورده إليه، وإدخالها إياه في بابه، ولوجود نوع مناسبة وعلاقة تسوغ هذا الجمع، وهي علاقة التناظر؛ إذ المستثنى في كل ما سبق واحد من أفراد المستثنى منه، ومخرج من جنسه؛ فالحسين بن علي – مثلًا – وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، ثلاثتهم من قريش؛ للتأكيد على بالغ خطرهم على ملك يزيد، والتنبيه إلى شدة الحذر منهم، وهكذا تجد الأمر في سائر المواضع المذكورة من الوضوح والظهور بمكان.

أما الاستثناء المنقطع فهو شبيه بالاستدراك في مأخذه وسمته، والعلاقة بين طرفيه علاقة تباين وتقابل؛ ولذلك يفسرونه أو يحملونه على "لكن" الاستدراكية

---

(1) ينظر شرح الكافية في النحو للرضي 224/1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.
(2) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، تأليف: أحمد زكي صفوت 44/1، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
(3) المرجع نفسه 44/1.
(4) المعمرون والوصايا صـ37.
(5) المرجع نفسه صـ82.
(6) المرجع نفسه صـ142.
(7)البيان والتبيين للجاحظ 280/2، تحقيق: فوزي عطوان، دار صعب، بيروت 1968م، والمعمرون والوصايا صـ186.

دون غيرها[1]، إلا أنه شديد الندرة في وصايا المعمرين؛ إذ لم أقف له فيها إلا على موضع واحد برز في وصية عامر بن الظرب لابنته في يوم عرسها: "يا هذه مري ابنتك فلا تنزلن فلاة إلا معها ماء"، فإن الماء ليس من جنس النزول، ولا من واديه، وقرينة هذا من نصب المستثنى بعد "إلا"، وبين الماء والنزول من التباين والتقابل ما لا يخفى.

ومن اللافت للنظر أن "إلا" هي أكثر أدوات الاستثناء دورانًا في وصايا المعمرين؛ لتمثل بذلك خصيصة من خصائص الترابط والتماسك في هذه الوصايا، ولعل ذلك لخفة مبناها، وقصر مقطعها، وهو ما يجعلها أكثر انسجامًا وتوافقًا مع الإيقاع السريع، ذي المقاطع القصيرة المتلاحقة التي تتسم به هذه الوصايا.

(1) ينظر ضياء السالك إلى أوضح المسالك 186/2.

"المحور الثاني"

"التماسك النصي بألفاظ وأساليب ذات طابع إحالي أصيل"

الإحالة في جوهرها تعني: العلاقة بين العبارات من جهة، وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه هذه العبارات من جهة أخرى"[1].

والإحالة من أقوى وسائل الاتساق والانسجام، والترابط والتماسك النصي الذي تتآلف به الجمل والمقاطع داخل النسق بعضها ببعض، وهي تقوم – كما هو واضح من التعريف السابق – على العلاقات بين أجزاء النص الواحد من خلال مجموعة معينة من الألفاظ والأساليب ذات طابع إحاليّ، فلا هي تستقل بدلالتها، ولا هي تنفرد في عطائها، بل ترتبط في معناها وتتشابك مع عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من النص.

وبناء على ذلك فقد اشترطوا في وجودها في النص اللغوي مبدأ التماثل وتطابق الخصائص الدلالية بين ما سبق ذكره في سياق أوفى مقام ما، وبين ما هو مذكور بعد ذلك في مقام وسياق آخر، أي: بين العنصر المحيل، والعنصر المحال إليه[2].

وتنقسم الإحالة إلى قسمين: الأول: إحالة خارجية، وفيها يحيل عنصر في النص إلى شيء خارج النص موجود في المقام الخارجي.

والثاني: إحالة داخلية، وتقع داخل النص نفسه، وقد أطلقوا عليها – أيضا – اسم الإحالة النصية[3]، وفيها يحيل عنصر في النص إلى عنصر آخر موجود في داخل النص نفسه، سواء أكان قبله، كما في الإحالة القبلية، أم بعده كما في الإحالة البعدية، وهذا القسم من الإحالة هو محور الدراسة في هذا البحث بمشيئة الله تعالى.

والإحالة النصية [الداخلية] تقوم في الألفاظ على نمطين من العناصر اللغوية، النمط الأول: يسمى العناصر الإحالية، والنمط الثاني: العناصر الإشارية.

أما العناصر الإحالية فتتمثل في الضمائر بأقسامها الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة، إذ من المعلوم أن الضمير لا يستقل بدلالته، بل لا بد له من مرجع يفسره، ويوضح المراد منه.

وأما العناصر الإشارية: فتتمثل في أسماء الإشارة، وهي كل اسم يعين مدلوله بواسطة إشارة إليه، حسية أو معنوية، ويشمل ما كان ذاتا أو معنى.

أما الأساليب فينهض كثير منها في تحقيق عنصر التماسك على هذه العلاقة، لكنها تبرز بشدة، وتظهر بقوة، وعلى نحو أصيل في أساليب التكرار، والحذف، والسجع، ورد الأعجاز على الصدور.

"الصورة الأولى"

التماسك النصي عن طريق الإحالة بالضمائر

---

(1) ينظر النص والخطاب والإجراء. لدي بوجراند صـ172، تحقيق/ د. تمام حسان، الطبعة الأولى 1998م، عالم الكتب، القاهرة.

(2) ينظر نسيج النص للأزهر الزناد صـ118، الطبعة الأولى 1993م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

(3)نسيج النص للأزهر الزناد صـ118.

الضمائر – كما سبق – مبهمة الدلالة، ولا غنى لها عن شيء يزيل إبهامها، ويفسر غموضها، سواء أكانت للتكلم أو للخطاب، أو للغيبة، أما ضمائر التكلم والخطاب فمفسرها مقام الحضور، ووجود صاحبها وقت الكلام؛ فهو إما حاضر يتكلم بنفسه، وإما حاضر يكلمه غيره مباشرة، وأما الغائب فغير حاضر، ولا مشاهد، وصاحبه غير معروف، فلا بد له من شيء يفسره، ومرجع يوضح المراد منه[1].

والعلاقة بين التفسير والمفسر هي ما يسمى: الإحالة، وهي لب التماسك النصي وجوهره؛ إذ يقوم الضمير عن طريق هذه الإحالة، وذاك الارتباط بمد جسور الاتصال بين الأجزاء المتباعدة في حاق النص وفضائه؛ حيث يعود الضمير إلى عنصر آخر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من النص (قبل أو بعد)، ويقوم البعد الوظيفي لهذا العنصر الآخر على تفسير هذا الضمير.

والناظر في وصايا المعمرين للوقوف على دور الضمائر وأثرها في مد جسور التواصل والترابط بين أنساق هذه الوصايا وسياقاتها المختلفة يجد أن لهذه العناصر الإحالية دون غيرها الدور الأكبر، والأثر الأعمق في تحقيق هذه الغاية، والوفاء بهذا المقصد، فلن تفوتك جملة واحدة، أو معقد من معاقد المعنى، كبيرًا كان أم صغيرًا إلا وقد ضم بين لابتيه واحدًا من هذه الضمائر.

إلا أن السمة الأقوى ظهورًا، والأكثر دورانًا في تحقيق التماسك النصي على المستوى العام، والمضمون الكلي في أنساق هذه الوصايا ومعاقدها هي ضمائر الخطاب خاصة؛ إذ تسري هذه الضمائر في حنايا هذا الجنس الأدبي سريان الدم في العروق، وهذا أمر بدهي؛ إذ هي موجهة في بادئ الأمر إلى من هم حول الموصى من ذويه وأهله، أو ممن تربطه بهم صلة، ومقامها مقام حضور؛ لأن الطرف الموصَى حاضر يكلمه الموصِي مباشرة، ومن دون وساطة؛ بدلالة القرائن والملابسات التي اكتنفت هذه الوصايا من بين يديها ومن خلفها، وبخاصة الأسباب الواردة في قولها، والزمان والمكان الذي قيلت فيه.

وقد يتعانق ضمير المتكلم بكثرة في هذا المستوى مع ضمير الخطاب في بعض الوصايا، وقد يتشابك معه على هذا النحو ضمير الغيبة في بعضها الآخر.

أما على المستوى الخاص بين الوحدات النصية القصيرة ذات المعاني والمضامين الجزئية فتجد الحضور الأبرز لضميري الخطاب والغيبة؛ حيث يعملان معاً على تماسك هذه الوحدات وتآلفها داخل المعقد الواحد.

وللقارئ أن يراجع وصية عامر بن الظرب لقومه بني عدوان؛ إذ يتجلى فيها هذا التعانق بقوة، والتماسك بشدة؛ نظرًا لطولها، وتعدد معاقدها، يقول عامر: " يا معشر عدوان، كلفتموني تعبا – إن كنتم شرفتموني فقد التمست ذلك منكم، وإني قد أريتكم ذلك من نفسي، وأنى لكم مثلي، افهموا عني ما أقول لكم – ولا تشتموا بالذلة، وبكل عيش يعيش الفقير-وأعدوا لكل أمر قدره، والعقوبة نكال، وفيها ذمامة، فلا تذموا العقوبة-وإذا شئت وجدت مثلك.

يا معشر عدوان، إياكم والشر-فإن له باقية-ومن سبقكم إلي خير فاتبعوا أثره تجدوا فضلًا.

---

(1) ينظر النحو الوافي لعباس حسن 255/1، الطبعة العاشرة 1991م، دار المعارف، مصر.

يا معشر عدوان: إن الأول كفى الآخر، فمن رأيتموه أصابه شر، فإنما أصابه فعله، فاجتنبوا ذلك الذي فعله.

يا معشر عدوان! إن الشر ميت، وإنما يأتيه الحي فيصيبه.

يا معشر عدوان، إن الخير عزوف ألوف-يا معشر عدوان، ربوا صغيركم، واعتبروا بالناس-وإياكم والحسد فإنه شؤم ونكد.

وإني وجدت صدق الحديث طرفًا من الغيب فاصدقوا تصدقوا-وإني رأيت للخير طرفًا فسلكتها، ورأيت للشر طرفًا فاجتنبها-وإني والله ما كنت حكيمًا، حتى تبعت الحكماء، وما كنت سيدكم حتى تعبدت لكم.

وإن لكل شيء داعيًا فأجيبوا إلي الحق، وادعوا إليه، وأذعنوا له"[1].

فقد تعانقت على مستوى الوحدات النصية الكبيرة (المعاقد)، ذي المضمون الكلي ضمائر التكلم في كثير من هذه الوحدات مع ضمائر الخطاب البارزة بقوة في جميع هذه المعاقد؛ بداية بتكرير أسلوب النداء: "يا معشر عدوان" الذي يعد وجهًا من وجوه الخطاب على رأس كل وحدة منها.

وانتهاء بتلاحم ضمائر الخطاب مع ضمائر الغيبة، المستترة منهما والظاهرة في الوحدات النصية القصيرة (الجمل) ذي المضمون الجزئي في سياق هذه الوصية؛ حيث يحيل كل واحد من هذه الضمائر بأقسامها وصورها المتنوعة في موضعه إلي الكلام السابق عليه، ويفسر الكلام السابق المقصود من الضمير، ويبين المراد منه في اتساق عجيب، وتوافق غريب؛ لتجسد هذه الإحالة-من وجه-قوة الترابط، وشدة التماسك، وعمق الصلة بين هذه الوحدات النصية بمستوييها من خلال هذه الضمائر.

وتجسد في الوقت ذاته-من وجه آخر-وحدة السياق، ووحدة الموضوع ووحدة الزمان والمكان، حتى أضحت الوصية في مجموعها عن طريق هذا الترابط الإحالي بناء مشدودًا، ووحدة نصية متكاملة، تتعانق فيها الوسائل على تحقيق الهدف، والوفاء بالمعنى والغرض.

ولك أن تراجع-أيضًا-وصية عمر-رضي الله عنه-للخليفة من بعده، يقول: "أي بني، إذا قام الخليفة بعدي فائته فقل له: إن عمر بن الخطاب يقرئك السلام، ويوصيك بتقوى الله.... ويوصيك بالمهاجرين والأنصار...ويوصيك بأهل الأمصار خيرًا.... ويوصيك بأهل البادية خيرًا... ويوصيك بأهل الذمة خيرًا..."[2]، فإنها مثال ظاهر لتعانق ضمائر الخطاب والغيبة على كلمة "يوصيك" المكررة على رأس كل مفصل من مفاصل المعنى في الوصية، وتشاركهما في تعميق وحدة السياق والمقام، ووحدة الخطاب، ووحدة الزمان والمكان؛ من خلال تلك الإحالة النصية التي يعود الضمير بها إلي الكلام السابق عليه، ويفسر الكلام السابق عليه إبهامه، ويزيل غموضه، في حركية تبادلية يتعلق فيها آخر الوصية بأولها، ويتشابك ختمها مع بدايتها، فترتد كل معانيها ومضامينها، وجملها وعباراتها، ومفاصلها ومعاقدها إلي الجملة الأولى: "إذا قام الخليفة بعدي فائته فقل له: إن عمر

---

(1) المعمرون والوصايا ص: 35-36.

(2) المعمرون والوصايا ص: 88.

بن الخطاب يقرئك السلام"، فيشتد التماسك، ويقوى الترابط، ويتقرر المعنى ويتأكد، ويثبت ويتمكن.

وهي-أيضًا-مثال ظاهر لتعانق ضمائر الخطاب والتكلم؛ وذلك في رواية الجاحظ في البيان والتبيين[1]؛ حيث أسند الفعل من الوصية فيها إلى ضمير التكلم، على هذا النحو "أوصيك"، وكرره في كل معاقدها، بدلًا من ضمير الغيبة في الرواية الأولى.

"الصورة الثانية"

"التماسك النصي عن طريق الإحالة بأسماء الإشارة"

تقوم أسماء الإشارة بوظيفة الربط بين النصوص، والعمل على شد مفاصلها بعضها ببعض؛ من خلال علاقة الإحالة إلى كلام سابق، وهذا البعد الدلالي في أسماء الإشارة لا يتحقق إلا في صورة واحدة؛ يكون اسم الإشارة فيها تلخيصًا أو تكثيفًا لكلام سابق، فيعود اسم الإشارة إلى هذا المذكور السابق ويولي وجهه شطره، ويطويه من دون حاجة إلى إعادة ذكره وتكراره مرة أخرى؛ تفاديًا للتطويل الذي يؤدي إلي انفصام عرى الكلام، وتقطع أواصره، وترهل بنائه إلي الحد الذي يثقل به وثوبه إلي القلوب، ووقوعه في النفوس[2].

وليس لهذا التأصيل المتقدم على النحو المذكور إلا نتيجة واحدة، هي قلة دوران هذا النمط التركيبي من أنماط التماسك في وصايا المعمرين، وندرة اتكاء أصحابها عليه في تلاحم النسيج البنيوي لوصاياهم، وانصهاره في بوتقة واحدة تجمع شتاته، وتمسك متفرقه، وترد آخره إلى أوله، وهكذا.

غير أن الذي يطالع وصايا المعمرين بالتأمل يثير اهتمامه أن هذا القالب الدلالي الذي يعتمد على علاقة الإحالة منهجًا في التماسك له في الوصايا صورتان اثنتان: الأولى: أن يأتي اسم الإشارة تعقيبًا على وحدات نصية قصيرة، ذات مضمون جزئي؛ تقريرًا لمعناها، وتأكيدًا على فحواها؛ لأهمية ما ضمته بين لابتيها، وبالغ خطره، وهنا يبدو التماسك جزئيًا؛ لأنه لا يتجاوز الوحدة الواحدة، ولا يعدو المقطع الواحد، كالذي تجده في وصية عامر بن الظرب لقومه بني عدوان: "يا معشر عدوان، إن الأول كفى الآخر، فمن رأيتموه أصابه شر فإنما أصابه فعله، فاجتنبوا ذلك الذي فعله"[3]، وكالذي تجده في وصية زرارة بن عُدُس لبنيه: "يابني، قد أدركت سفيان بن مجاشع بن دارم شيخًا كبيرًا محجوبًا، فأخبرني أنه قد حان خروج نبي بمكة من مضر، يقال له: أحمد، يدعو إلي عبادة الله، فإن أدركتموه فاتبعوه، تزدادوا بذلك شرفًا إلي شرفكم"[4]، وكذلك وصية مالك بن عمرو الكلبي: "وصونوا أنفسكم بالدعة وبذل المعروف، وكفوها عن سوء الرعة في الأمور، وإن

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ ص:235-236.

(2) ينظر خصائص التراكيب. دراسة تحليلة لمسائل علم المعاني. د/ محمد أبو موسى صـ208 الطبعة الرابعة 1996م، مكتبة وهبة، القاهرة، كما ينظر البيان في روائع القرآن. د/ تمام حسان 537/2، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2003م.

(3) المعمرون والوصايا صـ 36.

(4) المرجع نفسه صـ 36.

أقبح ذلك ما كان في المطمع"[1]، وكالذي تجده أخيرًا في وصية الحجاج بن يوسف: "لا نفرق بين أحد من خلفاء الله، ولا نتهم الله في قضائه فيهم، هم لي أولياء، وأنا لهم ولي في الدنيا والآخرة، من اتهم الله على قضائه فيهم، أو نكث عهده، أو عصاه، أو خلع عطاء الله الذي ولاهم فأنا لذلك عدو في الدنيا والآخرة"[2].

فاسم الإشارة "ذلك" الذي مثل قاسمًا مشتركًا بين الوصايا المذكورة سلفًا قد شد من عرى الكلام، ووثق معاقده؛ لأنه أحال إلي جميع ما تقدم في كل مقطع من المقاطع التي جاء فيها تعقيبًا عليها، وعاد إليه؛ فهو-مثلًا-في وصية الحجاج إحالة ورجوع إلى مضمون ما سبق في المقطع من قوله: "من اتهم الله على قضائه فيهم (أي: الخلفاء)-أو نكث عهده-أو عصاه-أو خلع عطاء الله الذي ولاهم"، وقد أراد أن يعيده مرة أخرى على نحو من الإيجاز والتكثيف؛ تهويلًا لشأنه، وتنبيهًا إلي بالغ خطره، وعظيم قبحه؛ بقرينة إيثاره اسم الإشارة الموضوع للبعيد، ومن هنا بدا التماسك ظاهرًا، والتلاحم قويًا بين اسم الإشارة وبين السابق عليه واللاحق له.

الصورة الثانية: أن يأتي اسم الإشارة في نهاية الوصية تعقيبًا عليها، واستدعاءً لمضمونها كله، وإحضاره في الذهن مرة أخرى موجزًا مكثفًا، من خلال تلك الإحالة النصية بهذه الإشارة، وهنا تبدو الوصية كأنها كلمة واحدة، أو قطعة واحدة، متآلفة الحبك، متداخلة النسج، شديدة التماسك، وهذا من فرط حفاوة الموصي بوصيته، وشدة اعتنائه بها، وإرادته تمكينها في قلب من يوصيه، وغرسها في أعماق ضميره، وحنايا وجدانه.

وقد جاءت هذه الصورة في عدة مواضع، منها وصية أمامة بنت الحارث لابنتها؛ فقد قالت في نهايتها بعدما أتت على كل ما أمدت به ابنتها من نصائح تضمن لها السعادة الزوجية: "واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك، ورضاه على رضاك فيما أحببت وكرهت"[3].

ومنها: وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما، قال في ختمها بعدما فرغ من كل ما أراد أن يوصي عمر به: "هذه وصيتي إياك، وأقرأ عليك السلام"[4].

وكذلك الشأن نفسه في وصية عمر-رضي الله عنه-للخليفة من بعده؛ ختمها بما ختم به أبو بكر-رضي الله عنه-وصيته له، قال: "هذه وصيتي إياك، وأشهد الله عليك، وأقرأ عليك السلام"[5].

ومنها: وصية نهد بن زيد لبنيه، قال: "يا بني، أوصيكم بالناس شرًا، كلموهم نزرًا، واطعنوهم شزرًا، ولا تقبلوا لهم عذرًا، ولا تقيلوهم عثرة، وقصروا الأعنة، واشحذوا الألسنة"، ثم ختمها بقوله: "تأكلوا بذلك القريب، ويرهبكم البعيد"[6]، فإنك فإنك تجد اسم الإشارة في ختم هذه الوصايا قد طوى به المتكلم كل ما سبق ذكره فيها من نصائح، وأحالك به إليه، وأعاده عليك به مرة أخرى على نحو من الإيجاز والتكثيف الذي يشتد به سبك الكلام، ويتصل معه أوله بآخره، ويرتد به آخره إلي

---

(1) المرجع نفسه صـ72.
(2) المرجع نفسه صـ 96.
(3) المعمرون والوصايا صـ 71.
(4) المرجع السابق صـ 88.
(5) البيان والتبيين للجاحظ صـ 236.
(6) المعمرون والوصايا صـ15.

أوله، وهذا-كما ذكرت لك-من فرط حفاوة المتكلم بمعناه، وشدة اهتمامه به؛ زيادة في التنبيه له، واللفت إليه، حتى يعيه سمع المخاطب وقلبه، ويتمكن من نفسه، ويستقر في أعماق ضميره.

"الصورة الثالثة"
التماسك النصي بأسلوب التكرار

يعد التكرار من وسائل التماسك والترابط بين وحدات النص وأجزائه؛ لكونه – من وجه – إحالة داخلية؛ حيث يحيل الثاني إلى الأول، ويرده إليه، فترتبط الجملة والفقرات التي وردت فيها الألفاظ المكررة بعضها ببعض، ومن ثم يقع السبك والتلاحم بينهما [1].

وكونه – من وجه آخر على نحو ما أشار الرضي – عبارة عن ضم الشيء إلى مثله في اللفظ، مع كونه إياه في المعنى؛ للتأكيد والتقرير، والضم يعني ربط الشيء بما ضم إليه، وفي هذا الربط يتحقق التماسك النصي بينهما[2].

فالتكرار يؤدي إلى سريان الحركة داخل النص، حيث تأخذ اللفظة أو الجملة، أو الفقرة أبعادًا مكانية تعمل على تنسيق الدلالة؛ بحيث يكون هناك اتفاق بين حركة الذهن وحركة الصياغة، فيكون الناتج بعيد الأثر، عميق الغور في أدبية الصياغة[3].

وهذه المعاني الموجودة في التكرار لم تكن بحال خافية على علمائنا، ولا غائبة عن تصورهم؛ فقد أشار الرضي–على الوجه الذي سبق ذكره آنفًا– إلى شيء من هذا، كما أثبتوا أن من فوائد التكرار: أنه إذا طال الكلام، وخشي تناسي الأول والذهول عنه أعيد ثانية؛ تطرية له، وتجديدًا للعهد به[4].

وقد اشترطوا في التكرار كي يحقق هذا البعد الوظيفي أن يكون في سياق واحد؛ لغرض ومقام يستدعي هذه الإعادة[5]، وهذا يعني أن وحدة السياق، ووحدة المقام شرط للتكرار، وهذا هو التماسك في أجلى صوره، وأوضح معانيه.

ولا شك في أن هذا البعد يطرد في وصايا المعمرين على نهج واضح وجلي؛ فالوصية الواحدة وإن اختلفت مضامينها، وتنوعت معانيها وأغراضها؛ إلا أن سياجًا واحدًا يحوطها، وغرضًا عامًا يجمعها ويعانقها؛ إذ لا تخرج عن إطار النصح والتوجيه والإرشاد، ودائرة التربية والتعليم والتهذيب، وترتبط في كثير منها بمواقف ومقامات تتمحض فيها النصيحة، ويتجسد فيها حرص الناصح على المنصوح، ورغبته العارمة في بلوغه رتبة التمام والكمال؛ إذ تلقى -في الغالب -في

---

(1) ينظر بناء الأسلوب في شعر الحداثة. د/ محمد عبد المطلب صـ115، كما ينظر التماسك والتناسب دراسة في بلاغة النص القرآني د/ محمد أحمد أبو عامود صـ76، الطبعة الأولى 2014م، دار النابغة، القاهرة.

(2) ينظر شرح الكافية في النحو للرضي 15/1، دار الكتب العلمية، بيروت1985م.

(3) ينظر قواعد الربط والارتباط ونظريات الربط اللغوية الحديثة. د/ حسام البهنساوي صـ66، 67، الطبعة الأولى 2018م، الناشر: مكتبة زهراء الشرق.

(4) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: د/ مصطفى ديب البغا 849/2، الطبعة الثالثة 1996م، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.

(5) ينظر التكرار بلاغة. د/ إبراهيم الخولي صـ38، الشركة العربية للطباعة والنشر 1993م.

أخريات العمر، وفي مواقف ومقامات الاحتضار، وتتوجه – في الأكثر – إلى من تشدهم إلى الموصي حبال من الوشائج والقربى.

غير أن اتكاء أصحاب الوصايا من المعمرين على هذه النوع من الروابط النصية يبدو قليلًا جدًا بالقياس إلى غيره، وهو في مجمله لا يتجاوز أن يتمثل في تكرار لفظة بعينها، أو أسلوب بعينه، أو جملة أو صيغة بعينها في سياقات ومقامات معينة.

فمن مواضع تكرار لفظة بعينها تكرار لفظتي " الخرق-الرفق " في وصية أكثم بن صيفي إلى النعمان: " الجهل قوة الخرق، والخرق قوة الغضب – والأدب رفق، والرفق يمن "[1] وتكرار لفظ " الماء " في وصية عامر بن الظرب لابنته في يوم زواجها " يا هذه مري ابنتك فلا تنزلن فلاة إلا معها ماء، وأن تكثر استعمال الماء فلا طيب أطيب منه، وإن الماء جعل للأعلى جلاء وللأسفل نقاءً "[2] وتكرار لفظ " الملوك " في قول مجاشع بن شريف لبني تميم: " يا بني تميم! أقل الناس رحمة الملوك – إن الملوك ينكلون بالشقي والسعيد، ومنجاة من ناوأ الملوك الصبر "[3].

وكتكرار لفظ الجلالة في وصية علي ــ رضي الله عنه ــ لابنه الحسن: "الله الله في الضعيفين؛ فإن آخر ما تكلم به رسول الله أن قال: أوصيكم بالضعيفين[4] خيرًا – والله الله في القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم – والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم – والله الله في الزكاة فإنها تطفئ غضب ربكم – والله الله في صيام رمضان فإن في صيامه جنة – والله الله في الحج فإن بيت الله إذا خلا لم تناظروا – والله الله في الفقراء والمساكين فشاركوهم في معايشكم"[5] وكتكرار لفظة "قومكم " " في وصية المهلب بن أبي صفرة لبنيه: " يا بني؛ قومكم قومكم إنه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم" [6]، فإنك تجد تكرار هذه الألفاظ المذكورة قد عمل في كل وصية على تماسك النظم وارتباطه، وتلاحمه على نحو قوي ومتين، ووجه ذلك أن تكرار لفظ "الخرق" و"الرفق" في حديث أكثم قد نزلت به الجملتان المذكورتان في كل لفظة منزلة السبب من المسبب، والنتيجة من المقدمة، وأن "للخرق" وهو الحمق والجهل أثرًا سيئًا، وتأثيرًا ذميمًا في الأخلاق، وأن الرفق يعانق الأدب واليمن معانقة النتائج للمقدمات، والأسباب للمسببات.

وتكرار لفظ "الماء" في وصية عامر لابنته، ولفظ "الملوك" في وصية مجاشع؛ للدلالة على أن هاتين اللفظتين رأس المعنى، ومعقده الذي يدور عليه الكلام في الوصيتين، ويتعلق به، ليشتد الحرص في الأول على الماء اقتناءً واستعمالًا؛ لأنه في نظر عامر ليس قوام الحياة فقط، بل هو قوام السعادة والجمال اللذين تتطلبهما الحياة الزوجية التي تقبل ابنته عليها.

---

(1) المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني صـ37.
(2) المرجع السابق صـ78.
(3)المعمرون والوصايا صـ174.
(4)الضعيفين المرأة والمملوك/لسان العرب، ضعف 2587/4
(5) المعمرون والوصايا صـ89.
(6) المرجع نفسه صـ83.

ولتشتد الرهبة في الثانية في قلوب بني تميم، والنفرة من مخالطة الملوك والاقتراب منهم، أو مجافاتهم ومعاداتهم، فإن تكرار لفظ "الملوك" وما يقترن به من العظمة والكبرياء مما يربي هذه المعاني وينميها.

وأما تكرار لفظ الجلالة في وصية علي لابنه الحسن – رضي الله عنهما – فللدلالة على عمق الصلة وشدة الارتباط والتماسك بين مضامين هذه الوصايا ومحتوياتها؛ إذ تدور كلها بين أن تكون حقوقًا لله تعالى، أو حقوقًا للعباد أوجبها الله، فهي تخرج من مشكاة واحدة، ومن مصدر واحد.

كما ينبئ هذا التكرار عن أن نفس علي – رضي الله عنه – قد أفعمت بحب الله والخوف من جنابه، وامتلأ قلبه بذلك؛ لما في إظهار العلم الجليل في مواضعه على هذا النحو المكرر من تربية المهابة، وإلقاء الروع والفزع في قلوب السامعين، وهكذا – أيضا – يمكن قياس الموضع الأخير.

ومن مواضع تكرار أسلوب بعينه تكرار أسلوب النداء خاصة في عدد من الوصايا، كتكرار صيغة "يا بني" في وصية زرارة بن عدس بن زيد لبنيه: "يا بني إنكم أصبحتم بيت تميم – يا بني إن القالة إليكم سريعة - يا بني جوزوا النساء الأكفاء-يا بني قد أدركت سفيان بن مجاشع بن دارم شيخًا كبيرًا...."[1] كما تكررت نفس الصيغة أربع مرات في وصية المهلب بن أبي صفرة لبنيه، ومرتين في وصية مالك بن المنذر البجلي، ووصية عمرو بن الغوث لبنيهما[2].

وتكرار صيغة "أي بنية" في وصية أمامة بنت الحارث لابنتها: ثلاث مرات: "أي بنية! إن الوصية لو تركت لعقل وأدب أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك – أي بنية إنك قد فارقت الجواء الذي منه خرجت.... – واعلمي -أي بنية -أن الماء أطيب الطيب المفقود"[3].

وكذلك تكرار صيغة "يا معشر عدوان" ست مرات في وصية عامر بن الظرب لقومه: " يا معشر عدوان كلفتموني تعبا-يا معشر عدوان إياكم والشر فإن له باقية – يا معشر عدوان إن الأول كفى الآخر – يا معشر عدوان إن الشر ميت – يا معشر عدوان إن الخير عزوف ألوف – يا معشر عدوان ربوا صغيركم واعتبروا بالناس" [4]

وأما مواضع تكرار جملة أو صيغة بعينها فقد برز ذلك في جملة " أوصيكم بكذا " أو " يوصيك بكذا " في بعض الوصايا كتكرارها في وصية ذويد بن نهد لأولاده: قال: " أوصيكم بالناس شرًا، لا تقبلوا لهم معذرة – أوصيكم بالناس شرًا طعناً وضربًا "[5] وتكرارها في وصية القلمس بن عوف لأشراف قومه: "أوصيكم بأحسابكم فإنها مقدم وافدكم-وأوصيكم بالسائل إن كان منكم أن يسأل غيركم-واستوصوا بذوي أسنانكم خيرًا، أجملوا مخاطبتهم-وأوصيكم ببيوت الشرف فيكم، أقيموا لهم شرفهم – وأوصيكم بالحرب إن ظفرتم بقوم فأبقوا فيهم – وأوصيكم

---

(1) المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني صـ143.
(2) المرجع السابق ص 147-.148
(3)المعمرون والوصايا صـ141-142.
(4) المرجع نفسه صـ76-77.
(5) المرجع نفسه صـ39.

بالضيف – وأوصيكم بالجيران فأكرموهم – وأوصيكم بالخفراء[1] خيرًا-وأوصيكم بأياماكم خيرًا، شدوا حجبهن، وأوصيكم بالصلة فإنها تديم الألفة "[2]

وكذلك تكرارها في وصية عمر للخليفة من بعده: " إن عمر يقرئك السلام ويوصيك بتقوى الله – ويوصيك بالمهاجرين والأنصار – ويوصيك بأهل الأمصار خيرًا – ويوصيك بأهل البادية خيرًا فإنهم أصل العرب – ويوصيك بأهل الذمة خيرًا أن تقاتل من ورائهم" [3]

ووراء التكرار في كل في مواضعه ما وراءه من تجسيد تماسك الوصية وتلاحم سبكها، وتداخل نظمها؛ لدلالته في كل على اتحاد الموقف والسياق، وأن اللاحق مضموم إلى السابق وراجع إليه، وأن الخطاب في هذه الوصايا يجري على نسق واحد، ويتجه إلى مخاطب معين.

واختصاصه فيما كان المكرر فيه أسلوب النداء بالدلالة على حرص الناصح على المنصوح، وفرط تودده وتلطفه في استمالته، وجذب إصغائه إليه، وتجسيده عمق الصلة وقوة الرابطة بين الموصي والموصى له.

وندائه فيما كان المكرر فيه جملة أخرى غير أسلوب النداء على تعاظم الرغبة في امتثال الوصية، والشروع في تنفيذها وقت الخطاب؛ بقرينة إخراج الوصية مخرج الخبرية بإيثار صيغة المضارع: " أوصيكم-يوصيك"؛ إذ تقوى هذه الدلالة وتزيدها عمقًا ووجاهة.

"الصورة الرابعة"
" التماسك النصي بأسلوب الحذف"

يعد الحذف واحدًا من أهم الروابط التي يتحقق بها التماسك النصي، ومن أكثرها شيوعًا واستعمالاً؛ حيث يعمد المتكلمون إلى إسقاط بعض عناصر الخطاب، واستبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن [4]؛ إذ الحذف في أصله يمثل فراغًا بنيويًا يعول المتكلم في ملئه على أمرين، الأول: الاعتماد على ذكاء المتلقي وفطنته، ومدى قدرته على استيعاب النص المذكور، وفهمه لطبيعة المعنى المراد.

الثاني: التعويل على دلالة القرائن التي نصبها في كلامه، سواء أكانت هذه القرائن داخلية، أم خارجية، ملفوظة أم مفهومة.

ومرد كون الحذف من أقوى الروابط النصية التي يتحقق بها التماسك إلى وجهين، الأول: ما يحدثه إسقاط بعض عناصر البناء اللغوي من النص، سواء أكان ذلك على مستوى اللفظة المفردة، أو مستوى الجملة، أو ما فوق ذلك -من إثراء

---

(1)الخفر: هو الإجارة والحماية/لسان العرب، خفر، 1209/2 وما بعدها.

(2) المعمرون والوصايا صـ134.

(3)المعمرون والوصايا صـ179.

(4) ينظر النص والخطاب والإجراء لدى بوجراند صـ٣٠١، ٣٠٢، تحقيق: د/تمام حسان، الطبعة الأولى ١٩٩٨م،عالم الكتب، القاهرة، كما ينظر ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، د/طاهر سليمان حمودة ص ١٤٤- ١٤٦،الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، بدون تاريخ.

الدلالة، وتقوية الإيحاء، وتنشيط خيال المتلقي لتأويل هذه الجوانب المضمرة، والزوايا الخفية[1].

وإثراء الإيحاء، وتقوية الدلالة، وتنشيط الخيال لسد الفجوات المضمرة وتأويلها مما يقوم به الحذف، وينهض بتلبيته يعمل على اتساق النص، وتشابك أوصاله، وتماسك أجزائه، وتلاحم عناصره.

الثاني: أن الحذف يمثل وجهًا من وجوه الإحالة التي يعدها المحدثون من أقوى العلاقات، وأظهر العوامل في تحقيق التماسك النصي والترابط البنيوي بين التراكيب؛ وذلك من خلال وجود مرجعية يفيء إليها المحذوف، وهذه المرجعية هي ما يطلق عليه البلاغيون مصطلح القرينة؛ فكل حذف لا بد فيه من قرينة دالة، إلا وكان الكلام إلغازًا وتعمية، وهذه القرينة قد تكون داخلية، وهي القرينة اللفظية المذكورة في منطوق الكلام، سواء أكانت قبلية أم بعدية، وقد تكون خارجية، وهي القرينة المعنوية أو الحالية.

فالنسق في البنية العميقة يحيل المقدر (المحذوف) إلى الدليل (المذكور سابقًا أو لاحقًا) في البنية السطحية، وبهذا يحدث التآلف، ويحصل الترابط والتلاحم.[2]

والحذف بهذا الاعتبار يجيء في وصايا المعمرين على عدة وجوه؛ ابتداءً بحذف الكلمة، ومرورًا بحذف الجملة، وانتهاء بحذف أكثر من جملة.

أما حذف الكلمة فتتنوع صوره، وتتعدد أشكاله هو الآخر، فتارة يحذف المفعول، ومرة يحذف الموصوف، ومرة يحذف الفعل، وإن شئت دليلا على ذلك فراجع قول أكثم بن صيفي في وصيته لبني تميم، وهو مما حذف فيه الموصوف "وربما أعلم فأدع، تشج بيد، وتأسو بأخرى"[3]، وقوله-أيضًا-في وصيته للنعمان: "والعي أن تكلم بقوق ما تسد به حاجتك"[4]، وقول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: "واتقي الفرح لديه إذا كان ترحًا، والاكتئاب عنده إذا كان فرحًا، فإن الأولى من التقصير، والثانية من التكدير" [5]، فقد عمل الموصوف المحذوف في قول أمامة: فإن الأولى -والثانية "على الإمساك بعرى الكلام، وشد معاقده؛ لأنه أحال قولها في الموضع الأول: " فإن الأولى من التقصير" -على أن تقدير الموصوف المحذوف هو: فإن الخصلة الأولى -إلى قولها: "واتقي الفرح لديه إذا كان ترحا " الذي مثل مرجعية قبلية، وقرينة دالة على المحذوف المقدر، ومرشدة إليه، وكذلك الشأن نفسه في قولها في الموضع الثاني: "والثانية من التكدير " -على أن التقدير: والخصلة الثانية -الذي أحال المتلقي في تقدير المحذوف السابق إلى قوله: " والاكتئاب إذا كان فرحاً "، هذا إلى جانب ما بعثه الحذف في المتلقي من إثارة ذهنية، وحركة نفسية دافعة إلى التفكير في ملء هذه الفراغات المستكنة في حشايا الجمل بما يتوافق مع طبيعة المعنى والغرض، وبهذا وذاك حصل الترابط، وتحقق

---

(1)ينظر عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د/علي عشري زايد ص ٦١، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م، مكتبة النصر القاهرة.

(2) ينظر لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، د/محمد خطابي ص ٢١-٢٢، كما ينظر التماسك والتناسب، دراسة في بلاغة النص القرآني، د/محمد أحمد أبو عامود صـ ١٨٠.

(3) المعمرون والوصايا ص ٢٨

(4) المرجع نفسه ص ٣٧

(5) المرجع نفسه ص ١٤٢

التماسك، وعلى هذا النحو -أيضًا -يمكن إجراء الموضعين الآخرين في التفصيل والتحليل.

وقد يقع الحذف على المفعول، وتبيان ذلك أن تراجع قول أكثم بن صيفي في وصيته لملك هجر: "وأقل الناس في البخل عذرًا أقلهم تخوفًا للفقر، وأقبح أعمال المقتدرين الانتقام، جاز بالحسنة، ولا تكافئ بالسيئة، فإن أغنى الناس عن الحقد من عظم خطره عن المجازاة " [1]، ولك أن تراجع قول أبي قيس بن صرمة لقومه، وهو مما جاءت فيه الوصاية شعراً:-

يقول أبو قيس وأصبح عاديًا ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا [2]"

فإن تقدير الكلام في الموضع الأول: " جاز الناس بالحسنة، ولا تكافئهم بالسيئة "؛ بدلالة ذكر لفظة "الناس "في الكلام السابق عليه، والكلام اللاحق له، وبهذا جمع الحذف بين أطراف الكلام وشدها بميثاق غليظ ورباط وثيق، من خلال إحالة الجملة موضع الحذف إلى مرجعية قبلية وبعدية [السابق واللاحق]؛ لتقدير هذا المفعول المحذوف.

وتقدير الكلام في الموضع الثاني: ألا ما استطعتم فعله من وصاتي فافعلوا" وهذا من الإبهام على شريطة التفسير الذي يكسب المعنى فخامة ونبلاً، وقوة ووجاهة؛ حيث حذف المفعول أولاً-في جملة الشرط؛ استغناءً بذكره –ثانياً-في جملة الجواب؛ ليحيل الحذف المتلقي في تقدير المحذوف إلى مرجعية بعدية، وقرينة دالة على هذا المحذوف، تمثلت في الجملة اللاحقة، وبهذا التحم الشرط والجزاء، وانصهرا في بوتقة واحدة شديدة التداخل والتآلف.

وقد يتحقق التماسك من خلال حذف الفعل، كالذي في قول أكثم في وصيته لأولاده: "وإنه لا ينفع من الجزع التبكي، ولا مما هو واقع التوقي" [3] وقول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: "وما رأيت شيئاً خلق نفسه، وما رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، وما رأيت جائياً إلا ذاهباً، ولا غانماً إلا خائباً، ولا نعمة إلا ومعها بؤس"[4]وكذلك في قول علي –رضي الله عنه-لأولاده:" انظروا ذوي أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب، والله الله في الأيتام، فلا تغيرن أفواههم بحضرتكم، والله الله في الضَّعيفَّين.....والله الله في القرآن..... والله الله في الصلاة"[5] وهكذا إلى آخر الوصية، وقول المهلب بن أبي صفرة لأولاده: "يا بني قومكم قومكم، إنه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم....."[6] فقد أحال الحذف المتلقي ورده في تقدير الفعل المحذوف في الجملة الثانية من قول أكثم: " ولا مما هو واقع التوقي" إلى الفعل "ينفع" المذكور في الجملة الأولى: " وإنه لا

---

(1) المعمرون والوصايا صـ ٣٥

(2) نفس المرجع صـ ١٦٠، وأبو قيس هذا شاعر جاهلي، عمر طويلاً، وترهب، وفارق الأوثان في الجاهلية، وكان معظماً في قومه، أدرك الإسلام في شيخوخته، وأسلم عام الهجرة /ينظر الأعلام 302/3.

(3)المعمرون والوصايا صـ25

(4)المرجع نفسه صـ82

(5)المرجع نفسه صـ181

(6)المرجع نفسه صـ169

ينفع من الجزع التبكي" الذي يعد مرجعية قبلية، وقرينة دالة على المحذوف في الجملة الثانية؛ ليكون التقدير –حينئذٍ-:"ولا ينفع مما هو واقع التوقي"

وكذلك شأن الحذف في قول عامر بن الظرب تراه قد شد قوله: " ولا غانماً إلا خائباً، ولا نعمة إلا ومعها بؤس" إلى قوله: " وما رأيت شيئاً خلق نفسه-وما رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً-وما رأيت جائياً إلا ذاهباً" وربطه به، وصهره معه في بوتقة واحدة، لأنه ألحقه به، وأحال الفعل المحذوف فيه إلى الفعل "رأى" المذكور في الجملة السابقة؛ ليكون تقدير الكلام: "ولا رأيت غانماً إلا خائباً، ولا رأيت نعمة إلا ومعها بؤس"، وبهذا وقع الحبك والسبك بين أول الكلام وآخره، وارتدَّ آخره إلى أوله.

ولعل سر الحذف ونكتته في الموضعين السابقين تكمن –إلى جانب التعويل على دلالة القرينة-في شدة ظهور الأمر ووضوحه، وأنه ليس بمعرض من الخفاء يقتضي دفعاً أو رؤية مستقلة، وأنه مما لا ينازع فيه، أو يستدرك عليه، وقرينة هذا من المغايرة بين أدوات النفي في الموضع الثاني؛ فإن "ما" دخلت في الجمل الثلاثة الأولى من قول عامر، وهي أقوى في النفي وآكد من "لا" في الجملتين موضع البحث؛ وذلك حسبما قرره النحويون، وفصلوا القول فيه. [1]

وقرينته في الموضع الأول من دخول "إن" في الجملة الأولى" وإنه لا ينفع من الجزع التبكي" وعدم دخولها في الجملة موضع البحث، وذلك في الأولى خاصة جرياً على خلاف مقتضى الظاهر؛ بتنزيل خالي الذهن منزلة الشاك المتردد، أو المنكر الجاحد، فإن كون التبكي لا ينفع من الجزع، ولا يغني عنه مما لا يشك فيه أحد أو ينكره، لكنهم لما تمادوا في غفلتهم عن ذلك، وكثر وقوعهم فيه نزل منزلة الأمر المنكر أو المتردد فيه.

أما الحذف في قول على -رضي الله عنه-: " والله الله في الأيتام..... والله الله في الضعيفين..... والله الله في القرآن..... وهكذا إلى آخر الوصية، والحذف في قول المهلب "يا بني قومكم قومكم" على أن تقدير الكلام في كل" احذروا الله، أو خافوا، أو راقبوا الله في الضعيفين" و"وأكرموا قومكم، أو احفظوا حق قومكم" فليس لهذا المقدر مرجعية لفظية يستند إليها فيه؛ لأن المتكلم أحال المتلقي في ذلك إلى أمر خارجي، يفهم من سياق الكلام، ويستنبط من قرائن الأحوال وملابسات المقام.

وتأكيد هذا أن علياً –رضي الله عنه-بدأ وصيته بأمر ولده بتقوى الله في قوله" أوصيك يا حسن وجميع ولدي، ومن بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربكم" ثم أخذ في تفصيل مفردات هذه التقوى، وعد ما تتعلق به واحدًا وحدًا، ففهم منه أن الفعل المحذوف في كل مواضع الوصية هو من مادة الخوف ووادي المراقبة، وكذلك الشأن في قول المهلب؛ فقد بدأ وصيته بأمر أولاده بتقوى الله وصلة الرحم، وحذرهم من المعصية والقطيعة، وأعقب الجملة موضع البحث بتذكير أولاده بفضل قومهم، وضرورة الاعتراف بحقهم، وهو ما أفهم أن الفعل المحذوف في موضعه

---

(1)ينظر الكتاب لسيبويه 117/3، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي560/1، تحقيق:د/ مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة 1996م، دار ابن كثير. دمشق، ومعاني النحو. د/فاضل السامرائي191/4-193-الطبعة الأولى 2000م، دار الفكر، عمان، الأردن.

من وادي ما قدره البحث؛ لأن قومهم من جملة أرحامهم المأمورين بإكرامهم، وصون حقوقهم، وبهذا بدا أثر الحذف في كل قوياً وظاهراً في سبك الكلم وحبكها، وتماسك النصوص وترابطها.

وأما التماسك بحذف الجملة فيأتي هو الآخر في صورة عدة، وأنماط مختلفة، فقد يكون المحذوف جملة شرطية بأكملها؛ اكتفاءً عنها بأخرى مثلها مذكورة؛ كما في قول أكثم في وصيته لأولاده: " تناءوا في الديار ولا تباغضوا، فإن من يجتمع يتقعقع عمده"[1] وقوله في وصيته ذاتها:" إن كنت نافعي فور عني عينك، إن تعش تر ما لم تر"[2]؛ إذ تقدير الكلام في الموضعين: " ومن لا يجتمع لا يتقعقع عمده- وإلا تعش لا تر شيئاً" وإنما حذف اكتفاءً بذكر مقابله.

وقد يقع الحذف على جملة فعل الشرط وحدها، كالذي في قول أكثم –أيضا-من وصيته للنعمان: " ولا تعاقب على الذنوب إلا بقدر عقوبة الذنب فتكون مذنباً"[3]، وقول دريد بن الصمة في وصيته لقومه: -"ومن أسدى إليكم خيراً فأضعفوه له، وإلا فلا تعجزوا أن تكونوا مثله"[4]؛ إذ تقدير الكلام: "وإن لا تعاقب بقدر الذنب تكن مذنبا-وإن لا تضعفوه له فلا تعجزوا أن تكونوا مثله".

وليس بخاف دور الحذف وأثره في تحقيق التماسك النصي في هذين الموضعين؛ لأنه أحال المتلقي في تقدير هذا المحذوف السابق إلى قوله في الموضع الأول: "إلا بقدر عقوبة الذنب" وقوله في الموضع الثاني: -"فأضعفوه له" الذي مثل في كلا الموضعين مرجعية قبلية، وقرينة لفظية دلت على تداخل الكلام بعضه في بعض، وأخذ بعضه بعناق بعض، في تماسك شديد، وتآلف عجيب.

وإنما حذف الشرط في الموضع الأول، وعطف بالفاء: "فتكون مذنباً" تعجيلاً بالتنفير من التجاوز في العقوبة حد الذنب، وتشهيراً بمن يفعل ذلك، واحترازاً في الموضع الثاني عن إسناد عدم القدرة على الإضعاف إلى قومه على وجه صريح؛ تنزيهاً لهم عن ذلك.

وقد يقع الحذف على جواب الشرط وحده، كالذي في قول دريد بن الصمة في وصيته لقومه: "وإن أجدبتم فلا ترعوا حمى الملوك وإن أذنوا لكم"[5] وقول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: "وعجلت حين عجلتم، ولئن سلمت لا أعود بعدها لمثلها"[6] وقول قيس بن معد يكرب في وصيته لبنيه: " ولا تعطوا الدنية، وإن كان الصبر على خطة الضيم أبقي لكم"[7] وكالذي في قول أبي قيس بن صرمة، وهو مما جاءت فيه الوصية شعراً: -

---

(1)المعمرون والوصايا صـ26

(2) المرجع نفسه صـ26

(3)المعمرون والوصايا صـ37

(4)نفس المرجع صـ41

(5)المرجع نفسه صـ41.

(6)المعمرون والوصايا صـ80.

(7)نفس المرجع صـ149.

وإن طلبوا عرفاً فلا تحرموهم وإن كان فضل العرف فيهم[1]

وقد يقع الحذف على أكثر من جملة، وهذا النوع من الحذوف في وصايا المعمرين من الندرة بمكان، وقد وقفت له فيها على موضع واحد، جاء في قول عامر بن الظرب من وصيته لقومه ليلة عرس ابنته: "أرى أموراً شتى، وشيئاً شيئا، حتى، قالوا: وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حياً، ويعود لا شيء شيئاً، ولذلك خلقت السماوات والأرض، فتولوا عنه ذاهبين"[2]، فإن المتأمل لو راجع الحذف في كل مواضعه السابقة لرأى بالغ أثره في تماسك النصوص، وتعضيد ترابطها وتجانسها؛ من خلال إحالة المتكلم المتلقي ورده في تقدير المحذوف إلى مرجعية سابقة أو لا حقة مذكورة في نسق الوصية، وإن شئت تبيان ذلك فراجع وصية عامر الأخيرة فإنه يظهر فيها أقوى ما يكون الظهور؛ حيث تعانقت فيها الإحالة اللفظية البعدية مع عنصر الإثارة والتشويق، مضافاً إليهما التكرار، على تحقيق هذا التماسك، وتعميق هذا الترابط؛ لأن المتكلم أحال المتلقي في تقدير المحذوف بعد "حتى" في قوله: "أرى أموراً شتى، وشيئاً شيئاً، حتى" إلى مرجعية بعدية، وقرينة لفظية منطوقة في قوله بعد أن سألوه استشرافاً وتشوقاً: وما حتى؟، قال: "حتى يرجع الميت حياً، ويعود لا شيء شيئا، ولذلك خلقت السماوات والأرض"؛ إذ تقدير الكلام بعد "حتى" الأولى: "أرى أموراً شتى، وشيئاً شيئاً، حتى يرجع الميت حياً، ويعود لا شيء شيئا، ولذلك خلقت السماوات والأرض" لكنه حذفه أولاً؛ اكتفاءً بذكره آخراً؛ احترازاً من الترهل، وتحاشياً عن التطويل الذي تتفكك به بنايات التراكيب، ويضيع تماسكها، وتشويقاً إلى المحذوف؛ باستثارة الذهن إلى البحث عنه، وكد النفس إلى الوقوف عليه، وهذا ظاهر جداً من سؤالهم إياه: وما حتى؟

وقريب من هذا النمط السابق في وصية عامر في مأخذه، وإن كان دونه في القوة ما حذف منه جواب الشرط في المواضع التي أوردتها سلفاً؛ إذ تقدير المحذوف في وصية دريد: "وإن أذنوا لكم فلا ترعوا حماهم" بقرينة ذكره قبله في قوله: "وإن أجدبتم فلا ترعوا حمى الملوك"، وتقديره في وصية عامر لقومه: "لا أعود بعدها لمثلها"؛ بدلالة جواب القسم نفسه في قوله: "ولئن سلمت لا أعود بعدها لمثلها"، وتقديره في وصية قيس بن معد يكرب: " وإن كان الصبر على خطة الضيم أبقي لكم فلا تعطوا الدنّية"؛ لذكره في قوله قبله:" ولا تعطوا الدنية وإن كان الصبر على خطة الضيم أبقي لكم"، وأما تقديره في بيت صرمة من وصيته: "وإن كان فضل العرف فيهم فلا تحرموهم"، حيث رد الحذف الأمر في تقدير المحذوف في كل ما سبق إلى مذكور قبله في نسق الوصية، وأرجعه إليه؛ ليمثل هذا الرد نوعاً من أنواع الإحالة اللفظية ذي المرجعية القبلية التي تؤدي بعداً وظيفياً، تتعانق فيه مجموعة من العلاقات النصية على حبك نسيج الكلام وسبك نظمه؛ حيث تلحق الآخر بالأول، وترده إليه، وتجعل الأول بسبب موجب من الثاني، ومرتبط به،

---

(1)نفس المرجع صـ160.
(2)المرجع نفسه صـ82.

وتثير الذهن، وتطري النشاط، وتوقظ الإصغاء نحوه، وبهذا وذاك يتماسك الكلام، ويدخل بعضه في بعض على وجه من القوة والإحكام، والصنعة والإتقان.

"الصورة الخامسة"

التماسك النصي بأسلوب السجع

السجع من أبرز فنون البديع اللفظي، وأكثرها دورانًا واستعمالًا، وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على روي واحد[1]، وهو من الفنون التي تعمد إليها النفوس بالفطرة؛ لما يحدثه من النغمة المؤثرة، والموسيقى العذبة الأخاذة التي تؤثر في النفوس تأثير السحر، وتقع في القلوب موقع القبول والاستحسان.

ويعد السجع من وسائل التماسك النصي، والترابط الدلالي الذي يؤلف بين أنساق الكلام، ويقوي أواصر الصلة بين أجزائه وعناصره، ويشد حبال المودة التي تجمعها، وتصل بين بعضها بعضا.

والسجع إذ يضطلع بهذه المهمة الكبيرة، والغاية الجليلة إنما يرتكز في ذلك على ثلاثة أبعاد لا ينفصل أحدها عن الآخر، وإنما تتكامل وتتعاقب على تحقيق هذه الغاية والوفاء بهذا المطلب، الأول: بعد لغوي، تكشف عنه دلالة المصطلح اللغوية؛ فقد ذكروا أن السجع في اللغة مأخوذ من سجع الحمام، إذا هدل على جهة واحدة، وسجع الحمامة موالاة صوتها على طريق واحد، وسجعت الناقة: مدت حنينها على جهة واحدة، ويقال: سجع يسجع سجعا: استوى واستقام، وأشبه بعضه بعضا، وأصل السجع القصد المستوي على نسق واحد[2]؛ وهذه الدلالات اللغوية تعكس بوضوح دور السجع في حبك النصوص، وإحكام نسيجها البنيوي وتماسكه؛ إذ يقتضي تحققها في الواقع ويستلزم التكرار أو الترديد، وهذا الوجه يتجلى بوضوح – أيضا– في التعريف المصطلحي السابق.

الثاني والثالث: بعد بنيوي تركيبي، وبعد إيقاعي صوتي؛ إذ ينهض السجع في هذين البعدين، ويقوم على وحدات نصية متوازية القرائن، متجانسة الفواصل؛ فالأسلوب في الغالب – مقسم إلى فقرات متساوية في العدد، ومقاطع متشابهة في الصياغة، وفواصل متماثلة في الوزن والتقفية، وهو ما يحدث نغمًا موسيقيًا أخاذا، وجرسًا صوتيًا قويًا ومؤثرًا، بناء وفعالًا، وهذان وذاك يؤديان – لا محالة إلى ربط الكلام، وتلاحم عناصره، وتماسك بنائه، ولذلك يقول حازم في إطار حديثه عن التلاؤم: " والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء... ومنها أن تتناسب بعض صفاتها مثل أن يكون إحداهما مشتقة من الأخرى مع تغيير المعنيين من جهة أو جهات أو تتماثل أوزان الكلم أو تتوازن مقاطعها "[3] ويقول في موضع آخر: " فمن حسن الوضع اللفظي أن يؤاخي في الكلام بين كلم تتماثل في مواد لفظها أو في صيغها أو

---

(1) الإيضاح للخطيب القزويني صـ222.

(2) ينظر لسان العرب لابن منظور، سجع 1944/3.

(3) ينظر منهاج البلغاء لحازم صـ22، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الثانية 1981م، دار الغرب الإسلامي، تونس.

في مقاطعها فتحسن بذلك ديباجة الكلام، وربما دل بذلك في بعض المواضع أو الكلام على آخره "[1].

وإنما كان ذلك كذلك؛ لأن هذه الأبعاد الثلاثة تشكل في النهاية صورة من صور الإحالة والتماسك في النص؛ إذ يحيل السمع القرينة اللاحقة من قرائن السجع إلى القرينة السابقة المتفقة معها وزنًا وتقفية، المتوازية معها مقطعا وهيئة، ويلحقها بها، ويردها إليها، وبهذا يبدو آخر الكلام مشدودًا إلى أوله، وأوله منسجما مع آخره تركيبًا وإيقاعًا، هيئة وعددًا، قافية ووزنًا، وهذا هو جوهر التماسك، وحقيقة الترابط.

ولهذا أيضا كان السجع المرصع هو أدخل أنواع السجع في هذا الباب، وأمسها رحمًا بهذه القضية؛ لظهور التناسب التام بين جميع ألفاظه وقرائنه.

وقد بدا أثر السجع في وصايا المعمرين واضحًا في ربط معاقد وصاياهم، وشد مفاصلها، وذلك حين اتكأ عليه كثير منهم في بناء وصاياهم، حتى شكل سمة رئيسة في بعض هذه الوصايا، ولا أدل على ذلك من وصية أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها في ليلة زواجها، قالت: "أي بنية، إن الوصية لو تركت لعقل وأدب، أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك، ولزويته عنك، ولكن الوصية تذكرة للعاقل، ومنبهة للغافل.

أي بنية، إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عن الزوج، ولكن للرجال خلق النساء، كما لهن خلق الرجال.

أي بنية، إنك قد فارقت الجواء[2] الذي منه خرجت، والوكر الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه... واحفظي عني خصالا عشرا، تكن لك دركا وذكرا؛ فأما الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة، فإن في القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب؛ وأما الثالثة والرابعة: فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح؛ واعلمي، أي بنيّة، أن الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود.

وأما الخامسة والسادسة: فالتَّعهد لوقت طعامه، والهدوّ عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النَّومة مغضبة؛ وأما السابعة والثامنة: فالاحتفاظ بماله والرعاية على حشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير؛ وأما التاسعة والعاشرة: فلا تفشي له سرا، ولا تعصي له أمرا، فإنك إن أفشيت سرّه لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، واتّقي الفرح لديه إذا كان ترحا، والاكتئاب عنده إذا كان فرحا، فإن الأولى من التقصير، والثانية من التكدير... "[3]، فقد تركبت هذه الوصية من عدد من الوحدات النصية القصيرة التي تكاملت فيما بينها وتآلفت، حتى شكلت وحدة نصية كلية، يجمعها إطار عام، ويحوطها سياج واحد، وقد أودعتها الأم عصارة خبرتها في الحياة، وزودتها بها ابنتها، وأهدتها إياها في ليلة عرسها.

---

(1) ينظر المرجع نفسه صـ224.

(2) الجواء: الموضع من الأرض، والفرجة من بين بيوت القوم/لسان العرب، جوا1/734 وما بعدها.

(3) المعمرون والوصايا صـ141، 142.

وقد انتظمت كل وحدة من هذه الوحدات عدة قرائن، جاءت كل قرينتين منها متوازيتين على سجعة مخصوصة، فتكونت الوحدة النصية الأولى من ست قرائن، خرجت الأولى منها والثانية مقفاة بروي الباء، على هذا النحو: " إن الوصية لو تركت لعقل وأدب – أو مكرمة في حسب "، وتبهرجت الثالثة والرابعة في صورة مسجوعة على روي الكاف، هكذا: " لتركت ذلك منك، ولزويته عنك" كما جاءت الخامسة والسادسة على روي اللام: " ولكن الوصية تذكرة للعاقل – ومنبهة للغافل "، وهكذا برزت سائر الوحدات النصية في الوصية متوازية، من أولها إلى آخرها؛ حيث ارتبطت كل قرينتين فيها، وائتلفتا من خلال سجعة مخصوصة، اتفقت فاصلتاها في جميع المواضع وزنا وتقفية، مع التنبه إلى أن هذا الاتفاق قد يمتد ويتسع ليشمل كل عناصر القرينتين، أو أكثرها، وقد لا يمتد؛ لتتعانق كل هذه المقاطع المسجوعة، والقرائن النصية المتوازية في هيكل الوصية وبنايتها، وتتضافر مع روابط أخرى – من اللف والنشر، والتقسيم والإيضاح بعد الإبهام – إلى تعميق وحدة هذه الوصية، وتأكيد ترابطها، وشد مفاصلها، واتصال أجزائها وعناصرها، وتنبئ عن مدى وفائها بالمعنى والغرض، وغاية موافقها للمقام، ومطابقتها لمقتضى الحال، وذلك من خلال ما نشأ عن هذا التوازي من إيقاع موسيقي أخاذ، وجرس صوتي متناغم، ومن خلال عنصر الإحالة الذي نشأ هو الآخر من تناسب الإيقاع في السمع، وتوازي الفقرات في النطق؛ حيث يحيل السمع فاصلة القرينة اللاحقة ويردها إلى نظيرتها في القرينة السابقة، المتفقة معها في الوزن والتقفية، ويلحقها بها، وبهذا تبدو الوصية بناء نصيا متماسكا، ونظاما تركيبيا متجانسا، من حيث الهيئة والعدد، ومن حيث التركيب والإيقاع، والوزن والقافية، ولعل تضافر كل هذه الوسائل في نسق الوصية هو ما كتب لها البقاء والخلود، والذيوع والانتشار، والعلوق بالقلب، والتمكن من العقل والوجدان، فأثمرت ثمرتها، وآتت أكلها، وهذا ما نطق به الواقع، وشهد به التاريخ؛ فقد غلب أمر هذه البنت الراجح عقلها على زوجها، وولدت منه سبعة أملاك، كلهم قد ورث الملك بعد أبيه.

وعلى هذا النحو الذي خرجت مخرجه وصية أمامه، من الجمع بين كل قرينتين، والربط بينهما، والشد على وثاقهما في سجعة واحدة اتفقت فاصلتاها في الوزن والتقفية، جاءت وصية سعد العشيرة لبنيه، " يا بني، اتقّوا إلهكم بالليل والنهار، وإيّاكم وما يدعو إلى الاعتذار، ودعوا قفو المحصنات تسلم لكم الأمهات، وإياكم والبغي على قومكم تعمر لكم الساحات، ودعوا المراء والخصام تسلم لكم المروءة والأحلام، تحبَّبوا إلى العشائر تهبكم العمائر، وجودوا بالنوال تنم لكم الأموال، وإياكم ونكاح الورهاء[1] فإنها أدوأ الداء، وأبعدوا من جار السوء داركم، ومن قرين الغيّ مزاركم " [2]، وغير هذا مما جمع فيه قائله بين كل قرينتين، وشد وثاقهما إلى بعضهما في سجعة متوازية الفقرات، واتفقت فاصلتاها وزنًا وتقفية؛ لتحيل كل

---

(1) الورهاء: يقال: امرأة ورهاء اليدين، خرقاء بالعمل/لسان العرب، وره،4820/6.

(2) المعمرون والوصايا صـ144، 145، وسعد العشيرة هو ابن مالك بن أدد من كهلان، جد جاهلي، وسمي سعد العشيرة؛ لأنه كان يركب ومعه أبناؤه، وأبناء أبنائه، ونحو مائة رجل، فإذا سئل عنهم يقول: هؤلاء عشيرتي/ينظر الأعلام للزركلي 85/3-86.

لاحقة منها إلى سابقتها، وتلحقها بها؛ لتخرج الوصية في شكلها النهائي متسقة الأركان، متساوقة المقاطع، متشابكة الأطراف، وهذا هو جوهر التماسك، وحقيقة الترابط.

وقريب من السجع في نهجه في الربط بين عناصر الكلام، وتحقيق التماسك النصي بين أركانه أسلوب الجناس، وذلك لأمرين، الأول: أنه يمثل وجها من وجوه الإحالة النصية؛ باعتباره صورة من صور التكرار والإعادة؛ حيث يرتد الذهن سريعًا عند سماع الطرف الثاني من أطراف الجناس إلى الطرف الأول، ويتجه نحوه، ويستدعي الذهن الطرف الثاني عند سماع الطرف الأول، على نحو من التبادلية الحركية الفاعلة التي تمسك بأعنة الكلام وأزمته، ولذلك يقول عبد القاهر: " واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنيس، وجعلتها العلة في استجابة الفضيلة، وهي حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة، وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذي لا يمكن دفعه إلا في المستوفي المتفق الصورة منه، كقوله:

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله

أو المرفو الجاري هذا المجرى، كقوله: أو دعاني أمت بما أودعاني، فقد يتصور في غير ذلك من أقسامه، فمما يظهر ذاك ما كان نحو قول أبي تمام: -

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب"[1]

الثاني: ما بين طرفيه من المماثلة الشكلية، والمجانسة اللفظية التي تنهض على عنصر المخادعة والمخاتلة، والمفاجأة والمباغتة؛ حيث يتوهم المتلقي أن الطرف الثاني من الجناس هو نفسه الطرف الأول، وأن اللفظ في الثاني هو نفسه اللفظ في الأول، وقد جاء مقررًا ومؤكدًا له، إلا أنه حين يستكمل عملية الاستقبال؛ سماعًا أو قراءة، ويعود إلى السياق يفاجأ بغير ما توقع، وينصرف عنه ظنه الأول، ويزول عن تخيله السابق، ويرى أن الثاني غير الأول، يقول عبد القاهر: ".... وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من [عواصم] والباء من [قواضب]، أنها هي التي مضت، وقد أرادت أن تجيئك ثانية، وتعود إليك مؤكدة، حتى إذا تمكن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنك الأول، وزلت عن الذي سبق من التخيل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال"[2]

غير أني لم أشأ أن أفرد للجناس عنوانًا في هذا البحث؛ لفرط ندرته في وصايا المعمرين، فلم أتمكن من الوقوف على مواضع له إلا نادرًا جدًا؛ كقول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: " ولا تشتموا بالذلة، وبكل عيش يعيش الفقير" [3]، وكقول أسيد بن أوس التميمي للحارث بن الهبولة الغساني يستمده في الحرب: " وخير الثواب الشكر، وخطل القول عورة، وبالمرسَل يعتبر المرسِل "[4]، وكقول أبي بكر – رضي الله عنه – في وصيته لعمر – رضي الله عنه – " وذكر آية

---

(1) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني صـ17، 18، تحقيق ه. ريتر، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

(2) أسرار البلاغة صـ18.

(3) المعمرون والوصايا صـ74.

(4) المرجع نفسه صـ95.

الرحمة وآية العذاب؛ ليكون العبد راغبًا راهبًا لا يتمنى على الله غير الحق"[1]، وقول علي – رضي الله عنه – في وصيته للحسن – رضي الله عنه – وسائر أولاده معه: " عليكم يا بني بالبر والتواصل والتبار"[2]، إلا أنه لم يكن ذا أثر مؤثر في عملية الربط والتماسك؛ لوقوعه في حيز تعبيري ضيق، لا يمتد امتداد السجع، أو يبلغ مبلغه في هذا الشأن، اللهم إلا في وصية أبي بكر – رضي الله عنه -؛ لتعانق اللف والنشر معه على تحقيق هذه الغاية، وتلبية هذا المطلب.

(1) المرجع نفسه صـ178.
(2) المرجع نفسه صـ181.

"الصورة السادسة"

التماسك النصي برد الأعجاز على الصدور

رد الأعجاز على الصدور من الفنون البلاغية المعدودة في البديع اللفظي، وهو – في النثر – أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين، أو الملحقين بهما في أول الفقرة، والآخر في آخرها[1].

والذي يبدو للناظر من تأمل التعريف السابق أن هذا الفن من أنماط الكلام التي يتحقق بها عنصر التماسك النصي، وتمثل وسيلة من وسائل الترابط في النسيج البنيي للتراكيب اللغوية؛ من خلال علاقة الإحالة التي تمزج بين عناصر الكلام، وتؤلف بينها؛ حيث يحصل الارتداد بين المقطع والمطلع، والبداية والنهاية، ويحيل المقطع إلى المطلع، ويحمل عليه؛ بإعادة توظيف كلمة أو معنى، فيبدو النص وكأنه دائرة مغلقة، تبدأ من حيث تنتهي؛ لأن هذا الفن يمثل-في جوهره-صورة من صور التكرار والإعادة، لكنها – على كل حال – إعادة مشروطه بالإفادة، أو إفادة في صورة الإعادة[2].

وهذه السمة الترابطية الموجودة في رد الأعجاز على الصدور لم تكن في حال بخافية على علمائنا، ولا غائبة عنهم؛ فقد أشار إليها عبد القاهر، ونادى عليها وهو يحلل قول الله تعالى: " وقيل يا أرض ابلعي ماءك...." [هود: 44]، ويبين وجه إعجازه الذي تمثل جانب منه في ترابط أجزاء الكلام داخل الآية بعضها ببعض عن طريق هذه العلاقات النصية، وأن ما عرض للآية من الحسن والشرف إنما كان من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وعد من مقومات هذا الترابط والتلاقي في الآية الكريمة مقابلة: " قيل " في الخاتمة، وردها إلى " قيل " في الفاتحة" [3].

وهذا النمط من الروابط والعلاقات النصية قليل الدوران جدًا في وصايا المعمرين؛ إذ لم أقف له فيها إلا على عدة مواضع، كان من أظهرها دلالة ما جاء في وصية أكثم بن صيفي لبني تميم يوم الكلاب، حيث سارت إليهم مذحج، قال في أولها: " استشيروا وأقلوا الخلاف على أمرائكم " وختمها بقوله: " ولا جماعة لمن اختلف"[4]

وما جاء في وصية هبيرة بن صخر الكلبي لبنيه وعشيرته: " يا بني وعشيرتاه، أوصيكم بتقوى الله، والصبر على المضض، ففيه الفوز" وآخرها: "إن المعسكر لمن صبر"[5].

وقول المهلب بن أبي صفرة لبنيه: " أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم..."[6]، وآخرها: " فإني قد أبلغت إليكم الوصية، واتخذت الله عليكم حجة".

---

(1) شروح التلخيص 4/ 433-434 دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

(2) ينظر الأطول للعصام 460/2، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى 2001م، دار الكتب العلمية، بيروت، كما ينظر التماسك والتناسب. دراسة في بلاغة النص القرآني. د/ محمد أبو عامود صـ91.

(3) ينظر دلائل الإعجاز صـ45، 46.

(4) المعمرون والوصايا صـ28.

(5) المرجع نفسه صـ153.

(6) المرجع نفسه صـ169-171.

وما جاء في وصية عمر – رضي الله عنه – للخليفة من بعده[1]، وهي واسطة العقد في هذه الوصايا، حيث أولها قوله: " إن عمر يقرئك السلام، ويوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له، ويوصيك بالمهاجرين والأنصار... " وآخرها قوله: " هذه وصيتي إياك، وأشهد الله عليك، وأقرأ عليك السلام "، فهذه الوصايا وغيرها مما جاء على لفقها وشكلها قد ختمت بما بدأت به، وانتهت بما عقد عليه مطلعها، من خلال تكرار لفظة أو ومعنى وإعادته.

فعمر –رضي الله عنه– ختم وصيته بقوله: "هذه وصيتي إياك، وأقرأ عليه السلام"، وهما ذات الجملتين اللتين بدأ بهما وصيته، فقد بدأ وصيته بقوله: " إن عمر يقرئك السلام، ويوصيك بتقوى الله"؛ ليصور ختم الكلام بما بدأ به عمق الصلة، وقوة الرباط، وشدة الاتصال في نسق هذه الوصية ومعاقدها، وأن ثمت حركية دلالية فاعلة وممتدة، نشأت من ارتداد الختم إلى المطلع ورجوعه إليه، وإحالته عليه، بعدما حصر المتكلم بين جنبات وصيته رسائل ومضامين، تبعث المتلقي مرة ثانية وثالثة ورابعة إلى تأملها، وتؤزه بقوة إلى الوقوف على تلك المفارقات والإضافات التي تلاقحت من غلق الوصية وقفلها بما استهلت به.

ومن وجه آخر: فإن وراء ختم عمر – رضي الله عنه – وصيته بما بدأها به، وإعادة نهايتها إلى بدايتها من شعور بالرضا، وإحساس بالراحة غمر قلبه ووجدانه؛ لعبء كبير قد ألقاه عن كاهله، وثقل ثقيل لطالما أقض مضجعه، وناء بحمله قد طرحه عن صدره، ودلالة على بالغ العناية والاهتمام، وفرط التودد والتلطف، وشدة الحرص على أن تنزل وصيته من السمع والقلب منزلها.

وكذلك الشأن في وصية هبيرة بن صخر الكلبي؛ فقد عقد الرجل لواءها في مستهلها على الصبر: " أوصيكم بتقوى الله والصبر على المضدد، ففيه الفوز"، وعقد لواءها في آخرها – أيضا – على الصبر: " إن المعسكر لمن صبر"، كما علق الفوز والظفر في أولها وآخرها عليه – أيضا -، وكأن التركيز على الصبر في البدء والختام، وشد معاقد الوصية إليه هو الذي ينبئ عن أن الصبر هو المعنى المحوري الذي تدور عليه الوصية، وأن ما حوته بين جنباتها من رسائل أخرى تدور في فلكه، وتسعى في خدمته، وبهذا صارت الوصية لحمة واحدة، ووحدة نصية متماسكة، وإن شئت أن أقيم لك دليلًا على ذلك فراجع معاقد الوصية الأخرى ومعانيها: " حافظوا على الحرم؛ فإن الهلاك في الغفلة عنها، والفشل في التخاذل"، وغير ذلك مما يستلزم الصبر ويقتضيه؛ إذ لا سبيل إليه إلا من طريقه، وعلى هذا النحو في البيان والتحليل تجري الوصايا الأخرى، ما ذكرته منها وما لم أذكره، مما برز في معرض هذا النمط ولباسه، والله المستعان.

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ 235/2، 236، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت 1968م.

"المحور الثالث"
"التماسك النصي بأساليب التناسب"

يختص هذا المحور بدراسة التماسك النصي في وصايا المعمرين بأدوات ووسائل لا تجمعها علاقة رابطة واحدة، وإنما تتعدد علاقاتها الآخذة بعناق الكلام، الممسكة بأجزائه وعناصره، وتتنوع على نحو من التناسب، ووجه من أوجه التلاؤم بين السابق واللاحق، والبداية والنهاية.

وهذه الوسائل كثيرة ومتنوعة، ومن أبواب مختلفة، وقد بلغت أحد عشر أسلوبًا أو أكثر، ابتداء بأساليب الفصل والوصل، ومرورًا بأساليب: الحوار، وذكر الخاص بعد العام وعكسه، والتذييل، والشرط والجزاء، والتعليل، والطباق والمقابلة، ومراعاة النظير، والعكس البلاغي، والاستطراد، وانتهاءً بالإرصاد أو التسهيم؛ لتمثل هذه الأساليب صور الدراسة في هذا المحور بمشيئة الله تعالى.

الصورة الأولى
التماسك النصي بالفصل والوصل

يعد باب الفصل والوصل أهم الروابط النصية في إظهار العلاقات القائمة بين الجمل بعضها ببعض، وأقواها في تحقيق التلاحم والتآلف، والتوافق والانسجام داخل الغرض الواحد، حتى يصير الكلام وحدة نصية متماسكة، شديدة الالتئام، وتسهم في الوفاء بالمعنى، وتصوير الغرض والمقام.

ومنشؤ هذا التماسك وعلته من أن الفصل والوصل يقوم البعد الوظيفي له في الأصل على النظر في الكلام على أساس العلاقة والوشيجة التي تربط بين جمله وعباراته، سواء أكانت هذه العلاقات الرابطة منطوقة أو مفهومة، لفظية أو معنوية.

وانطلاقا من ذلك فارتباط الكلام عن طريق الفصل والوصل إما أن يكون ظاهرا وقويا؛ لفرط تعلق الكلام واتصال بعضه ببعض، وشدة تداخله وتعانقه، حتى كأن الثاني هو عين الأول أو قريبا منه، أو على النقيض منه.

وإما أن يكون التعلق غير ظاهر؛ لخفاء المناسبة أو الجامع نوعا من الخفاء، فحينئذ لا بد لتماسك الكلام بعضه ببعض من رباط لفظي يجمع شتاته، ويضم متفرقه، وهذا الرباط يتمثل في العطف بأحد حروف العطف المعروفة، وهو في باب الفصل والوصل -الواو خاصة-؛ إذ هي التي يدور عليها حديث البلاغيين عن الوصل في كتب البلاغة، وعليها يعول في تماسك النص والربط بين مستوياته، وجمع الخيوط التي تبدو متبعثرة في الظاهر، ولا توجد بينها -في بادئ النظر- علاقات معنوية، ورفئها، لما فيها من خاصية التشريك في الحكم والجمع بين أمرين يبدو بينهما التغاير.

وهذا لا يفهم منه أن ثمت انفصاما تاما وتغايرا كاملا بين الجملة المعطوفة، والجملة المعطوف عليها بالواو، بل لا بد من نوع مناسبة وجهة جامعة تربط بين المتعاطفين على نحو ما، وإلا عد الكلام معيبا، متدابرا ونشازا، وإن بدا على خلاف ذلك؛ ولذلك عابوا على أبي تمام قوله:

لَا والَّذى هُوَ عالمٌ أنَّ النَّوَى... صَبِرٌ وأنَّ أَبَا الحَسَيْن كريمُ [1]

لانفصام عرى الكلام وتباينها تبابنا تاما؛ لعدم وجود أدنى مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ولا تعلق من وجه لأحدهما بالآخر وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك. [2]

كما لا يعني هذا -أيضا -أن هناك تقابلا وتضادا إلى حد الانفصام بين مصطلحي الفصل والوصل، وإنما يتكاملان ويتعانقان على تحقيق التماسك، وربط الكلام، وشد معاقده، فالفصل في حقيقته إن تأملته ربط ووصل معنوي، كما لا يخلو العطف بالواو من تلك الصلة، وذاك الارتباط المعنوي، وإن بدا غير ظاهر، ولذلك عرف بعض البلاغيين الوصل بأنه: ربط معنى بمعنى لغرض بلاغي. [3]

وخلاصة هذا أن العلاقة التي تجمع بين كلامين على طريق الفصل والوصل هي علاقة التناسب، سواء أكانت لفظية بإحدى أدوات العطف (الواو خاصة)، أم معنوية، كأن تكون علاقة توكيد، أو تفسير، أو سببية، أو رفع إيهام، أو تضاد، أو غير ذلك من العلاقات التي يجمعها وجه مناسبة.

وحين نأخذ تطبيق هذا المعيار على وصايا المعمرين فإنك لن تجد كلامين، أو جملتين في وصية من هذه الوصايا إلا وتتماسكان وترتبطان عن طريق الفصل والوصل؛ لأنهما إما معطوفتان، وإما غير معطوفتين، وإن بدا الوصل عن طريق العطف بالواو هو السمة الأظهر شهرة، والخصيصة الأكثر دورانا واستعمالا في هذه الوصايا.

ويكمن السر في ذلِكَ أنك قد تجد في حوايا الوصية الواحدة ألفافا من المعاني قد تبدو منفكة في بادئ النظر، ولا تجمعها مناسبة؛ لذا كانت الواو العاطفة هي الأسعف مراما في الجمع بين المعنيين وضمهما والعمل على تماسكهما وترابطهما.

وليس المجال هنا مجال حصر مواضع كل من الأسلوبين أو جمعه؛ لاستحالة ذلك أو بعده من الإمكان، وتجشم ذلك هنا ضرب من العي والملاحاة لا وجه له، وإنما نأخذ بعض المواضع الخاصة بكل واحد منهما، ونحللها على هذا المقياس، ونقومها على ذلك الضابط، لاسيما أنه قد سبق تفصيل حديث التماسك في العطف بالواو بين المفردات والجمل التي لها محل من الإعراب في محور العطف.

فمن مواضع الوصل بالواو في الجمل المستأنفة التي لا محل لها في نسق هذه الوصايا قول عامر بن الظرب في وصيته لقومه بني عدوان: " يا معشر عدوان ربوا صغيركم، واعتبروا بالناس، ولا يعتبر الناس بكم، وخذوا على أيدي سفهائكم تقلل جرائركم، وإياكم والحسد فإنه شؤم ونكد"[4] " فإنك واجد في النص السابق عدة جمل لا محل لها من الإعراب وقد أخذ بعضها بعناق بعض، فعانقت جملة: "واعتبروا بالناس" جملة: "ربوا صغيركم، وعانقت جملة:" ولا يعتبر بكم الناس"

---

(1)البيت في ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي 160/2، تحقيق: راجي الأسمر، الطبعة الثانية 1994م، دار الكتاب العربي، بيروت.

(2) ينظر دلائل الإعجاز صـ 225.

(3)الفصل والوصل في القرآن الكريم، دراسة في الأسلوب، د/ منير سلطان، صـ 31، الطبعة الثانية 1997م، منشأة المعارف، مصر، كما ينظر كتاب التماسك والتناسب، دراسة في بلاغة النص القرآني، د/محمد أحمد أبو عامود، ص 121.

(4)المعمرون والوصايا صـ 36.

جملة:" واعتبروا بالناس "، وأخذت جملة:" وخذوا على أيدي سفهائكم... " بحجز جملة:" ولا يعتبر بكم الناس " وهكذا: " وإياكم والحسد..." مع جملة: " وخذوا على أيدي سفهائكم..." وكل ذلك عن طريق الواو العاطفة التي جمعت بين هذه الجمل على هذا النحو من الترابط والتماسك.

وقد عمق من هذه الصلة، وضاعف من قوة الترابط والتلاحم اتحاد المسند إليه الذي يجسد فيها جميعاً وحدة الخطاب وتعيينه، وكذا اتفاقها في الإنشائية لفظا ومعنى، مع وجود المناسبة التي تجمع بينها؛ والتي تقوم على علاقة التقابل أو التضاد، إذ يرتكز الخطاب في هذه الوصية على الجمع بين ثنائيات متضادة: هي الترغيب والتحذير، والجمع في بعضها بين فعلي مصدر واحد، أحدهما أمر والآخر نهي، فبينهما توسط بين الكمالين.

ومن وجه آخر: فإن العطف بالواو بين هذه الجمل هو الذي يؤذن باستقلالية كل واحدة منها في الوصية، وكفايتها فيها، كما ينبئ عن تساويها جميعاً في الأهمية والاعتبار.

وشبيه بالموضع السابق قول المنذر بن ماء السماء[1] في وصيته لابنه النعمان: "إن لك عقلاً وجمالاً ولساناً، فاكتس من ثناء الناس ما يؤيد جمالك، ودع الكلام وأنت عليه قادر، وليكن لك من عقلك خبيئ تدَّخره أبدًا ليوم حاجتك"[2] فإنك واجد في هذه الوصية ثلاث جمل قد تعانقت فيما بينها بالواو، فعطفت جملة "ودع الكلام وأنت عليه قادر" على جملة "فاكتس من ثناء الناس ما يؤيد جمالك"، وتعانقت جملة "وليكن لك من عقلك خبيئ تدَّخره أبداً ليوم حاجتك" مع جملة "ودع الكلام" ليحمل هذا تناسبًا بين المعاني، وتماسكاً بين الجمل وتآلفها داخل النسق، وقد نشأ هذا من وجود المناسبة، واقترانها بالجامع العقلي الذي تمثل في اتحاد المحدث عنه في الجمل الثلاث، مع اتفاقها في الإنشائية لفظاً ومعنى.

وقد تتفق الجملتان في الخبرية لفظاً ومعنى، أو في الخبرية لفظاً والإنشائية معنى، وقد جاء النمطان معاً في سياق واحد في وصية المهلب بن أبي صفرة[3] لبنيه، قال: "أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم؛ فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال، وتجمع الشَّمل، وتكثر العدد، وتعمر الدار، وتعزّ الجانب، وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم؛ فإن معصية الله تعقب النار،

---

(1) المنذر بن امرئ القيس بن النعمان (الملقب بابن ماء السماء) أحد ملوك الحيرة، توفي نحو 60 قبل الهجرة، أمه هي ماوية بنت جشم وقد سميت بماء السماء لجمالها وحسنها. ينظر الأعلام للزركلي 292/7.

(2)المعمرون والوصايا صـ 146.

(3) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكيّ، أبو سعيد: أمير، بطاش، جواد، قال فيه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق. ولد في دبا، ونشأ بالبصرة، وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر. وولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير. وفقئت عينه بسمرقند، وتوفي 83هـ. ينظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت: 681هـ)، 350/5، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت. وتهذيب الكمال في أسماء الرجال ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (ت: 742هـ)،8/29، تحقيق/ د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، 1400 – 1980م، والأعلام 7/ 315.

وإن قطيعة الرحم تورث القلّة والذلة، وتفرق الجمع، وتدع الدار بلاقِع "[1] حيث عطفت جملة "وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم" على جملة "أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم" بالواو؛ لوجود المناسبة والجامع، فبينهما توسط بين الكمالين؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظاً، والإنشائية معنى؛ لأن الأولى منهما في معنى" اتقوا الله وصلوا الرحم" والثانية منهما في معنى: " انتهوا عن معصية الله وقطيعة الرحم " وإن كان اللفظ لفظ الخبر، والعلاقة التي تسوغ الربط بينهما بالواو، هي علاقة التقابل والتضاد بين مضمون: "أوصيكم" وصريح "أنهاكم" وبين "تقوى الله وصلة الرحم"، و" معصية الله وقطيعة الرحم" مع اتحاد المسند إليه فيهما، وتماثلهما أو تناظرهما في بعض القيود المتعلقة بهما.

كما عطفت جملة: " وإن صلة الرحم تنسئ الأجل..." على جملة " فإن تقوى الله تعقب الجنة" وجمع بينهما بالواو، وعطفت جملة: "وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذلة" على جملة: "فإن معصية الله تعقب النار" بالواو-أيضاً -؛ لوجود المناسبة التي تسوغ العطف، والجامع الذي يربطهما؛ فالجملتان متفقتان مع ما قبلهما في الخبرية لفظاً ومعنى، والعلاقة التي جمعت بينهما، ومازجت بين عناصرهما علاقة عموم وخصوص، والتي تستلزم دخول أحدهما في الآخر؛ لكونه جزءاً من أجزائه؛ فصلة الرحم فرد من أفراد التقوى، وقطيعة الرحم فرد من آحاد المعصية، ولا شك في أن إخراج النسق مخرج العموم والخصوص لمما يثري الدلالة ويعمقها، ويزيد من تماسك النص وترابطه؛ لدخول الثاني منهما في الأول، أو العكس، وإحالة الثاني منهما إلى الأول في المعنى.

أما ما عطف عليهما في الموضعين من جمل؛ كقوله في الوصية الأولى: " وإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل"، وقوله في الوصية الثانية: "وإن قطيعة الرحم تورث الذلة والقلة-وتفرق الجمع..." فهو بالغ في التماسك الغاية؛ إذ هو محمول على إرادة التشريك في الحكم، وإحالة الثاني إلى الأول، والثالث إلى الثاني في الإعراب؛ لأن لهذه الجمل المتعاطفة محلاً من الإعراب، ومن ثم كان حكمها حكم المفرد في التماسك والارتباط.

وغير هذا مما كانت وسيلة الربط والتماسك بين العناصر فيه هي الواو كثير جداً، لكن اللافت للنظر في المواضع والأمثلة المذكورة، وفي غيرها الأكثر مما لم نذكره أن العطف بالواو بينها كان للتوسط بين الكمالين خاصة، مع عدم وجود المانع، دون مسوغ الوصل الآخر، وهو كمال الانقطاع مع الإيهام؛ إذ لم يرد هذا النمط الأسلوبي في سياق هذه الوصايا أصلاً، وذلك راجع في نكتته وسره إلى كثرة أوجه المناسبة، وتنوع الجامع، وتعدد العلاقات الرابطة بين الطرفين في التوسط بين الكمالين وثرائها، كالاتفاق في الخبرية أو في الإنشائية لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، واتحاد المسند إليه، وتوحد جهة الخطاب وتعينها، ووجود العلاقة والجامع، بخلاف كمال الانقطاع مع الإيهام فإن له صورة واحدة، حسبما هو مفصل في كتب البلاغة.

أما تحقق التماسك النصي عن طريق الفصل [الوصل المعنوي] بين الجمل، وعدم عطف بعضها على بعض بأداة من أدوات العطف [الواو خاصة]، فهو قليل

---

(1)المعمرون والوصايا صـ169.

جداً بالقياس إلى مواضع الوصل التي تبدو السمة الأبرز، والأكثر شيوعاً وانتشاراً، ودوراناً في هذه الوصايا.

ومن وجه آخر: فإن خاصية التماسك النصي، والترابط الأسلوبي لا تتأتى في كل صور الفصل المعول عليها في كتب البلاغة، وعلى النحو الذي ذكروه فيها خاصة، وإنما تتحقق في صورتين اثنتين فقط: هما، كمال الاتصال، وشبهه، مع ضرورة اللفت إلى أن بعض البلاغيين حمل صور الفصل الأخرى على هاتين الصورتين، وجعلها منهما.

أما كمال الاتصال فنادر جداً، وأكثر مواضعه في هذه الوصايا من الصورة التي تنزلت فيها الجملة الثانية منزلة التوكيد من الأولى.

وهنا يبدو وجه التماسك والترابط بين التراكيب التي فصل بينها لكمال الاتصال في نسق هذا الجنس الأدبي واضحاً جلياً؛ إذ يتمثل فيما بينها من علاقة التناسب والإحالة التي تكمن في اتحاد الجملتين وامتزاجهما امتزاجاً تاماً، بحيث يمكن إحالة الثانية منهما إلى الأولى في المعنى، وحملها عليها، فالجملة الثانية كأنها عين الأولى، وقد جاءت مؤكدة لها، أو مبينة ومفسرة لإبهامها نوعاً ما، أو متممة لمعناها.

وتبيان هذا أن نقف مع بعض مواضع هذه الوسيلة الأسلوبية في تعميق وحدة النص، وتآخيه، ونبدأ من ذلك بوقوع الجملة الثانية وتنزلها من الأولى منزلة التوكيد، ومن ذلك قول أكثم بن صيفي في وصيته للنعمان:" وليس للمختال في حسن الثناء نصيب، ولا للوالي المعجب في بقاء سلطانه بقاء، لا تمام لشيء مع العجب"[1]، فبين جملة: "لا تمام لشيء مع العجب" وجملة: " ولا للوالي المعجب في بقاء سلطانه بقاء" ترابط شديد، وتآلف عجيب؛ لاتحاد الجملتين في المعنى، وتمازجهما في المضمون تمازجاً تاماً، حتى كأن الثانية هي عين الأولى، وقد جاءت مقررة ومؤكدة لها؛ فهي منزلة منها منزلة التوكيد.

ومما لا شك فيه أن التوكيد والمؤكد شيء واحد، وهذا في مقام الوصية والنصح بالتواضع، ولين الجانب أولى؛ لقيامه مقام الدليل والبرهان على خلوص النصيحة وصدق الناصح، وشدة حرص الناصح على المنصوح، وفرط قناعته، وامتلاء نفسه، وتشبع وجدانه بما ينصح به، لتتعانق كل هذه الدلالات على تمكين النصح في ذهن المنصوح، ورسوخه في قلبه، واستقراره في ضميره.

ومن هذه المواضع –أيضاً-قول دريد بن الصمة في وصيته لقومه: "وعلى كل إنسان منكم بالأقرب منه، يكفي كل إنسان ما يليه"[2] وقول مجاشع بن شريف لقومه بني تميم: "يا بني تميم أقل الناس رحمة الملوك، إن الملوك ينكلون بالشقي والسعيد" [3] وقوله في الوصية ذاتها: "احفظوا ألسنتكم يعمِ عدوكم كيدكم، إنه من كتم سره عمى كيده على عدوه"[4] فثمت ترابط ظاهر، وتماسك متين بين جملة: "يكفي كل إنسان ما يليه" وجملة: "وعلى كل إنسان منكم بالأقرب منه" وبين

---

(1)كتاب المعمرين من العرب للسجستاني صـ19.

(2)كتاب المعمرين من العرب للسجستاني صـ22.

(3)المرجع نفسه صـ86.

(4)المرجع نفسه صـ16.

جملة: "إن الملوك ينكلون بالشقي والسعيد" وجملة: "أقل الناس رحمة الملوك"، وبين جملة: "إنه من كتم سره عمى كيده على عدوه" وجملة: "احفظوا ألسنتكم يعم عدوكم كيدكم"؛ لاتحاد الجملة الأولى والثانية فيها جميعاً في المعنى، وامتزاج مضمون كل منهما امتزاجاً تاماً، بحيث يمكن إحالة الثانية منهما إلى الأولى وحملها عليها؛ لتنزلها منزلة التوكيد منها، وبين التوكيد والمؤكد ما لا يخفى من عمق الصلة وقوة الرباط؛ إذ هما كالشيء الواحد، فالتناسب بينهما ظاهر، واللحمة متماسكة، وإن خلت جميعها من العطف الظاهري.

وقد تنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة البدل أو عطف البيان، وهذا نادر في وصايا المعمرين، والشأن فيه الفصل الظاهري بين الجملتين؛ لعمق الصلة التي تجمعهما، والوشيجة التي تؤاخي بينهما؛ إذ البدل هو عين المبدل منه لكونه جزءه، أو كله، أو مشتملاً عليه، وكذلك الشأن في عطف البيان؛ لكونه تفسيراً للمبين وتوضيحاً، فبين عناصر الكلام فيهما من التناسب والاتحاد، ما يقوي أواصر الكلام، ويوثق عراه، ويشد معاقده.

وإن شئت بياناً لذلك فخذ قول عمر-رضي الله عنه-في وصيته للخليفة من بعده" ويوصيك بالمهاجرين والأنصار، أن تقبل من محسنهم، وتتجاوز عن مسيئهم"[1] وقول القلمس أمية بن عوف[2] من وصيته لبنيه وقومه: "وأوصيكم بالسائل إن كان منكم أن يسأل غيركم"[3] وقوله في الوصية ذاتها: "واستوصوا بذوي أسنانكم خيراً، أجملوا مخاطبتهم، وقدموهم أمامكم"[4] وقد وقعت الجملة الثانية المفصولة في كل هذا بياناً للأولى وتفسيراً لها.

وإليك قول المنذر بن ماء السماء في وصيته للنعمان: "وأنهاك عن ملاحاة الحلماء ومزاح السفهاء، إن لك عقلاً وجمالاً ولساناً"[5] وقول أكثم في وصيته للنعمان: "أبيت اللعن، قد علم قومي أني من أكثرهم مالاً، ولم أسأل أحداً شيئاً، إن المسألة أضعف المكسبة"[6] وقول أبي بكر –رضي الله عنه-في وصيته لعمر: "إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، إنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى فريضة"[7] وقد جاءت الجملة الثانية المفصولة في كل هذا: "إن لك عقلاً وجمالاً ولساناً-إن المسألة أضعف المكسبة-إنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة" منزلة منزلة البدل من الجملة السابقة عليها؛ إتماماً للفائدة منها؛ إذ الأولى كغير الوافية بالمعنى المراد؛ ليتعانق البيان والمبين، والبدل والمبدل منه في كل ما سبق

---

(1)كتاب المعمرين من العرب للسجستاني صـ179.

(2) القلمس بن أمية بن عوف الكناني، أبو ثمامة، من بني الحارث بن مالك بن كنانة، آخر من نسأ الشهور في الجاهلية وكان " النسء " يعلن أيام اجتماع الحجيج في " منى " تولى إعلانه القلمس؛ وراثة عن أبيه، وأبوه عن جده، واستمر نحو أربعين سنة، وظهر الإسلام فأبطل ذلك، ويقال: كان اسمه " جنادة " والقلمس لقبه، ومعناه السيد، أو الداهية البعيد الغور، يلقب به كل من تولى نسء الشهور، وهو من الخطباء الوعاظ قبل الإسلام. ينظر الأعلام للزركلي 203/5.

(3)المعمرون والوصايا صـ134.

(4)المرجع نفسه صـ134

(5)المرجع نفسه صـ146.

(6) كتاب المعمرين من العرب صـــ17.

(7)المرجع نفسه صـ87

على تحقيق التماسك النصي، والترابط الأسلوبي في سياق هذه الوصايا عن طريق تلك الإحالة المعنوية التي يحمل الثاني فيها على الأول، ويحال عليه؛ لاتحادهما في المعنى، واشتراكهما في المضمون، حتى كأن الثاني هو عين الأول،، وقد أعيد مرة أخرى؛ تقريراً وتوكيداً.

أما شبه كمال الاتصال فهو أكثر دوراناً في وصايا المعمرين، وأقرب مأخذاً، وأسهل مورداً من سابقه، حيث يقوم وجه التماسك فيه على تلك الحركة النفسية المقدرة التي يفترضها المتكلم في سامعه، ويصوغ عبارته اعتباراً بما أثارته الجملة الأولى في نفس المتلقي من تساؤل، ثم تأتي الجملة الثانية جواباً، أو هكذا نزلت هذه المنزلة، وهنا يبدو الارتباط بين النسقين واضحاً، والتماسك النصي ظاهراً؛ لارتباط الجملتين-حينئذٍ-ارتباط السؤال بالجواب عن طريق علاقة التلازم؛ إذ من المقرر المعلوم أن السؤال يستدعي جواباً، ويقتضي مطلوباً يستلزمه، به يتقرر المعنى ويتأكد، وهنا-أيضاً-نجد أن الكلام قد امتزج من داخله امتزاجاً قوياً، وصار وحدة نصية متآلفة، دون حاجة إلى رباط ظاهري.

ولست هنا في مقام حصر أو استقراء فالمقام يضيق ذرعاً بذلك، لكني آخذ بك إلى وصية واحدة يتجلى فيها بوضوح أثر هذا النمط الأسلوبي، ودوره البارز في تحقيق عنصر التماسك، وشد معاقد الكلام، هذه الوصية هي وصية سليمان بن عبد الملك وحديثه مع رجاء بن حيوة في شأن من يلي خلافة المسلمين من بعد سليمان، فقد خرجت من أولها إلى آخرها مخرج القول مفصولاً غير معطوف؛ استجابة لهذه الحركة، واعتباراً بهذا التقدير، وذلك حسبما قرره الشيخ عبد القاهر في الدلائل[1].

جاء في الوصية أن سليمان بن عبد الملك دخل على زوجه أم سلمة بنت عمر بن سهل، فما نزل عن بطنها إلا وهو مغشي عليه فأقام يوماً وليلة ثم أفاق، فقال: هو الموت، عليّ برجاء بن حيوة الكنديّ، وكان من أخصّ الناس به، فأتاه.

فقال: يا هذا، قد ترى ما نزل بي من الأمر، فما رأيك؟ قال: بل يرفع الله صرعتك يا أمير المؤمنين، ويعلي كعبك، قال: أيها الرجل، هو والله الموت، قال رجاء: ذلك ما كتب الله على الأنبياء قبلك، وإن نقض فإلى روح الله ورحمته إن شاء الله، فقال: ما شاء الله كان، ويفعل الله ما يشاء، من ترى لهذا الأمر يا رجاء؟ قال: ابنك داود، قال: كيف؟ وهو ابن أمّ ولد، وأهل بيتي لا يرون ذلك، قال رجاء: فقلت عبيد الله بن مروان، رجل من أهل بيتك، قال: والله، ما يستنضج الكراع، قلت: فأخوك سعيد بن عبد الملك، قال: إن كانت أمُّه لغالبة على رأيه[2].

وهكذا سائر الوصية إلى آخرها خرجت في سوادها الأعظم مخرج القول مفصولاً غير معطوف؛ اعتباراً بتلك الحركة النفسية المقدرة التي كان لها أكبر الأثر في تماسك عناصر الوصية، وتداخل لبناتها، وجعلت كل عنصر منها يسلم إلى ما بعده، ويقود إليه، يقول سليمان، فيثير قوله في أنفس المتلقين تساؤلاً عما أجاب به رجاء، ويقول رجاء، فيثير قوله في أنفس المستمعين تساؤلاً عما أجاب به سليمان، فيأتي قول كل منهما في موضعه مفصولاً غير معطوف؛ جواباً عما قدر وقوعه في أنفس المستمعين، وهكذا سائر مقاطع الوصية؛ يثير كل مقطع منها في

---

(1) ينظر دلائل الإعجاز صـ24 وما بعدها

(2)المعمرون والوصايا صـ198.

أنفس المتلقين فيضاً من التساؤلات والاستفسارات عن المقطع الذي يليه، حتى غدت الوصية كلها لحمة واحدة، ووحدة نصية متآخية، آخذاً بعضها بعناق بعض.

الصورة الثانية
التماسك النصي بأسلوب الحوار

لا شك أن الحوار بما يتميز به من سمات وخصائص، وبما يتوفر فيه من أخذ ورد، وتفاعل وتشارك بين المتحاورين يعد عنصرا فعالا وذا أثر بارز في تحقيق التماسك النصي في بنية التراكيب اللغوية؛ حيث تجد كلاما من أحد أطراف الحوار يقابله رد من الطرف الآخر، وتجاوب معه، وهذا التجاوب والتفاعل الحاصل بين الطرفين هو لب التماسك وجوهره؛ لارتباط الرد بالقول الأول ورجوعه إليه، وتعلقه به.

وكلما نما الحوار واشتد الصراع بين الأطراف المتحاورة (الشخصيات) كلما كان ذلك سببا في الكشف عن حركة أخرى نحو الأمام، ويصبح القارئ أمام أبعاد متنوعة في المعنى، واتجاهات مختلفة في الشخصيات، حيث يتحرك المشهد ببراعة، وتزداد الأبعاد، وتتنامى الاتجاهات وتتصاعد مع التقدم من موقف لآخر؛ لأن مضمون أي جزء أو حلقة من حلقات الحوار يبرز مضمونا وحلقة أخرى؛ بسبب علاقاته بما حدث من قبل، ومضمون حلقة ثالثة ورابعة وخامسة، وهكذا؛ بسبب علاقاته بما سوف يحدث فيما بعد[1].

ومما لا شك فيه -أيضا-أن الحوار بما سبق من سمته وطبيعته يختلف عن الوصايا في سمتها وطبيعتها؛ إذ هي خلاصة خبرة حياتية عركها الزمن، وهذبتها الأحداث، وأصقلتها التجارب وامتداد العمر، يقدمها الموصي إلى ذويه ممن تربطه بهم صلة وثيقة من الأولاد والأهل والعشيرة، أو من غيرهم، ويلقيها على مسامعهم، دون أن يكون منهم هذا التفاعل والتشارك، والأخذ والرد الموجود في الحوار؛ لذا بدا عنصر الحوار خافتا وغائبا في هذا الجنس الأدبي، ونادرا ما تجد وصية من وصايا المعمرين توفر فيها هذا العنصر، وتجلى بوضوح، أو مثل وجها من وجوه التماسك النصي فيها، اللهم إلا وصية واحدة هي وصية سليمان بن عبدالملك السابق ذكرها في باب الفصل والوصل، وحديثه مع رجاء بن حيوة في شأن اختيار من يلي أمر الخلافة والمسلمين بعد وفاة سليمان، وهذه الوصية بنيت من أولها إلى آخرها على طريقة الحوار، واتكأ عليها، واتخذها سبيلا لتنامي الأحداث وتصاعدها، وتماسك الوصية وترابطها، جاء في الوصية أن سليمان دخل على زوجه أم سلمة بنت عمرو بن سهل فما نزل عن بطنها إلا وهو مغشي عليه فأقام يوما وليلة ثم أفاق، فقال: هو الموت، علي برجاء بن حيوة الكندي، وكان من أخص الناس به فأتاه:فقال: يا هذا قد ترى ما نزل بي من الأمر فما رأيك؟ قال: بل يرفع الله صرعتك يا أمير المؤمنين ويعلي كعبك.

قال: أيها الرجل هو والله الموت، قال رجاء: ذلك ما كتب الله على الأنبياء قبلك وإن نقض فإلى روح الله ورحمته إن شاء الله، فقال: ما شاء الله كان ويفعل الله ما يشاء، من ترى لهذا الأمر يا رجاء؟ قال: ابنك داود.

---

(1) ينظر القصة في الأدب العربي وبحوث أخرى لمحمود تيمور، صـ 19:36، مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ، وبناء الرواية، دراسة في الرواية المصرية، د/عبد الفتاح عثمان، صـ 237، وما بعدها، مكتبة الشباب، المنيرة، مصر، بدون تاريخ.

قال: كيف؟ وهو ابن أم ولد، وأهل بيتي لا يرون ذلك، قال رجاء: فقلت: عبد الله بن مروان رجل من أهل بيتك.

قال: والله ما يستنضج الكراع، قلت: فأخوك سعيد بن عبد الملك، قال: إن كانت أمهلغالبة على رأيه، فذاكرته عمر بن عبد العزيز قال: أعمر؟ قلت: نعم، قال وكيف أصنع بوصية عبد الملك؟ وإنه أخذ علي وعلى الوليد أن أينا بقي بعد صاحبه أن يعقد لابني عاتكة يعني: يزيد ومروان... قلت يا أمير المؤمنين: بنو أخيك بالباب. قال: أدخلهم؛ لا قربهم الله.[1]

وهكذا سائر الوصية إلى آخرها عقد لواؤها على أسلوب الحوار المحكي، الذي كان ذا أثر بارز، ودور كبير في تماسك الوصية، وترابط لبناتها، وجعل كل عنصر منها يمسك بتلابيب صاحبه، ويضمه إليه، ويسلم كل عنصر منها إلى ما بعده، ويرتد ما بعده إليه، ويحيل عليه، يسأل سليمان ويجيب رجاء، ويقول رجاء، ويرد سليمان، وهكذا عن طريق هذه العلاقة الديناميكية (الفاعلة) الماثلة في الأخذ والرد، والقبول والرفض، والتجاوب والمشاركة، وإثارة كل مقطع من مقاطع الوصية في أنفس المستمعين فيضا من التساؤلات والاستفسارات عن المقطع الذي يليه، وإحالة الثاني منهما على الأول؛ بقرينة إخراج الحوار في جميع مقاطع الوصية مخرج الحكاية على طريق القول الذي جاء مفصولا عما قبله لهذا السبب، حتى غدت الوصية كلها لحمة واحدة، ووحدة نصية متكاملة، شديدة التآخي والتآلف، والانسجام والتوافق.

الصورة الثالثة

التماسك النصي بذكر الخاص بعد العام وعكسه

من المعلوم أن ذكر الخاص بعد العام، وعكسه من صور الإطناب في المعنى، وحده: أن يذكر لفظ يدل على العموم أولًا، ثم يذكر لفظ داخل في هذا العموم على سبيل العطف ثانيًا، وعكسه عطف العام على الخاص[2].

وهو -إلى جانب ذلك-يمثل وجهًا من وجوه التماسك النصي، وضربًا من ضروب الترابط الدلالي في نظم الكلام؛ من خلال علاقة العموم والخصوص؛ لأن أحدهما يمثل جزءًا من الآخر، وقطعة منه، بل هو أشرف أجزائه وأكثرها أهمية، أو على العكس من ذلك إن كان غرض الكلام في الذم، أو غير ذلك، إن كان الغرض شيئًا آخر.

ومن خلال عنصر الإحالة؛ بقرينة العطف الذي يؤدي إلى ارتداد المعنى الثاني إلى الأول، ورجوعه إليه، وإلحاقه به؛ فإن الإحالة علاقة معنوية بين ألفاظ معينة وما تشير إليه من أشياء أو معان، أو مواقف تدل عليها عبارات أخرى في السياق[3].

والغالب في هذا النمط الأسلوبي أن يكون على مستوى الجملة الواحدة، وفي داخلها، وقلما يكون على مستوى الجمل؛ ولذلك يعدونه من صور التعانق الدلالي

---

(1) المعمرون والوصايا لأبي حاتم صـ 198.

(2) ينظر شروح التلخيص 217/3.

(3)ينظر الإحالة في نحو النص، دراسة في الدلالة والوظيفة، العربية بين الجملة ونحو النص، د/ أحمد عفيفي، 527/2، كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية، كلية دار العلوم جامعة القاهرة، 2005م.

البسيط؛ لقرب مأخذه، وسهولة مأتاه، وعدم احتياجه إلى كبير جهد أو مشقة؛ للوقوف على وجه الارتباط والتماسك فيه[1].

وقد جاء المستويان جميعًا في وصايا المعمرين، لكن على نحو من القلة والندرة، فمن مواضع المستوى الأول الذي يقع في ثنايا الجملة الواحدة قول علي – رضي الله عنه-في وصيته للحسن-رضي الله عنه-"يا بني عليكم بالبر، والتواصل، والتبار، وإياكم والتقاطع، والتدابر، والتفرق"، فإن البر: اسم جامع لكل معاني الخير، والتواصل، وكذا التبار-وهو التسابق في البر-فردان من أفراده، لكن عليًا-رضي الله عنه-خصهما بالذكر؛ للتنبيه عليهما، والدلالة على مزيد فضلهما، حتى صارا-لشرفهما-جنسًا مغايرًا للبر، وإن كانا منه.

والتقاطع: لفظ عام، يشمل فيما يشمل التدابر، والتفرق؛ لأنهما من لوازمه ومقتضياته، لكنه خصهما بالذكر على سبيل العطف بعده؛ للدلالة على مزيد شناعتهما، والتنبيه إلى فرط قبحهما، وزيادة شرهما، وقد ارتبطت هذه الألفاظ داخل الجملة بعضها ببعض من خلال تعانق علاقتي الإحالة والعموم والخصوص على إرجاع الخاص إلى العام، ورده إليه، وإلحاقه به؛ لأنه في الأصل جزء منه، بل هو جزء له أهميته وخطره في المعنى.

ومن هذه المواضع-أيضًا-قول هشام بن عبد الملك في وصيته لمؤدب ولده: "ولا تدخل عليه الفساق، ولا شربة الخمر"[2]؛ لأن شربة الخمر من جنس الفساق، لكن الخليفة خصهم بالذكر بعده على سبيل العطف المقتضي للتغاير؛ للتنبيه إلى شدة خطرهم، وبالغ شرهم، وأنهم أشد الفساق تجاوزًا للحد في الفسق والفجور، حتى صاروا جنسًا مغايرًا لسائر الفساق، مستقلًا بذاته، وقد عملت علاقة العموم والخصوص على ربط الثاني بالأول من خلال إحالة الخاص إلى العام، وإلحاقه به، لأنه جزء منه، ومعطوف عليه.

أما المستوى الثاني الذي يقع بين الجمل، فلا شك في أنه أقوى في الربط، وتحقيق التماسك من سابقه؛ لأن دلالة الجملة وعطاءها أقوى وأكثر من دلالة المفرد وعطائه، وقد جاء هذا المستوى في بعض الوصايا، كقول زرارة بن عدس في وصيته لبنيه: "فوالله ما شايعتني نفسي قط على إتيان ريبة، ولا عمل بفاحشة، ولا ضمني وعاهرة سقف بيت قط"[3]؛ لأن إتيان الريبة أعم من العمل بالفاحشة؛ لأن الفاحشة من إتيان الريبة، وقوله: "ولا عمل بفاحشة" يشمل عموم الفواحش كلها؛ بدلالة التنكير في "فاحشة" ووقوعها في سياق النفي مؤكدة بدخول الباء عليها، ثم خص من عموم الفواحش فاحشة الزنا خاصة، في جملة: "ولا ضمني وعاهرة سقف بيت قط" المكنى بها عن ذلك، إلا أن التعبير الكنائي أبلغ في نفي الفاحشة من التعبير المباشر الصريح؛ لأنه نفى معه دليله وبرهانه.

وكقول قيس بن زهير لعشيرة النمر في وصيته لهم: "وأنهاكم عن الرهان فإني به ثكلت مالكًا أخي، وعن البغي، فإنه صرع زهيرًا، وعن السرف في الدماء، فإن

---

(1)ينظر التماسك والتناسب، دراسة في بلاغة النص القرآني. د/ محمد أحمد أبو عامود، صـ22، الطبعة الأولى.

(2)المعمرون والوصايا صـ165.

(3)المعمرون والوصايا صـ143.

قتل أهل الهباءة ألزمني العار"[1]؛ فإن السرف في الدماء من جنس البغي، وصورة من صوره، لكنه لما كان أشنعها وأفظعها، وأشدها وأدخلها في البغي أفرده بالذكر، وخصه بالعطف؛ تنبيهًا عليه، ولفتًا إلى بالغ خطره، وسوء عاقبته، وقبح الانجرار إليه أو الوقوع فيه.

وقد بدا الترابط واضحًا، والتماسك قويًا بين الخاص والعام في الأمثلة المذكورة؛ لقوة الصلة بينهما، وعمق الوشيجة التي تجمعهما؛ إذ الخاص جزء من العام، وفرد من أفراده، وقد تعانقت علاقة العموم والخصوص مع عنصر الإحالة على إذكاء هذه العلاقة، وتقوية هذا الرباط وشده؛ وفاء بحق المعنى، وتلبية للغرض المقصود.

كما كان للواو العاطفة دور كبير، وأثر بارز في تعميق الصلة بين المتعاطفين: الخاص والعام، وجذب كل واحد منهما إلى الآخر برباط وثيق، وميثاق غليظ.

أما عطف العام على الخاص فقد راجعت هذه الوصايا وفتشت فيها، فلم أقف له على موضع إلا في أنموذج واحد، جاء في وصية المهلب بن أبي صفرة لأولاده، قال: "ولا تقاعدوا أهل الدعارة والريبة، ولا تخالطوهم، ولا يطمعن في ذلك منكم"[2]، فإن الريبة أعم من الدعارة وأشمل، والثانية فرد من أفرادها، والغرض في هذا يعود إلى الخاص –أيضًا-كما ذكر البلاغيون [3]، وهذه الصورة لا تخرج في مسلكها ونهجها في الربط والتماسك عن عطف الخاص على العام، والله المستعان.

---

(1)المرجع السابق صـ 173.

(2)المعمرون والوصايا صـ171.

(3)ينظر شروح التلخيص 225/3.

الصورة الرابعة
التماسك النصي بأسلوب التذييل

مما لا شك فيه أن التذييل يمثل شكلًا من أشكال الوحدة والتماسك بين النصوص، ويرجع السبب في هذا إلى أن العلاقة التي تجمع بين طرفيه: (الجملة المذيَّلة – الجملة المذيِّلة) هي علاقة التلازم التي تعمق الدلالة وتثريها من خلال اتحاد طرفيه؛ إذ التذييل هو "تعقيب جملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد" [1].

وهو بهذا المفهوم، وتلك العلاقة بين طرفيه يعد صورة من صور الإحالة المعنوية إلى سابق، وهذه الإحالة تؤدي إلى ترابط الجمل وتآلفها من خلال تعانق المعنى والدلالة، وقد يضاف إلى هذا التعانق المعنوي تعانق لفظي، يتحقق بإعادة بعض ألفاظ الجملة الأولى في الجملة الثانية[2]، فيقوي الترابط، ويشتد التماسك، ويحصل التناغم والتآخي؛ فالتذييل – كما هو معلوم – منه ما يكون لتأكيد المفهوم، ومنه ما يكون لتأكيد المنطوق.

والناظر في وصايا المعمرين، والمتأمل المدقق في سياقاتها يجد تناثر هذا النوع من الروابط النصية في جنباتها، وتداخله كثيرًا في بناء تراكيبها، ولا عجب في ذلك فقوام هذه الوصايا وعمادها هو النصح والتوجيه والإرشاد، والتربية والتعليم والتهذيب، وهي مقامات تتطلب قدرًا زائدًا من عناصر التوكيد والتقرير؛ لتثبيت هذه النصائح في الأذهان، وتمكينها في الأفهام؛ ولتقوم هذه العناصر مقام الدليل والبرهان على صدق الناصح فيما ينصح به، وفرط حرصه وعنايته بالمنصوح، والتذييل يحقق هذه الغاية، ويلبي هذا المطلب؛ إذ التوكيد هو عموده الأساس، وغرضه الأوحد الذي لا يحيد عنه.

ثم إنك تجده في كثير من مواضعه من هذه الوصايا قد خرج مخرج المثل، وجرى على نهج الحكمة المشتملة على خلاصة خبرة حياتيه، عركها الدهر، وصقلتها التجارب؛ لذيوعه وشهرته، وإمكان استقلاليته بالإفادة عما قبله، مع شدة ارتباطه به، ولعل هذا كان مطمحًا وغرضًا مقصودًا لقائلي هذه الوصايا، حتى تذيع وصاياهم في الآفاق، وتنتشر في الأرجاء، وتبقى على مر الزمن، حتى تتعاظم العبرة، ويكثر المعتبرين.

اقرأ إن شئت قول أكثم بن صيفي في وصيته للنعمان: " ولم أسأل أحدًا شيئًا، إن المسألة من أضعف المكسبة، قد تجوع الحرة ولا تأكل بثديها"[3].

فإنك تجد انسجامًا وتماسكًا وتآخيًا بين مضمون التذييل الماثل في قوله: " قد تجوع الحرة ولا تأكل بثديها" وبين الكلام السابق عليه: " ولم أسأل أحدًا شيئًا، إن المسألة من أضعف المكسبة"؛ فمعناهما واحد، ومضمونهما جد متقارب، وقد جاء التذييل تقريرًا وتوكيدًا لكونه لم يسأل أحدًا شيئًا، وأن المسألة من أضعف المكسبة.

---

(1) الإيضاح للخطيب القزويني صـ114.

(2) ينظر التماسك والتناسب دراسة في بلاغة النص القرآني. د/ محمد أبو عامود صـ37، والعلاقات النصية في لغة القرآن الكريم. د/ أحمد عزت يونس صـ239.

(3) كتاب المعمرين من العرب صـ12.

وقد اقتضى هذا التذييل في موقعه طبيعة الموقف وخصوصية المقام؛ فقد جاءت هذه الوصية بعد إلحاح النعمان على أكثم أن يسأله، ويطلب منه ثلاث مرات، وأكثم يأبى المسألة، وقد صار هذا التذييل فيما بعد مثلًا ذائعًا وحكمة مشهورة.

وراجع – أيضا – قول أكثم في وصيته لملك نجران أو هجر لما كتب إليه يطلب منه النصح: " فكن من الناس بين المنقبض والمسترسل، وخير الأمور أوساطها"[1] تقف على عمق الصلة، وقوة الارتباط والتماسك بين مضمون التذييل الماثل في قوله: " وخير الأمور أوساطها "، وبين قوله: " فكن في الناس بين المنقبض والمسترسل"؛ فقد جاء التذييل مشتملًا على معناه، ومتضمنًا له؛ لتوكيده وتقريره، وراجع إن شئت – أيضا – قوله في الوصية نفسها " ولم يلز[2] الكذب بشيء إلا غلب عليه، وشر الخصال الكذب"[3]، وقوله: " ومن لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من علمه زاجر، ومن أهمل نفسه أمكن عدوه على أسوأ عمله" [4]، وقد صار هو الآخر مضرب الأمثال، وحديث الركبان.

ولك أن تراجع قول دريد بن الصمة[5] في وصيته لقومه: " وعلى كل إنسان منكم بالأقرب إليه، يكفي كل إنسان ما يليه"[6]، وقوله في ذات الوصية – أيضا – " وأسلموا ذا الجريرة بجريرته، ومن أبى الحق فأعلقوه عليه"[7]، وقول زهير بن جناب لبنيه: "يا بني قد كبرت سني وبلغت حرسًا، وأحكمتني التجارب، والأمور تجربة واختيار"[8] وغير ذلك إن تصفحت هذه الوصايا كثير؛ حيث تجد التذييل في في كل ما سبق: " وشر الخصال الكذب – ومن أهمل نفسه أمكن عدوه على أسوأ عمله-يكفي كل إنسان ما يليه– ومن أبى الحق فأعلقوه عليه-والأمور تجربة واختيار" قد جاء على نحو من التماسك والتآخي، والتلاحم والتداخل مع الكلام السابق عليه في سياق الوصية؛ لاشتماله على معناه، وتضمنه إياه؛ ليمثل بذلك صورة من صور الإحالة المعنوية التي تجسد ترابط الجمل وتآلفها من خلال تعانق المعنى والدلالة، وقد خرج التذييل في كل منها مخرج الأمثال، وجرى على نهج الحكمة المأثورة؛ لشهرته وذيوعه، وإمكان استقلاليته بالإفادة.

كما تجد التذييل في كثير من مواضعه في هذه الوصايا على خلاف الصورة الأولى؛ لم يخرج مخرج المثل، ولم يجر على نهج الحكمة والأقوال المأثورة في الذيوع والانتشار؛ لعدم إمكان استقلاليتة بالإفادة؛ لشدة ارتباطه وتعلقه بما قبله في نسق الوصية؛ ليكون التماسك بين أجزاء الكلام في هذه الصورة أوضح وأظهر،

---

(1) المرجع نفسه صـ13.
(2) لز الشيء بالشيء: لزمه والتصق به/ لسان العرب لزز، 4026/5.
(3) المعمرون والوصايا صـ13.
(4) المرجع نفسه صـ13.
(5) دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوازن: شجاع، من الأبطال، الشعراء، المعمرين في الجاهلية. كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، وغزا نحو مئة غزوة لم يهزم في واحدة منها، وعاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية يوم حنين (8هـ). ينظر الأعلام للزركلي 339/2.
(6) كتاب المعمرين من العرب صـ16.
(7) المرجع نفسه صـ16.
(8) المرجع نفسه صـ76.

والترابط بين عناصر السبك أبين وأيسر، وإن كانت الصورة الأولى في البلاغة أقوى وأدخل، وبالعبقرية أضن وأشغف.

خذ لذلك مثلا من وصية زرارة بن عُدُس بن زيد لبنيه، قال: " فوالله ما شايعتني نفسي قط على إتيان ريبة، ولا عمل بفاحشة، ولا ضمني وعاهرة سقف بيت قط"[1]فإنك –لا شك-واضع يدك على شدة الانسجام والتآلف، وعمق التماسك والترابط بين التذييل الكائن في قوله: "ولا ضمني وعاهرة سقف بيت قط"، وبين الجملة السابقة عليه: "فوالله ما شايعتني نفسي قط على إتيان ريبة، ولا عمل بفاحشة"؛ لاشتمال معناه على معناه؛ فبينهما تلازم شديد، واتحاد تام في المضمون، غير أن التذييل أبلغ في الدلالة على هذا المعنى وأدخل؛ لبروزه في معرض الكناية التي تمثل دعوى مصحوبة بدليل صحتها، وبرهان صدقها، وقد جاء هذا التذييل تقريرًا لعفته وحشمته، وتأكيدًا على خفره وحيائه، وإن كان لا ينفك عن الكلام السابق عليه، ولا ينفصم منه، لعدم إمكان استقلاليته بالإفادة.

وإن شئت أعطيتك لتقرير وجه الترابط والتناسب بهذا الأسلوب في وصايا المعمرين أنموذجا آخر من وصية عامر بن الظرب لقومه، قال: " افهموا عني ما أقول لكم....من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له، وكان الباطل أولى به، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق"[2]، حيث مثل قوله: "وكان الباطل أولى به"، وقوله: " وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق" صورة من صور الإحالة التي تربط بين الجمل، وتشد أواصرها، وتوثق عراها؛ إذ هذه الجمل الثلاث تذييل مقرر ومؤكد لقوله: " من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له"؛ لاشتمال معناها على معناه، وقد زاد من عمق الصلة بينها، وقوة الرابطة التي تجمعها إعادة كثير من ألفاظ الجملة المذيلة في الجمل التذيلية الثلاث، وإخراج الجملتين الأخيرتين مخرج العكس البلاغي الذي يجعل الكلام كاللحمة الواحدة، والجسد الواحد يشد بعضه بعضًا.

ولك أن تراجع في هذا النمط –أيضًا-قول القلمس أمية بن عوف من وصيته لقومه: وأوصيكم بالحرب إن ظفرتم بقوم فأبقوا فيهم؛ فإنهم حسب لكم، ويد عند عدوكم، فإن ظفرتم بهم فهو ظاهر بكم لا بد، وهو عامل فيكم بما عملتم فيه"[3]، وقوله: –أيضًا-" وأوصيكم بالخفراء خيرًا، فلا تغرموهم في غرمكم، وأغرموا في غرمهم، فإنهم عدة لكم"[4]، وقول جابر بن مالك الكلبي من وصيته لبنيه وقومه: " واجهدوا أبدانكم اليوم لراحتها غدًا، ولا تكنوها بالدعة فتحسر عن الاجتهاد"[5]، وغير هذا من الوصايا كثير؛ حيث كان التذييل في كل منها، وهو على ترتيب المواضع على النحو الآتي: "وهو عامل فيكم بما عملتم فيه-وأغرموا في غرمهم-ولا تكنوها بالدعة فتحسر عن الاجتهاد" هو وسيلة تماسك النصوص وترابط الجمل وتعانقها في أنسقة هذه الوصايا؛ لاشتمال مضمونه على مضمون الكلام السابق عليه، وكونه في معناه، فإن مضمون قول القلمس في وصيته "وهو عامل

---

(1)كتاب المعمرين من العرب صـ71.
(2) كتاب المعمرين من العرب صـ35.
(3)المرجع نفسه صـ68.
(4)المرجع نفسه صـ68.
(5)كتاب المعمرين من العرب صـ75.

فيكم بما عملتم فيه" الواقع تذييلًا هو نفسه مضمون الجملة السابقة عليه: "فإن ظفرتم بهم فهو ظافر بكم لا بد" وقد جاء تذييلًا مقررًا ومؤكدًا له، وإن كان لا يجري مجرى المثل لعدم إمكان استقلاليته بالإفادة؛ لشدة ارتباطه بما قبله، وتوقف فهمه في معناه عليه، وهكذا يمكن قياس الموضعين الآخرين.

الصورة الخامسة
التماسك النصي بأسلوب الشرط

الشرط من أساليب القول، وفنون الخطاب التي احتفى بها البلاغيون احتفاء كبيرًا، ودرسوها باعتبارها من القيود التي تعمل على إثراء الدلالة، وتلوين الخطاب، وتمنح المعنى قدرًا زائدًا من الوكادة والوثاقة التي تنبعث من عنصر التشويق الذي يضرب بجذوره في أعماق هذا الأسلوب.

ويعد الشرط من وسائل التماسك النصي في بنية التراكيب اللغوية عامة، وفي وصايا المعمرين خاصة؛ لقيامه من وجه على التعليق؛ تعليق حصول أمر بأمر، أي: تعليق حصول الجزاء ووقوعه على حصول الشرط ووقوعه.

وقيامه -من وجه آخر -على علاقة التلازم؛ التلازم التام والارتباط الشديد بين الشرط والجزاء؛ لنهوضه على عنصرين يلزم من وجود أولهما وجود ثانيهما؛ الأول يسمى شرطا، والثاني يسمى جوابا أو جزاءً". [1]

فكل من الشرط والجزاء يفتقر إلى الآخر، ويحتاج إليه؛ الشرط يفتقر إلى الجزاء؛ لأنه المتمم لمعناه، والجزاء مفتقر إلى الشرط؛ لأنه مترتب عليه، ومسبب عنه، وهذا هو معيار التماسك، ومقياس الترابط، حسبما قرره علماء اللسانيات في العصر الحديث، وسبق إليه علماؤنا الأوائل بقرون عديدة.

وكلما طالت جملة الشرط وامتدت، وتعددت قيودها، وتنوعت متعلقاتها كلما ازداد الترابط، واشتد التماسك بين أطراف الكلام وعناصره.

ومن المعلوم أن أدوات الشرط لا تجري في الكلام على نهج واحد، بل تتنوع هذه الأدوات، وتتعدد باعتبارات مختلفة، فتنقسم باعتبار الاسمية، والحرفية إلى أدوات حرفية، وإلى أدوات اسمية، وإلى متنازع فيه؛ وتتنوع باعتبار الإعمال والإهمال إلى أدوات عاملة وإلى أدوات مهملة، وتتنوع باعتبار البساطة والتركيب، إلى أدوات بسيطة، وإلى أدوات مركبة وإلى متنازع فيه -أيضا -وقد تعاور كل ذلك على وصايا المعمرين، واستعمل فيها، واتكأ على كثير منه أصحاب الوصايا في الربط والتعليق، وتحقيق التماسك النصي في وصاياهم.

لكن أكثر هذه الأدوات دورانا، وأظهرها استعمالا في هذه الوصايا هي: "إن، وإذا، ومن" ولا عجب في ذلك فـ "إن" هي رأس أدوات الشرط وأم الباب، وباقي أدوات الشرط محمول عليها في العمل خاصة؛ بقرينة أن هذه الأدوات الأخرى، إذا أخرجت عن معنى الشرطية لا تعمل الجزم.

و"إذا" هي المقابلة لـــ "إن"؛ إذ تستخدم في الأمر المتيقن وقوعه، المجزوم بحصوله على العكس تماما من "إن" التي تستخدم في الأمر المشكوك فيه، الذي لا

---

(1) ينظر العلاقات الملفوظة والعلاقات الملحوظة في النص القرآني، د/ تمام حسان ص ١٧٨، مجلة الدراسات القرآنية، العدد الثاني، المجلد الثالث، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية جامعة لندن ٢٠٠١م.

يجزم بحصوله؛ ولذا تدخل" إذا" في الغالب على الماضي، وتدخل إن في الغالب على المستقبل.

و "من" هي المطابقة لمقتضى حال المخاطبين بهذه الوصايا في العقل والحكمة، والرأي والفطنة؛ إذ هي اسم موضوع للدلالة على من يعقل، والمخاطب بهذه الوصايا ابتداءً هم أهل الموصين ممن تربطه بهم لحمة وشيجة، وصلة قوية، ولا تختص في ربط الجزاء بالشرط بزمن معين، بل تدخل على المضارع، وعلى الماضي.

ومن اللافت للانتباه، المثير للاهتمام أن دخول هذه الأدوات الثلاثة السابقة على الشرط الماضي في السواد الأعظم من وصايا المعمرين، يمثل سمة أسلوبية، وخصيصة بلاغية في هذه الوصايا، لها ما وراءها من دلالة وإيحاء.

وإن شئت دليلا على ذلك فلك أن تراجع مواضع "إن" فيها، فإنك تقف على صحة هذا الاستنتاج، وقوة هذا الاستنباط، مع أن الأصل في "إن" أن تدخل في الشرط المستقبل.

راجع -مثلًا -قول دريد بن الصمة من وصيته لقومه:" وإن أجدبتم فلا ترعوا حمى الملوك وإن أذنوا لكم، فإن من رعاه غانما لم يرجع سالمًا" [1].

وراجع قول القلمس أمية بن عوف من وصيته لأشراف قومه: "وأوصيكم بالحرب، إن ظفرتم بقوم فابقوا فيهم فإنهم حسب لكم، ويد عند عدوكم"، وقوله: "وأيسروا الصداق فيما بينكم تنفق أيامكم، ويكثر نسلكم، فإن نكحتم في العرب فاختاروا لكم ذوات العفاف، والحسان أخلاقًا" [2].

وراجع قول عمرو بن يزيد الكلبي من وصيته لبنيه:" وإذا حاربتم قومًا فاطلبوا موافقتهم.... وإن أمكنكم البيات ففيه الظفر بعدوكم، وإن منحوكم أكتافهم فوسعوا عليهم المسرب"[3].

وراجع قول عوف بن كنانة الكلبي لبنيه:" يا بني احفظوا وصيتي.... وإن أنتم حفظتموها سدتم قومكم بعدي"[4]، وقول المهلب بن أبي صفرة لبنيه: "فإن ظفر امرؤ وقد أخذ بالحزم قال العاقل قد أتى الأمر من وجهه"[5].

وقول أبي بكر -رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه -:"فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت "[6]

وقول معاوية في وصيته ليزيد: "فإن قدرت عليه -يعني الحسين بن علي - رضي الله عنهما -فاصفح عنه، فإني لو كنت صاحبه لفعلت"[7]

وقول رجل من أهل الشام في وصيته لابنه: "فإن استطعت أن تكون اليوم خيرًا منك أمس، وغدًا خيرًا منك اليوم فافعل"[8].

---

(1)كتاب المعمرين صـ 41.
(2) المرجع نفسه ص ١٣٤، ١٣٥.
(3) المرجع نفسه ص ١٥٤.
(4) المرجع نفسه ص ١٦٤.
(5)كتاب المعمرين من العرب ص ١٧١.
(6) المرجع نفسه ص ١٧٨.
(7) المرجع نفسه ص١٨٩.
(8) المرجع نفسه ص ١٩٤.

والأمر في "إذا" أظهر من أن يستدل عليه، أو ينبه له؛ لأنها تستعمل في الأمر المتيقن حصوله؛ فوجه دخولها على الماضي من الوضوح بمكان، ولنأخذ بعض مواضعها من الوصايا دليلاً على ذلك، فمن ذلك -وهو كثير-قول قيس بن معدي يكرب في وصيته لولده:" وتناصروا تكونوا حمى، وإذا نزلتم على قومكم فلتكن محلتكم واحدة"[1]، وقول عبقر بن أنمار البجلي لأولاده: "يا بني إذا غدوتم فبكروا، وإذا رحتم فهجروا، وإذا أكلتم فأوتروا، وإذا شربتم فأنبروا"[2].

وقول هشام بن عبد الملك في وصيته لسليمان الكلبي مؤدب ولده:" وإذا أعطيتم أهل القرآن وحملة العلم، وأهل الفضل، فإنكم تؤجرون على إعطائهم، إلا أن يكون في سبب النجدة أو الوسيلة[3]" وقوله في الوصية ذاتها: " وإذا حضر الناس أبوابكم أبوابكم فعجلوا إذنهم، ثم ليحسن بشركم بهم"[4].

وكذلك الشأن في "من" الشرطية، جاء غالب شرطها في وصايا المعمرين فعلاً ماضيًا؛ كقول أسيد بن أوس التميمي للحارث بن الهبولة الغساني:" ومن اتخذ أداء الحق الحيطة فقد كمل"[5]

وقول عامر بن الظرب في وصيته لقومه:" فمن رأيتموه أصابه شر فإنما أصابه فعله.... ومن اجتنب الشر لم يثب عليه.... ومن بلغ منكم خطة خير فأعينوه"[6]

وقول مجاشع بن شريف لبني تميم:" احفظوا ألسنتكم يعم عدوكم كيدكم"، إنه من كتم سره عمى كيده على عدوه"[7]، وقول دريد بن الصمة لقومه: "ومن أسدى إليكم إليكم خيرًا فاصنعوا له، ومن كانت له مروءة فليظهرها، ومن أبى الحق فأعقلوه إياه"[8]

وقول أكثم في وصيته لملك هجر أو نجران: "ومن حسد من دونه قل عذره، ومن حسد من فوقه فقد أتعب نفسه، ومن جعل لحسن الظن نصيبًا روح عن قلبه، وأصدر به أمره"[9]، وقول القلمس أمية بن عوف من وصيته لقومه: " ومن أعطيتموه عهدًا ففوا له، ومن أعطاكم عهدًا فارعوا عهده، حتى تردوه إليه"[10]، وغير ذلك مما لم نذكره من مواضع هذه الأدوات في الوصايا كثير، حيث ترى أداة الشرط في كل هذه المواضع السابقة وغيرها كانت ذا أثر ضخم وكبير في تحقيق التماسك النصي بين الشرط وجزائه، واتصال كل منهما بالآخر اتصالًا وثيقًا وقويًا.

---

(1) المعمرون والوصايا ص ١٤٩ وقيس هذا هو قيس بن معد يكرب، أمير كندة في الجاهلية والإسلام، كانت إقامته بحضرموت، ووفد على النبي ﷺ بعد ظهور الإسلام في جمع من قومه فأسلم، وشهد اليرموك وأصيبت عينه، وزوجوا أبو بكر رضي الله عنه أخته أم فروة، وتوفي سنة 40ه. ينظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال 286/3، والأعلام 332/1.

(2) المعمرون والوصايا ص ١٥٠، والوتر: الأكل على فترات متباعدة، والنبر: رفع الصوت عند الشرب. لسان العرب، نبر/4323/6.

(3) المعمرون والوصايا ص ١٦٥، ١٦٦.

(4) المرجع نفسه ص ١٦٥.

(5) المرجع نفسه ص ١٧٥.

(6) المرجع نفسه ص ٧٧.

(7) المعمرون والوصايا ص ١٧٥.

(8) المرجع نفسه ص٤١.

(9) المرجع نفسه ص٣٥.

(10) المرجع نفسه ص ١٣٣.

فقد كانت هي وسيلة المزج والحبك بين الشرط الماضي، وهو حسب ترتيبه في الأمثلة السابقة على النحو الآتي: "وإن أجدبتم -وإن أذنوا لكم إن ظفرتم بقوم-فإن نكحتم في العرب -وإن أمكنكم البيات -وإن منحوكم أكتافهم-وإن أنتم حفظتموها - فإن ظفر امرؤ وقد أخذ بالحزم -فإن حفظت وصيتي -فإن قدرت عليه -فإن استطعت أن تكون اليوم خيرًا منك أمس، وغدًا خيرًا منك اليوم".

وهو في مواضع" إذا" على النحو الآتي في الترتيب: " وإذا نزلتم على قومكم-إذا غدوتم -وإذا رحتم -وإذا أكلتم-وإذا شربتم -وإذا أعطيتم أهل القرآن، وحملة العلم، وأهل الفضل -وإذا حضر الناس أبوابكم ".

وهو في مواضع "من" على هذا النحو في الترتيب – أيضا-: "ومن اتخذ أداء الحق الحيطة -فمن رأيتموه أصابه شر -ومن اجتنب الشر -ومن بلغ منكم خطة خير -إنه من كتم سره -ومن أسدى إليكم خيرًا -ومن كانت له مروءة -ومن أبى الحق -ومن حسد من دونه -ومن حسد من فوقه -ومن جعل لحسن الظن نصيبًا-ومن أعطيتموه عهدًا -ومن أعطاكم عهدًا "، وبين الجزاء، وهو حسب ترتيب شرط "إن" على النحو الآتي:" فلا ترعوا حمى الملوك - فابقوا فيهم فإنهم حسب لكم - فاختاروا لكم ذوات العفاف والحسان أخلاقًا -فاطلبوا موافقتهم -ففيه الظفر بعدوكم-فوسعوا عليهم المسرب -سدتم قومكم بعدي -قال العاقلقد أتى الأمر من وجهه-فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت-فاصفح عنه-فافعل".

وهو حسب ترتيب شرط "إذا" في نماذجها على هذا النحو: "فلتكن محلتكم واحدة-فبكروا-فهجروا-فأوتروا-فأنبروا-فإنكم تؤجرون على إعطائهم-فعجلوا إذنهم، ثم ليحسن بشركم بهم".

وهو لشرط "من" في المواضع المذكورة على الترتيب الآتي: "فقد كمل-فإنما أصابه فعله-لم يثب عليه-فأعينوه - يعم عدوكم كيدكم-فاصنعوا له-فليظهرها-فاعقلوه إياه-قل عذره-فقد أتعب نفسه-روح عن قلبه-ففوا له-فارعوا عهده، حتى تردوه إليه".

ويرجع السبب في ذلك إلى ما تتسم به أدوات الشرط عمومًا من خاصة التعليق التي بها يتحقق التلازم والتعانق بين الشرط وجزائه، وارتباط كل منهما بالآخر برباط غليظ؛ بحيث يتوقف حصول الجزاء في كل المواضع السابقة، وفي غيرها على حصول الشرط، ويفتقر الشرط فيها جميعًا إلى الجزاء ويحن إليه؛ لأن الجزاء-من وجه-هو الجزء المتمم لفائدة الشرط ومعناه، والشرط-من وجه آخر-سبب في حصول الجزاء، ومقدمة مؤسسة له؛ فهما كالجملة الواحدة في التماسك والائتلاف.

ووراء صيغة الماضي في شروط الأدوات الثلاثة السابقة دلالة-من وجه-على تعاظم الرغبة، وشدة الحرص على حصول الشرط الذي يتوقف على حصوله حصول الجزاء، إن كان الشرط مما يرغب في حصوله، أو الرغبة في عدم حصوله لعدم حصول الجزاء، إن كان الشرط نفسه مما لا يرغب فيه.

ووراءه-من وجه آخر-نداء على أن نفس الموصى قد أفعمت به، وامتلأت، حتى أبرزته في معرض المتيقن حصوله، أو في معرض المتيقن عدم حصوله، وخيلت إلى السامع غير الواقع واقعًا.

على أنك إن نظرت إلى الجزاء في هذا النمط الأسلوبي فيما ذكرته لك من نماذج، وفيما لم أذكر لك استغناء به، مما هو مبثوث في ثنايا هذه الوصايا وجدته في أغلب مواضعه فيها يجئ بالفاء خاصة: "فلا ترعوا حمى الملوك-فأبقوا فيهم-فاختاروا ذوات العفاف-فأطيلوا مواقفتهم -ففيه الظفر-فوسعوا عليهم—فاصفح عنه-فافعل-فلتكن محلتكم-فبكروا فهجروا-فقد كمل-فإنما أصابه فعله-فإنكم تؤجرون" إلى آخر المواضع التي أوردتها؛ لتعمق هذه الفاء قوة الصلة، وتمازج الوشيجة بين الشرط والجزاء، وتجمع بينهما على وجه لا يقبل الانفكاك بحال؛ لأن هذه الفاء الرابطة صيرت الجزاء في حكم النتيجة المترتبة على الشرط والمسببة عنه، وجعلت الشرط في حكم المقدمة والسبب اللازم لحصول الجزاء ووقوعه، والعلاقة بين المقدمات والنتائج، والأسباب والمسببات، واللحمة التي تربط بينهما كاللحمة التي تربط الشيء بنفسه؛ فهما كالشيء الواحد التي لا يتأتى فيه الفك أو الفسخ.

ثم إن هذه الفاء وإن كانت الغاية منها هي ربط الجزاء بالشرط، إلا أنها تنبئ-بإفادتها الترتيب مع التعقيب الذي لا ينفك عنها-عن فرط رغبة الناصح، وشدة حرصه على تحقق الجزاء على وجه السرعة، ومن دون مهلة أو تراخ-وتدل على أن حصول الجزاء كأنه المقصود الأهم الذي تتوفر عليه العناية، ويتوجه نحوه القصد، ويتعلق بحصوله قلب الناصح الأمين.

وقرينة هذا من كون الجزاء في أغلب أحواله في هذه الوصايا جملة طلبية قد يكون الإيجاب على الفور مقصودًا له، أو مبدوءًا "بقد"، أو "بإن"، أو "إنما" المؤكدات، أو كونه جملة اسمية تفيد الثبوت والدوام الذي يقتضي تأكيدًا وتقريرًا، أو غير ذلك من صور الجزاء الذي لا يرتبط فيها بالشرط بنفسه، أو يمكن أن يرتبط به على هذا النحو، لكن جاءت الفاء فيه لسر وغرض.

وقريب من الشرط في مأخذه ومأتاه في تحقيق التماسك والترابط بين بنى الكلام أسلوب القسم، إلا أنه جاء في الوصايا على نحو شديد الندرة، وفي مواضع لا يعتد بها؛ لذا تجاوز البحث حديثه، وضرب عنه الذكر صفحًا، مع التنبيه عليه، والإشارة إليه، والله المستعان.

الصورة السادسة
التماسك النصي بأسلوب التعليل

يعد التعليل عنصرًا من عناصر الترابط، ووسيلة من وسائل التماسك النصي بين لبنات الكلام وأجزائه على نحو قوي ومتين؛ إذ يمثل شكلًا من أشكال التداعي بين المعاني، وطريقًا من طرق تبادرها إلى الذهن؛ لما هو معلوم من أن العلة تدور مع المعلول وجودًا وعدمًا؛ فوجود أحدهما يستدعي وجود الآخر ويقتضيه[1]، فبينهما علاقة تلازم وارتباط وهذا يمنح النص بعدًا آخر من أبعاد الديمومة والاستمرارية، والنمو والتطور، ويعمل في الوقت ذاته على تلاحم أجزائه، وتداخل

(1) ينظر الإحكام في شرح أصول الأحكام لابن حزم 99/8، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الآفاق الجديدة، بيروت، بدون، كما ينظر نفائس الأصول في شرح الوصول للقرافي 343/8، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولى 1995م.

سبكه، وتضام عناصره، وارتباط أوله بآخره، وبدايته بنهايته، حتى كأنه أفرغ إفراغًا واحدًا.

والتماسك النصي عن طريق إخراج الكلام مخرج التعليل يمثل واحدة من أبرز خصائص البنية التركيبية في وصايا المعمرين، وأقواها ظهورًا وانتشارًا، وأكثرها دورانًا واستعمالًا في هذا الجنس الأدبي، فلا تكاد تجد وصية من هذه الوصايا إلا كان هذا النمط الأسلوبي أكثر لبنات بنائها، والملاط الذي به تتماسك سطورها وتتشابك.

ويكمن السر في ذلك إلى أن هذه الوصايا في مجملها تمثل رسائل نصح وإرشاد وتوجيه وتعليم، وتربية وتهذيب، وتلك مقامات تتطلب قدرًا زائدًا من التوكيد والتقرير، والتحقيق والتشديد الذي يعد أبرز مزايا التعليل وخصائصه؛ ليثبت الحكم في الذهن، ويستقر في القلب؛ لما أن العلة تقوم مقام الدليل على صحة الحكم، والبرهان المقتضي له في العقل السليم، والمنطق المستقيم.

والتماسك النصي بأسلوب التعليل في وصايا المعمرين يجيء على صورتين، تتمثل الأولى منهما في استعمال وسائل لفظية، كبعض الحروف التي تتوفر على تحقيق هذه الغاية، وتعمل – في الوقت ذاته – على تأكيد قوة الارتباط والتماسك، وتجسيد عمق الصلة بين العلة والمعل، وهذه الصورة هي الأكثر دورانًا في وصايا المعمرين، غير أن أظهر تلك الوسائل وأكثر تلك الأدوات استخدامًا هي الفاء السببية، فلا تكاد تجد وصية إلا كان أكثر الترابط فيها بين العلة والمعلول من خلال هذه الفاء، حتى صارت هي الأخرى خصيصة من أبرز خصائص التعليل في هذا الجنس الأدبي.

ووجه هذا ونكتته أن هذه الفاء – إلى جانب دلالتها على السببية المؤذنة بأن ما بعدها نتيجة لما قبلها، وأنه سبب عنه، ومترتب عليه – لا تنفك عن معنى التعقيب المؤذن بالحصول على وجه السرعة، وهذه السرعة مما تقتضيها مقامات هذه الوصايا التي يغلب عليها طابع التوجيه، ومعاني النصح والإرشاد – حسبما سبق بيانه -، وإنما كان ذلك كذلك؛ لأنها تنبئ – من وجه – عن تمحض النصيحة وخلوصها، وتنبئ – من وجه آخر عن شدة حرص الناصح الموصي على من يوصيه وينصحه، وفرط عنايته بالأمر الموصى به، وتعاظم رغبته في وقوعه موقعه من قلب المنصوح، على وجه لا يقبل التراخي، أو يحتمل الإمهال، ولا عجب في ذلك؛ فغالب هذه الوصايا موجهة إلى الأولاد، أو القوم والعشيرة، أو من تربطهم بالناصحين صلة قوية، وعلاقة حميمة.

وإن شئت أن أقيم لك الدليل على ذلك فراجع هذه الوصايا في مظانها من كتب التراث؛ فإنك تقف على صدق هذه النتيجة، وواقعية هذا التوجيه والتحليل.

راجع إن شئت مثلًا قول أكثم بن صيفي من وصيته لبنيه: " وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه – ولا تغضبوا من اليسير فإنه يجني الكثير-تناءوا من الديار ولا تباغضوا، فإن من يجتمع يتقعقع عمده" [1]، وقوله من وصيته لقومه: " وإياكم

(1) المعمرون والوصايا صـ25، 26، والتقعقع: التحرك والاضطراب. لسان العرب 3695/5، قعع.

وكثرة الصياح في الحرب؛ فإن كثرة الصياح من الفشل – وكونوا جميعًا؛ فإن الجميع غالب-تثبتوا ولا تسارعوا فإن أحزم الفريقين أركنهما"[1].

وقوله من وصيته لجهينة، ومزينة، وأسلم، وخزاعة؛ لما كتبوا إليه أن أحدث إلينا أمرًا نأخذ به: " لا تفرقوا في القبائل؛ فإن القريب بكل مكان مظلوم" [2].

وإن شئت فراجع – أيضا – قول القلمس، وهو أمية بن عوف من وصيته لأشراف قومه من كنانة: " وأوصيكم بالصلة؛ فإنها تديم الألفة وتسر الأسرة، وأحذركم القطيعة؛ فإنها تورث الضغينة، وتفرق الجماعة، وإياكم والعجلة فإنها رأس السفه"[3].

وراجع قول علي – رضي الله عنه – في وصيته للحسن والحسين وسائر أولاده لما ضربه بن ملجم؛ " والله الله في الصلاة؛ فإنها عمود دينكم، والله الله في الزكاة؛ فإنها تطفئ غضب ربكم عليكم"[4].

وقول عبد الملك بن مروان في وصيته لبنيه: " وإياكم والاختلاف والفرقة؛ فإن بها هلك الأولون قبلكم، وذل ذووا العدد الكثير"

والأمثلة في ذلك أكثر من أن تحصى؛ تجد الفاء السببية في المواضع السابقة قد وقعت في صدر الجملة التعليلية: " فإن مقتل الرجل بين فكيه – فإنه يجني الكثير – فإن القريب بكل مكان مظلوم – فإنها عمود دينكم" وهكذا سائر المواضع؛ للنص على العلة صراحة، والربط بين العلة والمعلول، والدلالة على أن أحدهما (العلة) هو نتيجة حتمية للآخر (المعل)؛ لأنه مترتب عليه، ومسبب عنه، وبهذا حصل التماسك، ووقع التماذج في نسق هذه الوصايا، فتقرر المعنى، وتأكد المضمون.

ومن اللافت للنظر أن الفاء السببية قد اقترنت بـ(إن) التوكيدية في كل المواضع السابقة، وفي غيرها الكثير مما لم نذكره؛ لضيق المقام، وهذا غالب ما يشخص أمام ناظريك في وصايا المعمرين؛ ليمثل هو الآخر ظاهرة بلاغية، وخصيصة أسلوبية من خصائص هذا النمط التعبيري في الوصايا؛ ليلتقي رافدان من روافد العلية، وكل منهما يمنح التعليل من دلالته الوضعية عنصرًا دلاليًا آخر غير الذي يعطيه الآخر له، فالفاء تشرب التعليل مع التعقيب، مثلما تشرب " إن " التعليل مع التوكيد، فيجمع التعليل المنبعث من " فإن " معنيين آخرين: هما التعقيب والتأكيد، وهذا – لا شك – يجعلها أقوى في إمساك عرى الكلام، وشد معاقده بقوة وإحكام[5].

وإنما اجتمعت الفاء مع "إن" في تحقيق ما سبق من غايات وأهداف؛ لأن المقام يقتضي توكيدًا زائدًا؛ لتنزل المخاطبين منزلة السائل الطالب، أو الشاك المتردد؛ بقرينة إخراج الجملة المعلة في كل المواضع المذكورة، وفي غيرها مما لم نذكره في صورة الطلب أمرًا أو نهيًا.

---

(1) المعمرون والوصايا صـ28، والركن: القوة والشدة. لسان العرب، ركن- 1721/3.
(2) المعمرون والوصايا صـ30.
(3) المرجع نفسه صـ135.
(4) المعمرون والوصايا صـ181.
(5) سبل الاستنباط من الكتاب والسنة د. محمود توفيق صـ78، الطبعة الأولى 2011 م، مكتبة وهبة، القاهرة، كما ينظر المكونات التركيبية والدلالية لظاهرة التعليل في العربية. د/ طه الجندي، بحث منشور بحولية كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد 27 صـ49، عام 1992م.

وقد لا تقترن الفاء بـ" إن " التوكيدية في هذا النوع من التراكيب، وهذا قليل نادر، وقد جاء ذلك في بعض المواضع، كقول عامر بن الظرب في وصيته لابنته: "مري ابنتك فلا تنزلن فلاة إلا ومعها ماء، وأن تكثر استعمال الماء فلا طيب أطيب منه"، وقول الأحوص الكلبي في وصيته لعشيرته: "ولا ترضوا بالدنية ففيها البلية، وضياع العلم، وذهاب المهج"، غير أن هذا النمط لا يرقى في قوته في تحقيق التماسك النصي، والترابط الدلالي إلى الصورة الأولى التي لاقحت فيها الفاء " إن " التوكيدية.

ولعل خلو هذه الصورة من كثرة عناصر التوكيد يرجع إلى أن ترتب العلة على المعلول في الموضعين بمعرض من الظهور والوضوح، ولا مجال فيه للشك أو التردد، والغلط أو التزيد.

وقد تكون وسيلة التماسك، وأداة الربط بين العلة والمعل في وصايا المعمرين أداة أخرى غير الفاء، كاللام، و " إذ "، و " إن "، وإن كان هذا في الأداتين الأوليين على نحو من القلة أو الندرة؛ كالذي في قول عامر بن الظرب في وصيته لقومه بني عدوان: " أرى أمورًا شتى، وشيئًا شيئًا حتى، قالوا: وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حيًا، ويعود لا شيء شيئًا؛ ولذلك خلقت الأرض والسماء، فتولوا عنه ذاهبين"[1]، وقول أبي بكر – رضي الله عنه – في وصيته لعمر – رضي الله عنه – " وذكر آية الرحمة وآية العذاب؛ ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله غير الحق"[2]، وكقول فضالة بن زيد العدواني لمعاوية: " وإن الولد الصالح ليمثل منزلة المال، ولكن للمال فعيله عليه، وإن كان طلب المال إنما يجمعه لولده فإنه آثر عنده؛ لأنه قد يمنعه المال؛ إذا طلب منه، وإن كان يثمره له"[3]، وكقول المهلب بن أبي صفرة في وصيته لأولاده، وهو الموضع الوحيد في الوصايا الذي كانت أداة التعليل فيه هي "إذ": " يا بني قومكم قومكم، إنه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم؛ إذ فضلوكم وسودوكم، ووطئوا أعقابكم، وبلغوا حاجتكم فيما أردتم"[4]، فقد عملت اللام و" إذ" في المواضع السابقة: " ولذلك خلقت الأرض والسماء – ليكون العبد راغبًا راهبًا – لأنه قد يمنعه المال إذا طلب منه-إذ فضلوكم وسودوكم" على تماسك النص وتعانق أجزائه وعناصره، وارتباط آخر الكلام بأوله وتعلقه به، والعكس؛ حيث كانتا نصًا صريحًا في أن ما دخلتا عليه علة للكلام السابق، وقائم مقام الدليل والبرهان على صحته، وإنما دخلت اللام على " أن " التوكيدية في الموضع الثالث: "لأنه قد يمنعه المال إذا طلب منه"؛ لغرابة الحكم بأفضلية المال على الولد، وهو ما يقتضي توثيق الكلام وتوكيده، وتثبيته وتمكينه؛ لإزالة ما حام حول الحكم، وغلف مضمونه من عوامل الدهشة والاستغراب.

أما مجيء " إن " في صدر الكلام تعليلًا، فهو أكثر دورانًا من اللام و"إذ"، وقد جاء ذلك في عدة مواضع، منها قول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: كلفتموني تعبًا إن القلب لم يخلق"[5]، ومنها قول أكثم في وصيته للنعمان: "ولم أسأل أحدًا

---

(1) المعمرون والوصايا صـ82.
(2) المرجع نفسه صـ178.
(3) المرجع نفسه صـ127.
(4) المرجع نفسه صـ169.
(5) المعمرون والوصايا صـ76.

شيئًا إن المسألة أضعف المكسبة"[1]، وقول المهلب السابق: " يا بني قومكم قومكم؛ إنه ليس لكم فضل عليهم"[2]، وغير ذلك كثير، ترى " إن" فيه تتولى -كما قال عبد القاهر-من ربط الكلام بما قبله، وتجعله يأتلف معه، ويتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفراغا إفراغا واحدا، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر، ولو سقطت"إن" من الكلام لبنا الثاني منهما عن الأول، وتجافى معناه عن معناه، ورأيته لا يتصل به.

ولا يكون منه بسبيل، وما ذاك إلا لإشرابها معنى التعليل، وقرينة هذا من إنابة الفاء عنها إذا أسقطت من الكلام[3].

وقد تكون " إن " فيما ذكر من مواضع جوابًا عن سؤال مقدر أثاره الكلام السابق؛ وذلك اعتبارًا بما قرره عبد القاهر في أحد وجوه استعمالها[4]، وهذا يأخذ بنا إلى الصورة الثانية من صور التعليل التي تحقق التماسك النصي في وصايا المعمرين، وهي وسيلة ربط معنوية؛ لأن مبناها على أمر تقديري يعتبره المتكلم في المتلقي؛ حيث تتمثل في تلك الحركة النفسية المقدرة التي يتنزل فيها التعليل منزلة الجواب عن سؤال مضمر في النفس، أثاره الكلام السابق عن سبب الحكم المذكور وغايته.

وهذه الوسيلة الرابطة تثير حول النص أجواء من التفاعل والتجاذب، والتجاوب والتشارك بين المرسل والمتلقي، تعمل في نهاية الأمر على شد مفاصل الكلام، وتوثيق عراه؛ لما يتوفر فيها من عنصر التشويق الذي يأخذ بضبعي المتلقي لمعانقة الكلام، حتى نهايته؛ بسبب ما يعتري الحكم من نوع غموض وإبهام، أو غربة ودهشة تقتضي البيان.

وهذا النوع من الروابط التي تحقق التماسك النصي في نسق الكلام، وإن كان في نفسه كثيرًا، إلا أنه في وصايا المعمرين قليل بالقياس إلى النوع الأول الذي يعتمد وسائل وأدوات لفظية، وقد جاء في عدد لا بأس به من المواضع، منها قول دريد بن الصمة في وصيته لقومه: " أما أول ما أنهاكم عنه، فأنهاكم عن محاربة الملوك؛ فإنهم كالسيل بالليل؛ لا تدري كيف تأتيه، ولا من أين يأتيك"[5]، وقول عمرو بن الغوث في وصيته لولده: " يا بني؛ إنكم قد حللتم محلًا تخرجون منه، ولا يدخل عليكم فيه، فارعوا مرعى الضب، يرى جحره، ويعرف قدره، ولا تكونوا كالجراد؛ يأكل ما وجد، ويأكله ما وجده"[6] فإنك إن تأملت هذين الموضعين وجدت وجدت الحبل الذي يمسك بزمام قول دريد: "لا تدري كيف تأتيه، ولا من أين يأتيك" ويأخذ بتلابيبه، ويشده إلى الكلام السابق عليه هو تلك الحركة النفسية المقدرة التي أثارها الغموض، وأزتها الغربة الكامنة في تشبيه الملوك بالسيل في ظلمة الليل، في قوله: " فإنهم كالسيل بالليل" كأنه قيل: ما وجه ذلك وسببه؟ فقيل: لا تدري..." وهكذا الشأن في قول عمرو بن الغوث: " يرى حجره، ويعرف قدره"، وقوله: " يأكل ما وجد، ويأكله ما وجده"؛ فإنه جوابًا عن سؤال أثاره الأمر والنهي

---

(1) المرجع نفسه صـ33.
(2) المرجع نفسه صـ169.
(3) ينظر دلائل الإعجاز صـ316.
(4)دلائل الإعجاز صـ324.
(5) المعمرون والوصايا صـ41.
(6) المعمرون والوصايا صـ148.

العجيب الغريب، المبطن بقدر شفيف من الغموض والإبهام في قوله: "فارعوا مرعى الضب"، وقوله: " ولا تكونوا كالجراد"؛ ليتصل آخر الكلام بأوله، وتتماسك معاقده، وتتشابك مفاصله، وهكذا الشأن في كل ما جرى هذا المجرى مما تجاوزناه -لضيق المقام – في هذا الجنس من القول، مما خرج مخرج السؤال والجواب.

الصورة السابعة
التماسك النصي بأسلوبي الطباق والمقابلة

الطباق والمقابلة من ألوان البديع المعنوي وفنونه، وهما متقاربان إلى حد كبير؛ ولذلك أدمجهما الخطيب القزويني في الإيضاح، وجعل المقابلة صورة من صور الطباق. (1)

وليست هذه المسألة هي لب القضية التي تشغل البحث، ويتمحور حول دراستها، فالذي يعنينا في هذا المقام هو التعرف على دور الطباق والمقابلة في عملية التماسك النصي، وتلاحم النسيج البنيوي في أنساق الكلام، وربط هذا بوصايا المعمرين، وبحثه فيها.

وحين نتلمس هذه الغاية، ونصوب نحو هذا الهدف نجد أن الطباق والمقابلة يمثلان شكلاً من أشكال التماسك، وصورة من أقوى صور الترابط والتآلف بين النصوص؛ لارتكازهما في الأصل ونهوضهما على علاقة التضاد؛ للجمع فيهما بين الشيء وضده، أو بين أشياء وما يقابلها. (2)

ومن المقرر في سنن الفطرة أن التضاد -باعتباره مشهدا من مشاهد الكون، ومظهرا من مظاهر الحياة والأحياء؛ إذ يقومان على الجمع بين ثنائيات متضادة: السماء والأرض -الماء والنار -الحياة والموت -الخير والشر -الذكورة والأنوثة، إلى غير ذلك -وسيلة من وسائل تداعي المعاني على الذهن، وخطورها في القلب، فكل من الطرفين أو الأطراف المتضادة يستدعي الآخر ويقتضيه، ويحيل كل منهما إلى الآخر؛ لما هو مشهور في البلاغة(3) أن الضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده، وتصور أحد الضدين فيه تصور للآخر، كما أن الذهن عند ذكر الضد يكون مهيأ للآخر ومستعدا له؛ فيؤدي هذا إلى اتصال المعاني وائتلافها، وتوحد أطراف الكلام وتداخلها، فيتقرر مضمون الكلام ويتأكد، ويثبت ويتمكن، وإن كان هذا التماسك في المقابلة أقوى وأظهر؛ لتعدد الوحدات النصية في كل طرف من أطرافها؛ إذ تبدأ بالجمع بين أمرين متقابلين في كل طرف من أطرافها، وتنتهي بالجمع بين ستة أمور في كل طرف.

والناظر في وصايا المعمرين يجد أن أصحابها قد اتكأوا في كثير منها على أسلوب الطباق والمقابلة؛ للجمع بين معانيهم وتراكيبهم، وإفراغها في قالب لغوي شديد الترابط والتماسك، والاتصال والتآلف؛ ليسلس لهم قيادها، وتتمكن لهم معانيهم، وإن شئت أن أقيم لك الدليل على ذلك فراجع من الطباق قول أكثم بن

---

(1)ينظر الإيضاح للخطيب القزويني ص 195.

(2)ينظر: المطول لسعد الدين التفتازاني، ص61، ودراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات محمد أبو ستيت، ص 50.

(3)ينظر: دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات محمد أبو ستيت، ص50، 51.

صيفي في وصيته لبنيه: "لم يهلك من مالك ما وعظك ويل لعالم أمر من جاهله الوحشة ذهاب الأعلام" [1]، فإنك تجد الطباق بين "عالم"، و"جاهل" قد عمل عن طريق علاقة التضاد على ربط أجزاء الكلام، وتضام عناصره؛ لاستدعاء كل طرف من النقيضين للآخر، وإحالته عليه؛ فتصور العلم في الذهن يستدعي تصور الجهل، وورود العلم على الخاطر يجعل الذهن مستعدا لورود الجهل، ولا يخفى ما في الجمع بين العلم والجهل على هذا النحو من النداء على خطورة الجهل، وتصوير فرط تربصه بالعلم وعدم انفكاكه عن معاداته، ومحاولة الإيقاع به، وهذا ما يشهد به الواقع، وتعانقه الأحداث.

ولك أن تراجع قول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: "أي بنية: إنك قد فارقت الجواء الذي منه خرجت، والوكر الذي منه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك ملكًا، فكوني له أمة يكن لك عبدًا"[2]، وقولها من الوصية ذاتها: "واتقي الفرح لديه إذا كان ترحًا والاكتئاب عنده إذا كان فرحًا"[3]، حيث تجد الطباق بين لفظي:" أمة" و" عبدا"، وبين لفظي: "الفرح" و" ترحا"، وبين:" الاكتئاب " و"فرحا"، قد عمل على شد عرى الكلام، وتداخل لبناته، وذلك عن طريق علاقة التضاد التي تجعل الضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده، والذهن أكثر جاهزية واستعدادًا عند سماع الضد الأول إلى الضد الثاني، فائتلفت أجزاء الكلام، وتناسقت عناصره؛ لتتعانق هذه الخصيصة في الطباق على المبالغة في التأكيد على المعنى الذي أرادت الأم أن تقره في سمع ابنتها، وأن تفرغه في قلبها وعقلها، وهو حسن تبعلها لزوجها، وفرط معاشرتها إياه بالمعروف، ودوام تبصرها وتعهدها لحاله، وفعل ما يجب فعله في كل حال، فتقررت هذه المعاني في نفس البنت وتأكدت، ووعاها سمعها وقلبها، بدلالة قرينة الحال؛ فقد ورد أنها غلبت على أمر زوجها الحارث بن عمرو الكندي من ملوك اليمن، فولدت له سبعة أملاك، ملكوا اليمن بعده.[4]

وراجع إن شئت قول دريد بن الصمة في وصيته لقومه: " ولا تحقرن شرا فإن قليله كثير، واستكثروا من الخير فإن زهيده كبير"[5]، وقول جابر بن مالك الكلبي في وصيته لبنيه وقومه: "ولا تخاذلوا فتذلوا، وأجهدوا أبدانكم اليوم لراحتها غدا، ولا تكنوها بالدعة فتحسر عن الاجتهاد"[6]، وقول أبي بكر في وصيته لعمر: "إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار "[7]، وغير هذا كثير مما كان الطباق فيه هو وسيلة ربط الكلم بعضه ببعض، وتماسك عناصره عن طريق علاقة التضاد التي يستدعي فيها السابق اللاحق، ويحيل اللاحق فيها إلى السابق.

لكن اللافت للنظر أن السواد الأعظم من الطباق الوارد في وصايا المعمرين قد برز في صورة طباق الإيجاب الذي يكون الطرفان فيه مثبتين معا، بخلاف ما كان

---

(1)كتاب المعمرين من العرب ص 8، والأعلام هم سادات الناس وأشرافهم.
(2)كتاب المعمرين من العرب ص 71.
(3)نفس المرجع ص71.
(4)نفس المرجع صـــ72
(5)نفس المرجع ص 61.
(6)المرجع نفسه ص 75.
(7)كتاب المعمرين من العرب ص 87.

طرفاه منفيين معا، فلم يرد أصلا؛ إذ لم أتمكن من الوقوف له على شاهد، وبخلاف طباق السلب المقابل له؛ فإنه نادر جدا، وقد تمكنت من الوقوف له على موضعين اثنين في هذه الوصايا، جاء الأول منهما في وصية عامر بن الظرب لقومه:" يا معشر عدوان ربوا صغيركم، واعتبروا بالناس، ولا يعتبر الناس بكم"[1]، وقول قيس بن معد يكرب في وصيته لولده: " فاطلبوا الصمت إلا فيما يعنيكم، ولا تأخذوا ختلاً وخذوا صراحًا، فهناك عز القرار، ومنعة الجار"[2]، ولعل ذلك -من وجه - لسهولة مأخذه، وقرب مأتاه، وسعة صوره وتنوعها، وبعده ثمت -من وجه آخر - عن التكلف والتمحل الذي تنأى عنه طباع المطبوعين من البلغاء الحاذقين وذوي اللسن المتكلمين.

وراجع إن شئت المقابلة في وصية مالك بن المنذر البجلي لبنيه: " يا بني كونوا جميعًا ولا تفرقوا، فتكونوا شيعًا؛ فإن موتًا في عز خير من حياة في ذل وعجز"[3]، وعجز"[3]، تجد أثر المقابلة واضحًا في التأكيد على معاني العزة والكرامة، والأنفة والأنفة وإباء الضيم، مهما كان الثمن المبذول باهظًا؛ بإبراز الهوة السحيقة، وتجسيد البون الشاسع والفارق البعيد بين الموت في عزة، والحياة في ذل وعجز، من خلال علاقة التضاد التي جمعت بين الأمرين في اتساق عجيب، وتآلف غريب، نشأ من تصور الذهن لأحدهما وتهيؤه له عند ذكر الأول وسماعه.

كما كان لاسم التفضيل "خير" -أيضا -دور كبير في تحقيق التماسك النصي وشد معاقد الكلام، حيث جمع _ بدلالته على مشاركة كل من الطرفين للآخر في الصفة، وزيادة الفاضل على المفضول فيها، بين الطرفين المتقابلين، ووضع كل منهما في مواجهة الآخر وبإزائه.

وكلما زادت الأطراف المتقابلة في العدد كما في وصية عمر -رضي الله عنه - للخليفة من بعده: " ويوصيك بالمهاجرين والأنصار: أن تقبل من محسنهم، وتتجاوز عن مسيئهم" [4]، وقول المهلب بن أبي صفرة لبنيه: "يا بني أحبوا المعروف وافعلوه، واكرهوا المنكر واجتنبوه"[5]، وقول زويد بن نهدفي وصيته لبنيه: " وارعوا الكلأ وإن كان على الصفا، وما احتجتم إليه فصونوه، وما استغنيتم عنه فأفسدوه على من سواكم "[6]، حيث قوبل فيها بين ثلاثة معان وثلاثة معان أخرى، أو عانق المقابلة ومازجها في سياقها بعض الأساليب البلاغية الأخرى التي يتوفر فيها هذا البعد الوظيفي، كالتقسيم والاستطراد، وذكر الخاص بعد العام، وغيرها، كقول المهلب بن أبي صفرة لبنيه: " أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل، وتكثر العدد، وتعمر الدار، وتعز الجانب، وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم؛ فإن معصية الله تعقب النار، وقطيعة الرحم تورث القلة والذلة، وتفرق

---

(1)المرجع نفسه ص 36.
(2)المرجع نفسه ص 74.
(3)كتاب المعمرين من العرب ص 73.
(4)المرجع نفسه ص 88.
(5)المرجع نفسه ص 84.
(6)المرجع نفسه ص 15.

الجمع، وتدع الدار بلاقع، وتطمع العدو، وتبدي العورة"[1]، كلما كان التماسك قويًّا، والترابط وثيقًا، والاتصال ظاهرًا؛ لتعانق عدد من العلاقات وتمازجها على تحقيق هذا البعد الوظيفي وترسيخه في نظم الكلام وبناء التراكيب.

(1)كتاب المعمرين من العرب ص 15.

الصورة الثامنة
التماسك النصي بأسلوب مراعاة النظير

مراعاة النظير: هو الجمع بين أمر وما يناسبه، لا بالتضاد [1]، وهو من فنون البديع المعنوي التي ترتكز في بعدها الوظيفي على ربط الكلام بعضه ببعض، وتحقيق التماسك بين أجزائه وعناصره؛ من خلال علاقة التناسب؛ بالجمع بين أمر وما يشاكله، والتوفيق بينهما على نحو يجعل كل لفظة من هاتين الفظتين نظيرة للأخرى، وهذا ظاهر جدًا لمن يراجع التعريف السابق.

كما يظهر بوضوح من تعدد مسميات هذا الفن في كتب البلاغة، وتنوعها على نحو يجسد هذا البعد الوظيفي ويصوره؛ فيسمى: مراعاة النظير، وهو أشهرها، ويسمى التناسب، ويسمى الائتلاف، كما يسمى التوفيق، وكلها –كما نرى-مسميات تدور حول معنى التماسك والجمع.

ومما ينبغي التنبه له أن حصر التناسب في حدود اللفظة أو اللفظتين، أو الثلاثة، أو أكثر يجري على الغالب في هذا الأسلوب، وإلا فقد يتجاوز التناسب حدود اللفظة أو اللفظتين إلى حدود الجملة أو الجملتين، بل قد يتجاوز هذا المستوى إلى مجالات أوسع، وآفاق أرحب، فيشمل النص كله، وذلك على وجه سوف نشير إليه لاحقًا في وصايا المعمرين.

كما أن تحديد وجه التناسب وبيان منشئه مسألة نسبية تختلف باختلاف الزمان والمكان، وتتأثر بالموروث الثقافي والاجتماعي، والبعد العقدي؛ فما يبدو متناظرًا أو متناسبًا في زمان أو في مكان، أو في موروث ما قد لا يكون كذلك في بيئة أخرى، ومن ثم كان للبعد المقامي دور فعال في الوقوف على الأحوال، والتعامل مع النصوص من هذا المنطلق، وإن كان ثمت ثوابت ومسلمات لا تتأثر بتغير هذه العوامل [2].

وبناء على ما سبق فإن التماسك النصي في هذا النمط الأسلوبي في وصايا المعمرين يخرج على مستويين، الأول: المستوى الكلي؛ حيث تمثل الوصية وحدة نصية كلية يجري التناسب والتآلف بين كل أجزائها وعناصرها من أولها إلى آخرها، ومن بدايتها إلى نهايتها؛ لأن هذه الوصايا تدور في مجملها حول غرض كلي عام، هو النصح والتوجيه والإرشاد إلى معان وصفات، وخلال وشمائل يجمعها رباط واحد؛ فهي إما من وادي الأخلاق الحسنة، والطباع النبيلة، والخلال الجميلة؛ بالترغيب فيها والحث عليها، وإما من قبيل الأخلاق الذميمة، والطباع اللئيمة؛ بالتحذير والتخويف من الوقوع فيها.

ولن تجد شيئًا من هذه الوصايا يخرج عن هذا الإطار العام، أو يحيد عن هذا النهج الجامع، أو ينفك عن هذه العروة الوثقى التي تمسك بهذه الوصايا من جميع أطرافها، مع مراعاة البعد العقدي، واعتبار العرف والموروث، واختلاف الزمان والمكان، فما يرى في بيئة وزمان الجاهليين حسنًا ونبيلًا قد لا يكون كذلك في أعرافنا وتقاليدنا، كالذي في بعض وصايا الجاهليين من الوصية بالناس شرًا من

---

(1)الإيضاح للخطيب القزويني صـ196.

(2)ينظر العمدة لابن رشيق القيرواني، 259/1، الطبعة الخامسة 1981م، دار الجيل، بيروت، والصورة الفنية في الشعر العربي القديم حتى نهاية القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها د/ على البطل، صـ35-64، الطبعة الثانية 1981م، دار الأندلس.

أمثال دويد بن نهد، قال في وصيته لولده: "أوصيكم بالناس شرًا، لا تقبلوا لهم معذرة، ولا تقيلوهم عثرة....."[1]، أو مبادأة الناس بالشر، كما في وصية عمرو بن الغوث لبنيه: "وابدؤوا الناس بالشر، فإنه أشكر لخيركم وإن كان قليلًا"[2]، أو اعتقادهم أن القبر خير للنساء إن لم يصيبوا الأكفاء، كالذي في وصية قيس بن زهير لعشيرة النمر: "ولا تردوا النساء عن الأكفاء؛ فإن لم تصيبوا الأكفاء فإن خير أزواجهن القبر"[3]، وغير ذلك مما يخالف أصول هذا الدين، ويتوافق مع بعض معتقدات الجاهلية وعاداتها السيئة.

الثاني: المستوى الجزئي، وهو لا يتجاوز حدود اللفظة أو اللفظتين، أو أكثر، والجملة أو الجملتين في الوحدات النصية ذات المقطع القصير، والمعنى الجزئي، وهذا المستوى يدور في وصايا المعمرين على نحو من الكثرة؛ حيث تقرن اللفظة إلى نظيرتها، والكلمة إلى لفقها، لتحقيق نوع من التماسك والترابط، والتآخي والتآلف في نسق هذه الوصايا بين الوحدات القصيرة، ذات البعد الدلالي الجزئي.

وكلما ازداد عدد المتناظرات، أو المتصاحبات كلما ازداد تماسك هذه الوحدات، وكان السبك قويًا ومحكمًا.

وإن شئت دليلًا قويًا على ذلك فراجع وصية دويد بن نهد السابقة لأولاده: "أوصيكم بالناس شرًا، لا تقبلوا لهم معذرة، ولا تقيلوهم عثرة، أوصيكم بالناس شرًا، طعنًا وضربًا، قصروا الأعنة، وأشرعوا الأسنة" تجده قد جمع فيها بين عدد من الكلمات المتناظرة، فجمع بين: "لا تقبلوا لهم معذرة"، وبين "ولا تقيلوهم عثرة"، كما جمع بين "طعنًا" و "ضربًا"، وبين "قصروا الأعنة" و"أشرعوا الأسنة"، وكلها ألفاظ متناسبة في معانيها، ومن واد دلالي متقارب؛ ليشتد بهذا التناظر سبك الوصية، ويقوى حبكها، ويتماسك بناؤها.

وراجع –أيضًا-وصية مضرس بن ربعي [4] لابنه: "يا بني، إن الأسف مرض، والطمع لؤم، واليأس عجز"، فقد جمع فيها على نحو من الترابط والتماسك بين الأسف، والطمع، واليأس"، كما جمع بين المرض، واللؤم، والعجز، وهما جميعًا من الخلال الذميمة، والأخلاق السيئة، والعلل المستكرهة التي تنفر منها النفوس، وتتحاشاها الطباع السليمة.

وأظهر من هذا وذاك قول علي –رضي الله عنه-في وصيته للحسن بن على – رضي الله عنه-، ولجميع أولاده: "والله الله في الأيتام فلا تغيرن أفواههم بحضرتكم، والله الله في الضعيفين فإن آخر ما تكلم به رسول الله -ﷺ-أن قال: أوصيكم بالضعيفين خيرًا.

والله الله في القرآن فلا يسبقكم بالعمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم، والله الله في الزكاة فإنها تطفئ غضب ربكم عنكم، والله الله في صيام

---

(1)المعمرون والوصايا صـ39.

(2)المرجع نفسه صـ 149.

(3)المعمرون والوصايا صـ173.

(4)هو مضرس بن ربعي بن لقيط الأسدي، شاعر جاهلي حسن التشبيه والرصف، واختار أبو تمام قطعتين من شعره في الحماسة، وقيل: مختلف في جاهليته/ ينظر الأعلام للزركلي 250/7.

رمضان، فإن صيامه جنة لكم من النار، والله الله في الحج فإن بيت الله إذا خلا لم تناظروا، والله الله في الفقراء والمساكين، فشاركوهم في معايشكم وأموالكم.

عليكم يابني بالبر والتواصل والتبار، وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيكم -ﷺ-"[1]، فإن الوصية من أولها إلى آخرها قد جمعت بين اللفظة وأختها، والكلمة ولفقها؛ فجمعت بين: "القرآن، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج" وهي ثوابت هذا الدين وأصوله، وجمعت بين: "الأيتام، والضعيفين، والفقراء والمساكين" في الضعف، وشدة حاجتهن إلى العطف والرعاية، وجمعت بين: "البر، والتواصل، والتبار، والبر، والتقوى"، وهي جماع كل خير وفضل، كما جمعت بين: "التقاطع، والتدابر، والتفرق، والإثم، والعدوان"، وهي أصل المفاسد، ورأس القبائح والمهالك، كل ذلك في تماسك عجيب، وتآلف غريب، وترتيب بديع، تسلم كل لفظة منها إلى التي تليها، وتأخذ اللاحقة منها بحجز السابقة، حتى أضحت الوصية كلها نسيجًا متجانسًا، وبناءً نصيًا متكاملًا، لا تنبوا كلماته بعضها من بعض، ولا تتنافر ألفاظه، ولا تتدابر معانيه، ولا تتقاطع وشائجه.

الصورة التاسعة

التماسك النصي بأسلوب العكس

العكس والتبديل من فنون البديع المعنوي وألوانه التي ذكرها الخطيب القزويني في كتابه الإيضاح، وهو-كما عرفه-أن يقدم في الكلام جزء، ثم يؤخر[2].

وقد ذكر له صورًا ثلاثًا، لكن الذي يتعلق منها بقضية البحث هي الصورة التي يقع العكس فيها بين متعلقي فعلين في جملتين، كقوله تعالى: "يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي" أو التي يقع فيها بين لفظين في طرفي جملتين، كقوله تعالى: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن"[3]؛ إذ هما اللذان يعول عليهما في تحقيق التماسك النصي، والتلاحم بين عناصر الكلام، وإن كانت الصورة الثالثة[4] لا تخلو من تدشين ذلك، ولو بوجه ما.

ولعل أول ما أشار إلى أثر هذا الأسلوب في تحقيق التماسك النصي، والتأليف بين أنساق الكلام، والمزج بين عناصره هو عبد القاهر الجرجاني، حين جعله من النظم الذي تتحد فيه أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، ومثل له بقول الشاعر:

فبينا المرء في علياء أهوى ومنحط أتيح له اعتلاء
وبينا نعمة إذ حال بؤس وبؤس إذ تعقبـــــــــــــه ثراء

---

(1)المعمرون والوصايا صـ181.
(2) الإيضاح للخطيب القزويني صـــ200.
(3) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني صـــ 200.
(4) وهي أن يقع بين أحد طرفي جملة وما أضيف إليها، مثل قول بعضهم: "عادات السادات سادات العادات" الإيضاح صـــ200.

وأشار إلى أنه النمط العالي والباب الأعظم، والذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه[1].

ثم جاء حازم القرطاجاني فكشف عن وجه التماسك والارتباط فيه، وحصره في علاقة التقابل والتضاد، قال: "ويجري مجرى المطابقة تخالف وضع الألفاظ لتخالف في وضع المعاني، ولنسبة بعضها من بعض؛ فيقع بذلك بين جزئين من أجزاء الكلام نسبتان متخالفتان، فيجري ذلك مجرى المطابقة في الألفاظ المفردة، كقول بعضهم:

أنت للمال إذا أصلحته فإذا أنقصته فالمال لك

ومن هذا النحو قول بعضهم: إن من خوفك، حتى تلقى الأمن، خير ممن أمنك، حتى تلقى الخوف" [2].

إلا أن وجه التماسك فيه أوسع سعة مما حصره فيه، فقد يضاف إلى ما ذكره ما يسمى علاقة الإحالة والتناسب؛ حيث يحيل المتكلم اللاحق من الكلام إلى السابق، ويرد المتأخر إلى الأول، ويحمله عليه، وهذا ظاهر جدًا، لاسيما وقد عده بعضهم[3]من صور التكرار الذي تمثل علاقة الإحالة والتناسب الوجه الأظهر في التماسك بين الوحدات النصية فيه؛ بقرينة تكرر معظم عناصر القرينتين أو كلها، وتماثلها فيه.

ومن وجه آخر: فإن الهيئة أو البعد التركيبي لهذا النمط الأسلوبي يجسد في نفسه هذه اللحمة، ويعمق هذا الترابط؛ فإن قوام البنية التركيبية فيه يرتكز-في الغالب- على وحدات نصية متوازية في طريقة الصياغة، وعدد الألفاظ، لاسيما وأن هذا التوازي المذكور يمثل وجهًا قويًا، بناء وفعالًا من أوجه التماسك النصي في هذا اللون البديعي؛ بما يتوفر فيه من إيقاع نغميّ متناسب، وجرس صوتي متوافق.

وقد بدا هذا النوع من الروابط النصية في وصايا المعمرين في مواضع قليلة جدًا، هي التي ينطبق عليها مقياس الخطيب، وتندرج تحت الصورتين اللتين عول عليهما الباحثون في تحقيق التماسك-هنا-، أما الصورة الثالثة فلا ورود لها أصلًا في وصايا المعمرين.

فمن هذه المواضع قول دريد بن الصمة في وصيته لقومه: "أما أول ما أنهاكم عنه فأنهاكم عن محاربة الملوك؛ فإنهم كالسيل بالليل، لا تدري كيف تأتيه، ولا من أين يأتيك"[4].

وقول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها، وهو من أظهر الأدلة في هذا الباب: "أي بينة، إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عن الزوج، ولكن للرجال خلق النساء، كما لهن خلق الرجال" [5]؛ "فقد عمل العكس في قول أمامة: "ولكن للرجال خلق النساء، كما لهن خلق الرجال"

---

(1) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر صـ94 وما بعدها.

(2) ينظر منهاج البلغاء لحازم القرطاجاني صـــ 51.

(3)ينظر البديع بين البلاغة والعربية واللسانيات النصية صـ124. د/ جمال عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2006م.

(4) المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني صـــ 41، تحقيق: بشير محمد عيون، الطبعة الأولى 2020م مكتبة دار البيان، دمشق.

(5) المرجع نفسه صـــ 141.

على توثيق عرى الكلام، وتماسك بنائه، وإحكام نسيجه من خلال علاقتي التناسب والتقابل، ومن خلال التوازي عدة وصنعة بين الجملة الأولى والثانية؛ ليعكس هذا الترابط اللفظي -من خلال تلك العلاقات الكائنة في طوايا الكلام-الترابط المعنوي، والتمازج الروحي الذي يشد الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، وينادى على أن كلًا من الجنسين يكمل الآخر، ويسد عوزه ونقصه.

وكقول عامر بن الظرب من وصيته لقومه: "من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له، وكان الباطل أولى به، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق"[1]، فإنه يجري على هذا النهج السابق من التماسك والترابط من خلال العكس البلاغي بعلاقة التقابل في قوله: "وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق" التي جمعت بين الجملتين، وشدت معاقدهما، ووضعت الحق والباطل كلًا منهما بإزاء الآخر، وفي مواجهته، وعلى نحو يطابق الواقع، ويجسد الحقيقة.

كما كان لعنصر الإحالة دور كبير في هذا التماسك؛ حيث رد الجملة الثانية إلى الأولى، وحملها عليها، وألحق الأولى بالثانية ووصلها بها في إطار من الحركية التبادلية الفعالة التي عمق من أثرها في الربط، وقوتها في المزج التماثل الكائن بين الجملتين في كيفية الصياغة، وفي عدد الألفاظ التي بلغت ستًا في كل جملة منها.

وثمت مواضع أخرى، منها: قول أبي بكر-رضي الله عنه-في وصيته لعمر -رضي الله عنه-: "إن لله عملًا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملًا بالنهار لا يقبله إلا بالليل"[2]، وقول عبد الملك بن مروان في وصيته لأولاده: "ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير"[3] وقول الحجاج بن يوسف في وصيته: "لا نفرق بين أحد من خلفاء الله، ولا نتهم الله في قضائه فيهم، هم لي أولياء، وأنا لهم ولي في الدنيا والآخرة"[4] حيث تجد العكس البلاغي في وصية أبي بكر-رضي الله عنه-ظاهر الدلالة في الربط بين جملتيه، واتصال كل منهما بالأخرى، عن طريق المقابلة بينهما، وإحالة اللاحق منهما إلى السابق، مع شدة التناسب والتماثل بينهما في طريقة البناء، وفي عدد الكلمات؛ ليعكس هذا التماسك والاتصال اللفظي بين العبارتين إيحاء معنويًا؛ يكمن في فرط رغبة أبي بكر-رضي الله عنه-أن يكون عمل الخليفة من بعده في إصلاح أمر الرعية والقيام على شئونها ديمة ومستمرًا، وأن يكون بذله في استقامة الأمة، وتقويم معوجها متصلًا، فلا ينبغي أن يني أو يفتر، أو يتخاذل أو يتقاعس في النصيحة والاجتهاد بالليل والنهار.

وكذلك الشأن في وصية عبد الملك لأولاده؛ تجري على هذا المنوال، إلا أن العنصر الأبرز في تأليف الجملتين واتصالهما هو هذا الإيقاع المؤثر الذي نشأ من السجع المرصع الذي اتفقت فيه فاصلتاه في الوزن والتقفية، كما اتفقت أكثر ألفاظ القرينتين في ذلك-أيضًا-؛ لظهور التناسب التام بين جميع ألفاظ القرينيين، أو

---

(1)المرجع نفسه صـ 76.
(2) المعمرون والوصايا صـ 178.
(3)نفس المرجع صـ191.
(4) نفس المرجع صـ193.

أكثرهما، فالأسلوب مقسم، والمقاطع متشاكلة، والأوزان متشابهة، والنغم متناسق، وهذا مؤداه إلى ربط الكلام، وتلاحم نسيجه.

الصورة العاشرة
التماسك النصي بأسلوب الاستطراد

الاستطراد معناه: أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض آخر؛ لمناسبة بينهما، ثم يرجع إلى إتمام الأول [1]، أو هو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به، لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني، وقد يكون الثاني هو المقصود، فيذكر الأول قبله ليتوصل إليه [2].

وهو من الفنون البديعية التي تسهم إسهامًا لافتًا في حبك النصوص وتماسكها، وترابط أجزائها وتآلفها، وهذه سمة ظاهرة جدًا من التعريف السابق، الذي يفصح لمن يتأمله عن وجه التماسك ومنشؤه في هذا الأسلوب، والذي ينحصر في وجهين، الأول: أن الاستطراد بحكم ما فيه من علاقات دلالية قد يتجاوز – كثيرًا – مستوى الجملة الواحدة أو الجملتين إلى قابلية التحقق على مستوى الفقرة أو النص، وحينئذ يصبح الاستطراد هو وسيلة السبك أو الحبك بين الجمل والفقرات، أو في النص بتمامه؛ لما يثيره في النفس من حركية داخلية موارة، تتمثل في التشوق إلى تمام الكلام، والتطلع إلى الوفاء بالمعنى والغرض الذي جاوزه المتكلم بالاستطراد إلى معنى آخر له به صلة، والتشويق عنصر فاعل، وعلاقة مؤثرة من علاقات الربط والتماسك في الأنساق التعبيرية المختلفة.

الثاني: وجود نوع من العلاقة والوشيجة الحميمة بين المعنى المنتقل منه، والمعنى المنتقل إليه، والعكس، إذ لا بد أن يكون المعنى الثاني المنتقل إليه متلائمًا مع المعنى الأول المنتقل عنه، ومتناسبًا معه، ومتصلًا به نوعًا من الاتصال والارتباط، كأن يكونا واقعين في حيز واحد، أو يكون بينهما تباين وتقابل، أو يكون المأخذ فيهما واحدًا، وقد يكون متخالفًا، وقد يكون أحدهما موجهًا من بعض جهات التوجيه نحو النسب الإسنادية إلى ما وجه إليه الآخر، إلى غير ذلك من أوجه التناسب والتلاؤم التي يمكن أن تصل المعنيين، وتجمع بينهما برباط غليظ، وتحقق التماسك النصي والترابط الدلالي في نسق الكلام[3].

فإن عدم هذا الاتصال أو كان وجه التلاؤم بعيدًا لم يبق للاستطراد معنى أو قيمة، وكان الكلام مستقبحًا، أو كان كما يقول حازم: من قبيل الحشو الذي لا يحسن[4].

والناظر في وصايا المعمرين يجد أن أربابها قد اتكأوا على هذا النمط الأسلوبي في تركيب وصاياهم، وحبك معانيها، وتأليف أغراضها، وشد مبانيها؛ فقلما تخلو من الاستطراد وصية من هذه الوصايا.

ووراء هذا في سياقاته وموارده ما وراءه من إيحاء قوي بتشبع وجداناتهم، وامتلاء نفوسهم بكثرة من المعاني والمضامين، والنصائح والتوجيهات التي

---

(1) ينظر جواهر البلاغة للهاشمي صـ290.
(2) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني صـ199، 200.
(3) ينظر منهاج البلغاء لحازم القرطاجاني صـــ60.
(4) ينظر المرجع نفسه صـــ61

تزاحمت في خواطرهم، وتواردت على أذهانهم، حتى ماجت بها ألسنتهم، كما ينبئ -من وجه أخر-عن نهاية تمكنهم من اللغة، وقدرتهم على تفريع المعاني، وتوليد بعضها من بعض.

وقد جاء الاستطراد في وصايا المعمرين على عدة مستويات؛ فجاء على مستوى الجملة الواحدة أو الجملتين، وجاء على مستوى الفقرة أو المعاقد الجزئية، كما تجاوز هذا كله إلى مستوى الوصية كلها.

فمما جاء من مواضعه في الوصايا على المستوى الأول قول أكثم بن صيفي في وصيته لجهينة، ومزينة، وأسلم، وغيرهم من بطون العرب لما طلبوا منه شيئا يحدثهم به: "أشراف القوم كالمخ للدابة، فإنما تنوء الدابة بمخها، وأشد الناس مؤونة أشرافهم"[1]، فقد استطرد أكثم من تشبيه أشراف القوم بالقياس إلى العامة بالمخ للدابة في قوله: "أشراف القوم كالمخ للدابة" الذي يجسد عظم المسئولية الملقاة على عاتقهم، ويصور دورهم البالغ الأهمية والخطورة في حفظ التوازن والثبات المجتمعي بين الطبقات، وأن بقيامهم يقوم الناس، ويسقطون بسقوطهم، إلى الحديث عن مخ الدابة نفسه في قوله: " فإنما تنوء الدابة بمخها" الذي يبرز أثر المخ في حفظ توازن الدابة وثباتها.، وأنها تنهض به، وتسقط بسقوطه، ثم عاد إلى إتمام الحديث عن الأشراف في قوله: "وأشد الناس مؤونة أشرافهم".

ووجه التناسب والتلاؤم بين الاستطراد والجملة السابقة عليه في غاية الظهور؛ لأن الاستطراد جاء بيانا وإيضاحا للوجه الجامع بين المشبه والمشبه به في التشبيه السابق، كما أن مأخذ الكلامين كان واحدًا، وتوجه كل واحد منهما إلى ما توجه إليه الآخر، وبهذا ظهر أثر الاستطراد في الجمع بين عناصر النسق، وشد مفاصله، وتأليف اللاحق مع السابق وربطه به، والعكس، وتأكيد الفكرة والمضمون الذي يحوم حوله الكلام وتقريره.

وقول أكثم-أيضًا -من وصيته لملك هجر: "وخير الأمور مغبة ألا تني في استصلاح المال، وإياك والتبذير، فإن التبذير مفتاح البؤس؛ ومن التواني والعجز نتجت الهلكة"[2]، فقد استطرد من حديث استصلاح المال وعدم الركون أو التراخي في تثميره، وتكثيره في قوله: " وخير الأمور مغبة ألا تني في استصلاح المال "إلى ذكر التبذير والتحذير منه ببيان سوء عاقبته، وأثره في حصول البؤس والشقاء؛ لاتصال هذا بذاك، وظهور التناسب الشديد، والتلاؤم القوي بينهما؛ لتباين الأمرين: استصلاح المال والتبذير ومقابلة كل منهما الآخر، ثم عاد إلى إتمام الكلام الأول واستيفائه في قوله: " ومن التواني والعجز نتجت الهلكة"، فالتواني في استصلاح المال والعجز عن تثميره وتكثيره يؤدي إلى الهلكة والضياع، ليعمق الاستطراد في موضعه وحدة النص وترابطه، ويؤكد على اتصال اللاحق بالسابق والعكس، ويلفت إلى خطورة التبذير، وينبه إلى أثره السيئ في ضياع المال وهلكته، ومنافاته التامة لاستصلاح المال ومعالجته.

ومن هذا المستوى -أيضًا -قول دريد بن الصمة في وصيته لقومه: " أما أول ما أنهاكم عنه فأنهاكم عن محاربة الملوك؛ فإنهم كالسيل بالليل، لا تدري كيف تأتيه،

---

(1) المعمرون والوصايا ص ٣٠

(2) المعمرون والوصايا ص ٣٥

ولا من أين يأتيك، وإذا دنا منكم الملك واديًا فاقطعوا بينكم وبينه واديين"[1]، فقد بدأ دريد وصيته بنهي قومه عن محاربة الملوك أو معاداتهم في قوله: " أما أول ما أنهاكم عنه فأنهاكم عن محاربة الملوك "، ثم استطرد من هذا الحديث إلى تشبيه الملوك بالسيل الواقع في ظلام الليل في قوله: " فإنهم كالسيل بالليل "، ثم استطرد من هذا التشبيه إلى وصف السيل نفسه في قوله: "لا تدري كيف تأتيه، ولا من أين يأتيك"، فهو استطراد في استطراد، ثم رجع إلى إتمام الحديث الأول مرة أخرى، وحذر من الاقتراب من الملوك أو الدنو منهم في قوله: "وإذا دنا منكم الملك واديًا فاقطعوا بينكم وبينه واديين".

وقد بدا الاستطراد متجانسًا مع ما قبله، ومتناسبًا معه، ومؤتلفًا به على نحو قوي ومتين؛ لأنه جاء تأكيدًا للنهي السابق عليه، وترسيخًا له؛ فمأخذ الكلامين واحد، ووجهتهما واحدة؛ ليتعانق الاستطرادان في موضعهما-هنا-على تعميق وحدة النص، وتماسك أجزائه وعناصره، وتصوير الخطر الداهم والشر المحدق المهول، الماثل في معاداة الملوك أو محاربتهم، وإثارة مشاعر القلق والاضطراب، والخوف والفزع من الاقتراب منهم في حالتي الحرب والسلم؛ لعدم القدرة على التحكم بهم، أو السيطرة عليهم، أو توقع غائلتهم، كما لا يمكن التحكم بالسيل أو السيطرة عليه، وتوقع مفيضه.

وقد يجيء الاستطراد على مستوى فقرة أو معقد واحد من معاقد المعنى داخل الوصية؛ كقول أسيد بن أوس للحارث بن الهبولة الغساني: " والعفو منتهى البر، إلزم البر يبرك بنوك، أخر الغضب، وادفع بالأناة، وآخر الدواء الكي، وخير الثواب الشكر، وخطل القول غواية، ومنتهى البر الهوى"[2]، فقد استطرد الرجل من ذكر البر في قوله في مفتتح الفقرة: "العفو منتهى البر" إلى ذكر أمور لها تعلق شديد به، وبينها وبينه صلة قوية، وأوجه تناسب وتلاؤم ظاهر؛ فإن ما ذكره من لزوم الآباء والأبناء بر بعضهم بعضًا، وتأخير الغضب، وإهمال العقوبة والتجاوز عنها، والجزاء على الإحسان بالشكر كل هذا من مجالات البر، ومن واديه؛ إذ البر اسم جامع لكل معاني الخير والفضل، ثم عاد من هذه الأمور إلى ذكر البر مرة أخرى؛ ليتم ما بدأه، ويختم حديثه عنه في نهاية الفقرة في قوله: "ومنتهى البر الهوى"؛ ليرجع الكلام إلى أوله، وينسجم أوله مع آخره في وحدة نصية متماسكة، كان الاستطراد هو الحبل الذي يشد علائقها، ويصل بين وشائجها؛ للتأكيد على مبدأ العفو، والتعامل من منطلق البر والفضل، والإحسان في جميع الأحوال، وفي كافة المواقف.

وكقول المهلب بن أبي صفرة في وصيته لبنيه:" أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم؛ فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإن صلة الرحم تنسيء في الأجل، وتثري المال وتجمع الشمل، وتكثر العدد، وتعمر الدار، وتعز الجانب، وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم، فإن معصية الله تعقب النار، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذلة، وتفرق الجمع، وتدع الدار بلاقع، وتطمع العدو، وتبدي العورة"[3] حيث استطرد

---

(1) المعمرون والوصايا ص ٤١
(2) المعمرون والوصايا ص ١٧٥.
(3) المعمرون والوصايا ص ١٦٩

المهلب من ذكر الرحم في الجملة الأولى" أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم " إلى أمور تتعلق بها، وتدور في فلكها؛ لأنها في بيان صلة الرحم، وتفصيل أثرها الطيب ومردودها الحسن على الفرد والمجتمع، ثم عاد إلى ذكر الرحم مرة أخرى في قوله: " وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم" واستطرد منه إلى بيان الأثر السيء المترتب على صرمها وقطيعتها، متممًا بذلك ما بدأ، وبهذا بدا وجه التناسب والتلاؤم بين أول الكلام وآخره ظاهرًا وقويًا، من خلال هذا الاستطراد الذي كانت له اليد الطولى في شد عرى الكلام، وتأليف عناصره؛ لقوة الصلة، وعمق الرابطة التي تجمع بين اللاحق والسابق؛ لأن الاستطراد في الغالب إما تفصيل لما سبق، أو تفسير له، أو مؤكد لمضمونه، أو مباين لمعناه.

وقد يتجاوز الاستطراد مستوى الفقرة الواحدة، أو الغرض الواحد، إلى الوصية كلها، فتخرج إلى آخر جملة فيها مخرجه، وليس أدل على ذلك من وصية الحارث بن كعب لبنيه لما حضرته الوفاة: "يا بني عليكم بهذا المال، فاطلبوه أجمل الطلب، ثم اصرفوه في أجمل مذهب"[1]، حيث بدأها بتحريض أولاده على طلب المال واقتنائه من الحلال، وعلى بذله وإنفاقه في الحلال -أيضًا-، ثم استطرد من ذلك إلى تفصيل وجوه كسبه وصرفه، وتصوير أثره في حياة الناس في قوله: "فصلوا به الأرحام، واصطنعوا منه الأقوام، واجعلوه جنة لأعراضكم تحسن في الناس قالتكم، فإن بذله تمام الشرف، وثبات المروءة، وإنه ليسود غير السيد، ويؤيد غير الأيد[2]،حتى يكون عند الناس نبيها، وفي أعينهم مهيبًا" [3]، ثم استخرج من رحم هذا الاستطراد استطرادًا آخر ذكر فيه حال من ضن بالمال، وحرص على اقتنائه، ولم يبذله في وجوهه ومصارفه، إلى آخر الوصية:" ومن اكتسب مالًا، فلم يصل به رحمًا، ولم يعط منه سائلاً، ولم يصن به عرضًا بحث الناس عن أصله، فإن كان مدخولا هرتوه وهتكوه[4]، وإن لم يكن مدخولا ألزموه دنية، وأكسبوه عرقا لئيما؛ حتى يهجنوه به"[5]، وهكذا تعانق أول الوصية مع آخرها، و ارتد ختمها إلى مطلعها عن طريق الاستطراد الذي تضافر مع الإيضاح بعد الإبهام، وإخراج الوصية في معظم قرائنها مخرج التعليل -على تصوير أثر المال وفاعليته في حياة الفرد والمجتمع؛ والتنبيه إلى خطورته، واللفت إلى أنه سلاح ذو حدين؛ إما أن يكون لك، وإما أن يكون عليك.

وليس أدل على ذلك -أيضًا -من وصية أمامة بنت الحارث[6]، التي تمثّل أنموذجًا فريدًا في هذا؛ فقد خرجت من أولها إلى آخرها على هذا النحو من الاستطراد، حيث أوصت ابنتها بعشر خصال، ذكرتها إجمالا في أول الوصية على هذا النحو: " واحفظي عني خصالا عشرا تكن لك دركًا وذكرًا"، ثم أخذت في ذكر اثنتين اثنتين منها، على هذا النحو: " فأما الأولى والثانية، فالمعاشرة له بالقناعة،

---

(1) المرجع السابق ص١٤٥

(2) الأيد: القوى الشديد، وغير الأيد الضعيف/ لسان العرب/ أيد، 188/1.

(3) المعمرون والوصايا ص ١٤٥

(4)الهرت: ذم العرض والطعن فيه، والهتك: خرق الستر عما وراءه والفضيحة، لسان العرب، هتك-هرت 4612/6-4647.

(5) المعمرون والوصايا ص ١٤٥

(6) المعمرون والوصايا ص ١٤٢

وحسن السمع له والطاعة"، ثم استطردت منهما على طريقة التقسيم إلى ذكر أثرهما، وخطورة دورهما في تحقيق السعادة الزوجية، هكذا: " فإن في القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب"، ثم رجعت منه إلى إتمام سائر الخصال اثنتين اثنتين -أيضًا -إلى آخر الوصية، وعلى هذا النهج من الاستطراد والتقسيم الذي عمل على تماسك الوصية، وتداخل أجزائها وعناصرها، وتكاثر معانيها، وتنامي أغراضها، حتى أضحت كالسبيكة المفرغة، واللحمة الواحدة لفظًا ومعنى، شكلاً ومضمونًا.

الصورة الحادية عشرة
التماسك النصي بأسلوب الإرصاد أو التسهيم

الإرصاد أو التسهيم من الوسائل البنيوية التي لها دور كبير، وأثر بارز في تماسك النص اللغوي، وترابط أجزاء الكلام بعضها ببعض، بل هو في أصل بعده الوظيفي يقوم على تحقيق هذه الغاية، والوفاء بهذا المطلب؛ لدلالة أول الكلام على آخره، وشهادة صدره بعجزه، وأن اللفظة فيه تقتضي ما بعدها وتستدعيه، وهذا ظاهر غاية الظهور لمن يراجع تعريف البلاغيين لهذا الفن البديعي؛ فقد عرفه الخطيب القزويني بقوله: هو "أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز، إذا عرف الروي"[1].

وهو بهذا البعد يكتسب قيمة، ويتبوأ منزلة في البلاغة؛ إذ من المقرر المعلوم أن خير الكلام ما دل بعضه على بعض، وأخذ بعضه برقاب بعض، حتى يصير كالسبيكة المفرغة، أو الوشي المنمنم، أو العقد المنظم المؤلف من جوهر متشاكل، فلا تتنافر حباته، ولا ينفرط انتظامه.

ويرجع السبب الجوهري في اضطلاع الإرصاد بهذه المهمة، وقيامه بعبء الربط الدلالي بين صدر الكلام وعجزه، وبدايته ونهايته؛ لنهوضه في الأصل على علاقة التلازم؛ لأن العجز إما نتيجة مترتبة على الصدر، ومسببة عنه، وإما دليلًا مصححًا، وبرهانًا كاشفًا –على وجه التعليل-عن وجاهة الحكم وواقعيته، وإما مقابلًا ومطابقًا له، وإن شئت أن تقف على صحة هذا الاستنباط، وواقعية هذا التحليل، فراجع شواهد البلاغيين لهذا اللون البديعي وتأملها جيدًا يتجه عندك هذا التوجه، وتتأكد لديك هذه النتيجة.

والإرصاد في وصايا المعمرين –باعتباره وسيلة من وسائل السبك والمزج، والربط والضم-لا يخرج عن هذا الإطار، ولا يحيد عن هذا النهج؛ فقد يكون عجزه كأنه نتيجة مترتبة على صدره ومسببة عنه، وتكون بدايته كأنها مقدمة وتمهيد لنهايته، ودليل هذا أن تراجع قول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: "إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عن الزوج"[2]، فإن العارف بالكلام، الحاذق فيه، المتمرس بصناعته يعلم يقينًا أن وقوع لفظة "استغنت" في صدر العبارة يوجب أن تكون فاصلة الجملة من مادة الاستغناء، على النحو الذي جاءت عليه: " كنت أغنى الناس عن الزوج"؛ لخروجها مخرج

---

(1)الإيضاح للخطيب صـ198.
(2)المعمرون والوصايا صـ141.

النتيجة المترتبة عليه، والمسببة عنه؛ بقرينة إخراج عبارتها في معرض الشرط والجزاء، وارتباط الشرط بالجزاء ارتباط السبب بالمسبب، وبهذا تشابكت عناصر الكلام، وتمازجت أجزاؤه، وتناظرت بداياته ونهاياته.

ولك أن تراجع قول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: "من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له، وكان الباطل أولى به، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق"[1]، وقول دريد بن الصمة في وصيته لقومه – أيضًا-: "أما أول ما أنهاكم عنه فأنهاكم عن محاربة الملوك، فإنهم كالسيل بالليل، لا تدري كيف تأتيه، ولا من أين يأتيك، وإذا دنا منكم الملك واديًا فاقطعوا بينكم وبينه واديين، وإن أجدبتم فلا ترعوا حمى الملوك وإن أذنوا لكم"[2]، وقول معاوية – رضي الله عنه-في وصيته ليزيد، وهو من أظهر ما في هذا الباب: "يابني، انظر أهل العراق، فإن سألوا عزل عامل في كل يوم فاعزل عنهم، فإن عزل عامل أهون من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، ثم لا تدري على ما أنت منهم"[3]، فإنك تجد عجز كل فقرة منها، وهو حسب ترتيبها على النحو الآتي: "لم يجتمعا له-فاقطعوا بينكم وبينه واديين-فاعزل عنهم" قد تناظر إلى صدرها، وتشابك معه؛ لدلالة الصدر عليه من خلال تلك القرينة التي نصبها المتكلم في صدر عبارته؛ كلفظة "جمع" في وصية عامر، ولفظتي: "دنا، ووديا" في وصية دريد، ولفظة "عزل" في وصية معاوية، وارتباط كل منهما بالآخر ارتباط السبب بالمسبب، والمقدمة بالنتيجة؛ بقرينة بروزها في معرض الشرط والجزاء، فاشتد التماسك، وقوي التلاحم والاتصال بين أجزاء الكلام بعضها ببعض.

وقد تكون نهاية الإرصاد مطابقة لبدايته، كقول صيفي بن رباح والد أكثم: "سلطانك على أخيك في كل حال، فإذا أخذ السيف فلا سلطان لك عليه"[4]، وقول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: "وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق"[5]، وقول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: "فكوني له أمة يكن لك عبدًا"[6]، وقول مالك بن المنذر لبنيه: "يابني كونوا جميعًا، ولا تفرقوا فتكونوا شيعًا، فإن موتًا في عز خير من حياة في ذل وعجز"[7]، فإن الذي خبر الكلام وراضه يعلم أن فواصله في المقاطع السابقة سوف تكون على هذا النحو الذي جاءت عليه: "فلا سلطان لك عليه-ينفر من الباطل-ينفر من الحق-يكن لك عبدًا-حياة في ذل وعجز"، وأنها ستكون على الضد والنقيض من بدايتها؛ لأن المتكلم رصد في صدر عبارته قرينة تدل على عجزها، وهي في الموضع الأول: "سلطانك على أخيك"، وهي في الموضع الثاني كلمة: "الباطل" في الجملة الأولى، وكلمة: "الحق" في الجملة الثانية، وهي في الموضع الثالث والرابع كلمات: "أمة"، و"موتًا-خير"، وقد كان للتباين الحاصل بين البدايات والنهايات دور كبير، وأثر

---

(1)المرجع نفسه صـ77.
(2)المرجع نفسه صـ41.
(3)المعمرون والوصايا صـ186.
(4)المرجع نفسه صـ 175.
(5)نفس المرجع صـ77.
(6)نفس المرجع صـ141.
(7)المعمرون والوصايا صـ 147،

بارز في تعميق قوة الارتباط، وتجسيد شدة الائتلاف بينهما؛ لما هو معلوم من تلازم الضدين، واقتران كلٍ منهما بصاحبه في المخيلة المفكرة.

وقد تكون نهاية الإرصاد وعجزه كأنها دليل مصحح، وبرهان كاشف -على وجه التعليل-عن صحة الحكم الذي اشتمل عليه صدره، بعد أن رصد فيه المتكلم ما يقود إلى آخره، وينطق به، وهذا النوع ليس في كثرته كالنوعين الأولين؛ لأنه لا يتأتى في الوصايا إلا إذا جاء الإرصاد في طوايا بعض الفنون البديعية الأخرى واقترن بها في عبارة واحدة، كأن يجئ في سياق التقسيم مثلًا، وإن شئت أن أقيم لك الدليل على ذلك فراجع وصية المهلب بن أبي صفرة لأولاده: "أوصيكم بتقوى وصلة الرحم، فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل، وتكثر العدد، وتعمر الدار، وتعز الجانب.

وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم، فإن معصية الله تعقب النار، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذلة، وتفرق الجمع، وتدع الدار بلاقع، وتطمع العدو، وتبدي العورة"[1]، فإن الخبير بتصاريف القول، وفنون الخطاب يعلم يقينًا أن عجز التقسيم الثاني الماثل في قوله: "وأنهاكم عن معصية الله، وقطيعة الرحم" وتفصيله ستكون للمتعدد الأول: "معصية الله" من جنس العذاب في النار، وستكون للمتعدد الثاني "وقطيعة الرحم" من جنس القلة والذلة، والفرقة والخراب، وطمع الأعداء، وانكشاف العورات؛ لا سيما وأن المهلب قد نصب تفصيل تقسيمه الأول: "فإن تقوى الله تعقب الجنة، وأن صلة الرحم تنسئ في الأجل....." دليلًا وعلامة تنبئ عن عجز تقسيمه الثاني وتفصيله، وانه سيكون من جنس ما سبق تفصيله وذكره، وهكذا تتشابك بدايات الكلام ونهاياته، وتتعانق –من خلال الإرصاد-خواتيمه مع مطالعه وفواتحه في نسج الوصايا على نحو من الدقة والإحكام الذي يرتد في النهاية إلى المعنى توكيدًا وتقريرًا وتثبيتًا وتمكينًا.

---

(1)المعمرون والوصايا صـ169.

المحور الرابع
"التماسك النصي بأساليب الإيضاح بعد الإبهام"

تعد أساليب الإيضاح بعد الإبهام من أقوى وسائل التماسك النصي والترابط البنيوي في أنساق الكلام عمومًا، وفي وصايا المعمرين خصوصًا؛ لنهوضه –أولًا- على علاقة التفسير التي تتكئ على عنصر التشويق في تحقيق هذا البعد؛ ولأنه يمثل –ثانيًا-وجهًا من وجوه الإحالة، وصورة من صورها التي تعمل على توثيق عرى الكلام.

وليس للإيضاح بعد الإبهام صورة مطردة، ولا نمط تركيبي واحد، بل تتعدد أساليبه، وتتنوع أنماطه؛ لتعدد أسبابه، واختلاف مناشئه، مما هو مذكور بالتفصيل في كتب البلاغة.

لكن الذي تدور عليه الدراسة في هذا المحور ثلاث صور فقط، جمع البحث بين اثنتين منها في مطلب واحد، وهي التفصيل بعد الإجمال، واللف والنشر، والتقسيم، وأما ما عداها فقد تجاوزه البحث اكتفاءً بدراسته فيما سبق من محاور.

الصورة الأولى
التماسك النصي بالتفصيل بعد الإجمال

التفصيل بعد الإجمال، والإيضاح بعد الإبهام من صور الإطناب في المعنى، وهما مصطلحان لمسمى واحد؛ ولذلك يقترنان في كتب البلاغة دوماً، حتى استحسن العصام في الأطول تسمية الإيضاح بعد الإبهام تفصيلاً بعد إجمال[1] غير أن الأرجح من وجهة نظر البحث أن كل تفصيل بعد إجمال إيضاح بعد إبهام، وليس كل إيضاح بعد إبهام تفصيلاً بعد إجمال، فبينهما عموم وخصوص.

ويمثل التفصيل بعد الإجمال خصيصة من أبرز خصائص التماسك النصي، وتلاحم النسيج البنيوي في وصايا المعمرين، فقلما تخلو منه وصية من هذه الوصايا.

ومرد ذلك إلى أمرين، الأول: أنه يقوم على علاقة التفسير التي يعول عليها في التأليف بين أنساق الكلام؛ إذ التفسير منه ما يكون للتعليل، ومنه ما يكون للسببية، ومنه ما يكون لبيان الغاية، ومنه ما يكون للإيضاح، ومنه ما يكون تفسير إجمال وتفصيل[2]، وهذان الأخيران هما موضع اهتمام البحث في هذا المقام، حيث يتضمن الكلام الأول معنى مبهماً مجملاً، تتشوق النفس معه إلى البيان والتفصيل، فتأتي الجملة الثانية بياناً وتفصيلاً للكلام الأول، فتلبي تطلعات النفس ورغباتها، ويأتلف أول الكلام مع آخره، ويرجع آخره إلى أوله، وهذه عوامل يعول عليها كثيراً في تحقيق جانب كبير من أهداف تلك الوصايا، وترسيخ غاياتها، وغرس مضامينها في نفوس المتلقين.

---

(1)ينظر الأطول للعصام81/2، تحقيق: د/عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى 2001م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(2) ينظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني صـ75

والثاني: أنه يمثل إحالة قبلية؛ لأنه في الأصل يقوم على شرح ما سبق إجماله، وتفسير ما سبق إبهامه، فيتأكد الجواب الإجمالي بهذا الجواب التفصيلي، ويأتلف معه، ويتصل به، وهذا هو معنى التماسك.

والغالب في هذا النمط الأسلوبي أن يقع في مستهل هذه الوصايا، وفي بداياتها، وهذا من براعة الاستهلال، وحسن الابتداء؛ إذ يظل به المتلقي مشوقاً إلى تفصيل هذه الوصايا، مشدوداً إلى نهاياتها، وهذا من شأنه أن يعمق من التماسك النصي وائتلافه، وترابطه وانسجامه في هذه الوصايا، وأن يعمل في الوقت ذاته على تقرير مضامينها وتوكيده، وتثبيت غاياتها وأهدافها في النفوس والقلوب.

وتبيان ذلك أن تعود إلى هذه الوصايا لتقف بنفسك على صحة هذا الاستنباط، ووجاهة هذا التحليل، راجع وصية نهد بن زيد لبنيه، قال: "يا بنيّ، أوصيكم بالناس شراً، كلموهم نزراً، واطعنوهم شزراً، ولا تقبلوا لهم عذراً، ولا تقيلوهم عثرة، وقصروا الأعنَّة، واشحذوا الأسنَّة تأكلوا بذلك القريب، ويرهبكم البعيد، وإياكم والوهن فيطمع فيكم الناس"[1]، فإنك واجدها من أولها إلى آخرها قد برزت في معرض التفصيل بعد الإجمال والإيضاح بعد الإبهام؛ فقوله: "أوصيكم بالناس شراً" كلام مجمل مبهم يتطلب تفصيلاً، ويقتضي بياناً، فتأتي جمل الوصية وعباراتها بعد ذلك إلى آخرها بياناً لهذا الشر الموصي به، وتفصيلاً لكنهه، فارتبط أول الوصية بآخرها، ورجع آخرها إلى أولها، وبهذا حصل التماسك، ووقع التناصر، وتقرر المعنى، وتأكد المراد.

وراجع وصية أمامة بنت الحارث لابنتها: "أي بنية، إنك قد فارقت الحِواء الذي منه خرجت، والوكر الذي منه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه.... واحفظي عني خصالاً عشراً، تكن لك دركاً وذكرا، فأما الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة....."[2] فإنك تجد الوصية في عمومها تفصيلاً لهذه الخصال العشر التي أجملت ذكرها أولاً في قولها: "واحفظي عني خصالاً عشراً" ثم أعقبته بذكرها مفصلة، واحدة تلو الأخرى.

وقد تداخل مع عنصر الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال عناصر أخرى عمقت من تماسك الوصية، وعضدت من تلاحم بنيتها التركيبية، كالتقسيم، واللف والنشر، وإخراج الكلام مخرج التعليل، وذلك على الوجه الذي سبق بيانه في مواضعه، حتى أضحت الوصية وحدة نصية متعانقة، وبناءً لغوياً متشابكاً يشد بعضه بعضا.

وقد يقع الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال في وسط الوصية وثناياها، وهذا النمط دون الأول في القوة والإحكام؛ إذ يقتصر في بعده الوظيفي على شد معقد المعنى الذي وقع فيه، والغرض الذي جاء له، بينما يرتبط في نسقه بما قبله أو بما بعده من معاقد بوسائل نصية أخرى، ولك أن تنظر في بيان ذلك إلى وصية معاوية بن أبي سفيان-رضي الله عنهما-لابنه يزيد قال فيها: "وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا ثلاثة نفر، الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فأما ابن عمر فرجل وقذته العبادة، وتخّلى عن الدنيا، وشغل نفسه

---

(1) المعمرون والوصايا صـ39.

(2) نفس المرجع صـ141-142.

بالقرآن، ولا أظنه يقاتل إلا أن يأتيه الأمر عفوا، وأما الذي يجثم جثوم الأسد، ويروغ روغان الثعالب، وإن أمكنته فرصة وثب فابن الزبير، فإن هو فعل فاستمكنت منه فقطِّعه إرباً إرباً إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك تقبل قلوبهم إليك، وأما الحسين بن علي فإن له رحماً وحقاً، وولادة من رسول الله ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه، حتى يخرجوه عليك، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو كنت صاحبه لعفوت عنه"[1]؛ فقد بدأ معاوية هذا المقطع من مقاطع الوصية بهذا الإجمال المثير: "وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا ثلاثة نفر" الذي تتشوق معه النفس إلى معرفة كنه هؤلاء الثلاثة الذين يخشى معاوية منازعتهم ولده الأمر من بعده، ثم أتبعه بالتفصيل في قوله: "الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير" وقد خرج هو الآخر مخرج الإجمال الذي يتطلب بياناً وإيضاحاً؛ فلم يذكر معاوية من أمر الثلاثة شيئاً، ولم يكشف عن وجه منازعتهم يزيد الأمر وكيفيته، ثم استخرج من رحم هذا التفصيل المجمل تفصيلاً آخر مفصلاً، خرج مخرج التقسيم الوارد على جهة التعيين: "فأما ابن عمر فرجل وقذته العبادة....."، "وأما الذي يجثم جثوم الأسد، ويروغ روغان الثعالب.....فابن الزبير....."، " وأما الحسين بن علي فإن له رحماً وحقاً....." فأماط بذلك اللثام عن وجه المنازعة، وكيفية المخاصمة، ثم استطرد في كل تفصيل من التفصيلات الثلاثة إلى بيان الوجه الأمثل في معالجة الأمر، وكيفية التعاطي معه إن وقع: "فأما ابن عمر.... ولا أظنه يقاتل إلا أن يأتيه الأمر عفوا"، وأما ابن الزبير:"..... فإن هو فعل فاستمكنت منه فقطعه إرباً إرباً، إلا أن يلتمس منك صلحاً....."، "وأما الحسين بن علي فإن له رحماً وحقاً وولادة من رسول الله ﷺ.....فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو كنت صاحبه لعفوت عنه" لتتعانق كل هذه الوسائل على تكثيف المعنى، وتكثير الدلالة، وتصوير الغرض، وتتعاضد على إحكام نسيج الوصية، وتماسك بنائها، بينما تعانق هذا المعقد الأخير من الوصية مع ما قبله، والتحم به من تكرار أسلوب النداء الموجه إلى ابنه "يزيد" خاصة: "يا يزيد" على رأس كل معقد من معاقد الوصية.

وقد أجاد معاوية –رضي الله عنه-حين أخر بيان أمر الحسين بن علي –رضي الله عنهما-إلى ما بعد بيان أمر ابن عمر، وابن الزبير؛ ليكون أمره آخر ما يقرع سمع ولده، فلا يذهل عنه؛ تأكيداً على عظيم حقه، وتشديداً على غلظ حرمته.

كما بدأه–أولاً-بتذكير يزيد بحق الحسين، وتنبيهه إلى صلته برسول الله ـــــ ﷺ ـــ: "فإن له رحماً وحقاً وولادة من رسول الله ﷺ" الذي يوجب العفو والصفح عنه، وختمه ثانياً بحثه-أيضاً-على الصفح والتجاوز عنه إن قدر عليه، ووكد ذلك وشدد بقياس حال ولده في ذلك على حال معاوية، لو وضع الأب في موضع ابنه: " فإني لو كنت صاحبه لعفوت عنه" ليقع أمر الحسين بين عفوين، وشأنه بين صفحين، ولا يغلب عسر يسرين، وليت يزيدًا استمع وأنصت.

وغير هذا وذاك مما وقع فيه الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال في بدايات الوصايا ومستهلها، أو في ثناياها ومعاقدها كثير كثير، مما كان لهذا النمط

---

(1)المعمرون والوصايا صـ189.

الأسلوبي أكبر الأثر في ربط الوحدات النصية في نسق هذه الوصايا وتماسكها، وتآخيها وتعانقها، وائتلاف المجمل والمفصل على تقرير المعنى وتصوير الغرض.

الصورة الثانية
التماسك النصي بأسلوبي اللف والنشر، والتقسيم

يعد أسلوبا اللف والنشر، والتقسيم من أبرز وسائل حبك المعاني، وتلاحم النصوص، وتماسك الكلام؛ لأن العلاقة الرابطة التي تجمع بين عناصر كل منهما هي علاقة الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، فكل منهما مركب من طرفين يحتاج كل منهما إلى الآخر ويفتقر إليه؛ حيث يذكر المعني فيهما –أولًا- مجملًا مبهمًا، فتتشوق النفس إلى تمامه، وينشط العقل لتصوره وإيضاحه، ثم يفصل –ثانيا-بذكر صفات أفراده، ويوضح ببيان شيات أجزائه، ففي الثاني إحالة إلى الأول، وفي الأول ارتباط بالثاني، وهذا هو وجه التماسك والتآلف [1].

ومع قوة هذا النوع من الروابط النصية التي تشد الكلام بعضه إلى بعض، وتأخذ بحجزه إلا أنه في وصايا المعمرين يجري على نحو من القلة والندرة، فلم يتكئ عليه أصحاب الوصايا في تماسك تراكيب وصاياهم وتآخيها إلا قليلًا.

ومرد ذلك –إلى جانب دقته وقوته، وصعوبة مسلكه-إلى جريانه على نهج الأوائل في عدم التكلف والتمحل، وتجنب التقعر والتشدق، والبعد عن الإفراط في استخدام البديع إلا ما جاء عفو الخاطر، ومن غير كد في طلبه واستدعائه؛ فإن غالب هذه الوصايا قيل في العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام، وأنها في مجملها صدرت عن تجربة صادقة، ومشاعر حقيقية خالصة، وحوت بين جنباتها خبرات حياتية، قد عركها الزمن، وصقلها طول العمر.

وقد جاء كل من أسلوبي اللف والنشر، والتقسيم في أكثر صورهما في هذا الجنس من الوصايا من الصورة التي يذكر فيها المتعدد أولًا على سبيل الإجمال، ثم يذكر ما لكل منهما –ثانيًا-على جهة البيان والتفصيل، إما تعيينًا، كما في التقسيم، وإما من غير تعيين؛ تعويلًا على قريحة السامع، كما في اللف والنشر.

أما اللف والنشر فقد جاء أكثره من المرتب الذي يكون النشر فيه على لفق اللف وترتيبه، فيرجع الأول من النشر للأول من اللف، والثاني للثاني، وهكذا، كما في قول أبي بكر -رضي الله عنه-في وصيته لعمر –رضي الله عنه-: "..... وذكر آية الرحمة، وآية العذاب، ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقي بيديه إلى التهلكة"[2]، فقوله: " وذكر آية الرحمة، وآية العذاب" لفان مجملان مبهمان، بيانهما وتفصيلهما في قوله: "ليكون العبد راغبًا راهبًا" الواقع نشرًا، أي: ليكون العبد راغبًا في الرحمة، وراهبًا من العذاب، وقوله: "لا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقي بيديه إلى التهلكة" نشران آخران على الترتيب لقوله: "ليكون العبد راغبًا راهبًا"، ليتعانق البيان والمبين، والمجمل والمفصل في الموضعين على تحقيق التناسب بين المعاني إلى جانب التماسك والارتباط بين التراكيب في نسق

---

(1)ينظر أساليب منهجية في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت صـ230، الطبعة الأولى1994م، والعلاقات النصية في لغة القرآن، د/ أحمد عزت يونس صـ185.

(2)المعمرون والوصايا صـ178.

الوصية؛ للتأكيد على أن المؤمن في حياته لا ينفك عن الجمع بين مشاعر الرغبة والرهبة، والرجاء والخوف من الله تعالى، حتى تستقيم حياته على الجادة.

وكقول قس بن ساعدة الإيادي في وصيته التي ألقاها في سوق عكاظ، ورواها عنه النبي -ﷺ-: "أما بعد: فإن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، نجوم تغور، وبحار تمور"[1]، فقد تعانق كل من اللف الماثل في قوله: "إن في السماء لخبرًا-وإن في الأرض لعبرًا" مع النشر المرتب الماثل في قوله: "نجوم تغور، وبحار تمور" على لفت الانتباه بقوة نحو موطن العظة والعبرة، وتحقيق نوع من التماسك النصي في بناء الوصية، كانت علاقته التي تمسك بتلاليب الطرفين هي الإيضاح بعد الإبهام.

وقد يأتي النشر بقلة على غير ترتيب اللف؛ فيتعانق الأول من النشر مع الثاني من اللف، ويتعانق الثاني من النشر مع الأول من اللف، وهكذا، في وحدة متآزرة، وبناء متحد متداخل على تحقيق هذا الترابط والتناسب؛ كقول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها: "وأما الثالثة والرابعة: فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح"، واعلمي أي بنية: أن الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود"[2] ولا يخطئنك عمق الصلة، وقوة الوشيجة التي تربط بين النشر الأول: "وأن الماء أطيب الطيب المفقود"، وبين اللف الثاني: "ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح"؛ إذ يرجع إليه، ويرتد نحوه؛ إذ هو تفسير وبيان، وتفصيل وإيضاح له، وكذلك الشأن في النشر الثاني "وأن الكحل أحسن الحسن الموجود" الذي يرجع إلى اللف الأول: "فلا تقع عيناه منك على قبيح"؛ ويفسره؛ ليتعانق التفسير والمفسر، والمجمل والمفصل على تحقيق هذه اللحمة، وتوثيق هذه العروة.

وكقول عامر بن الظرب في وصيته لقومه: "يا معشر عدوان! إن الخير عزوف ألوف، ولم يفارق الخير صاحبه، حتى يفارقه ولن يرجع إليه، حتى يأتيه"[3]، فإنك واجد بين النشر الأول: "ولم يفارق الخير صاحبه، حتى يفارقه"، وبين اللف الثاني: "ألوف" الذي يرجع إليه، وكذلك بين النشر الثاني: " ولن يرجع إليه، حتى يأتيه"، وبين اللف الأول "عزوف" الذي يعود إليه نسبًا وصهرًا في كون الثاني منهما تفسيرًا للأول وتبيانًا له؛ ليحصل من هذه العلاقة الحميمة رباط يجمعهما، وسبب يمسكهما؛ مبالغة في التأكيد على وجاهة هذا الحكم "إن الخير عزوف ألوف" الذي بدا غريبًا عجيبًا، وإزالة ما حام حوله من كافة أسباب الشك والتردد، والتوهم والاحتمال.

وأما التقسيم فقد جاء في عدة مواضع؛ لتحقيق هذا البعد الوظيفي والعمل على تماسك النص اللغوي وترابطه داخل هذه الوصايا، منها قول القلمس أمية بن عوف في وصيته للعربفي موسم الحج: "أوصيكم بخصلتين الدين والحسب، فأما الدين فلله، ومن أعطيتموه عهدًا ففوا له، حتى تردوه إليه، وأما الحسب فبذل المال"[4]،

---

(1)المرجع نفسه صـ107-108.
(2)المعمرون والوصايا صـ142.
(3)المرجع نفسه صـ77.
(4)المعمرون والوصايا صـ133.

فقد ذكر متعددًا إجمالًا، وهو "الدين والحسب" ثم فصلهما وفسرهما على جهة التعيين بعد في قوله: "فأما الدين فلله..... وأما الحسب فبذل المال"؛ ليتعانق البيان والمبين، والتفسير والمفسر على التأكيد على إعلاء قيمة الدين والحسب، والتنبيه إلى خطر شأنهما، وعظم قدرهما في حياة الأمم، من خلال هذه العلاقة القوية التي جمعت بينهما، والرباط الوشيج الذي شد معاقدهما، حتى غدا النظم متماسكًا قويًا، يشد بعضه بعضًا.

ومنها –أيضًا-قول المنذر بن ماء السماء لابنه النعمان: "إن لك عقلًا وجمالًا ولسانًا، فاكتس من ثناء الناس ما يؤيد جمالك، ودع الكلام وأنت عليه قادر، وليكن لك من عقلك خبيئ تدخره أبدًا ليوم حاجتك"[1]، وقول أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها، وهو يكاد يكون عمد هذه الوصية التي عليها تقوم: "فأما الأولى والثانية فالمعاشرة له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة، فإن القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب.... وأما الخامسة والسادسة فالتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة"[2]، وهكذا بعد ذلك سائر الخصال المذكورة، خرجت هذا المخرج، وجرت على هذا النهج من التقسيم البديع.

وكقول المهلب بن أبي صفرة في وصيته لبنيه: "أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال.....، وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم، فإن معصية الله تعقب النار، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذلة، وتفرق الجمع"[3]، فهذا كله وغيره مما هو على شاكلته لا يخرج في تماسك بنيانه، وتضام عناصر تراكيبه وتداخلها عن هذا الإطار، ولا يحيد عن هذا النهج في سبك الكلام من خلال علاقة الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال التي تمثّل هي الأخرى صورة من صور الإحالة المعنوية التي تربط بين النصوص.

---

(1)المرجع نفسه صـ146.

(2) المرجع نفسه صـ142.

(3) المعمرون والوصايا صـ169.

الخاتمة

وأخيرًا وبعد هذه الرحلة الوارفة مع التماسك النصي في ظلال وصايا المعمرين يحط البحث رحاله، ويلقي أغراضه عند الخاتمة؛ ليرصد فيها أهم النتائج التي تفتقت عن أكمامها هذه الدراسة، ويسجل بعض التوصيات التي يمكن الاستفادة منها في هذا المجال، وهذه النتائج يمكن إيرادها على النحو الآتي:

أولًا: تعددت وسائل التماسك النصي، وتنوعت أدواته في البنية التركيبية في وصايا المعمرين ما بين سطحية ودلالية [لفظية ومعنوية]، نحوية وبلاغية، جزئية وكلية، وهذا له ما وراءه من إفادة وإيحاء؛ إذ يدل –من وجه-على فرط حفاوة أصحاب هذه الوصايا بوصاياهم، ويصور مدى اهتمامهم واعتنائهم بها، وشدة حرصهم على أن تخرج في صورة قوية مترابطة؛ ضمانًا لذيوعها وانتشارها، وتحقيقًا لعنصر الإقناع والتأثير في المخاطبين بها.

ويدل هذا -من وجه آخر-على بالغ ثرائها، ووفرة معانيها، وسعة عطائها، ورحابة أسرارها ونكاتها، وعمق غاياتها وأهدافها.

ثانيًا: كان للأساليب البديعية –على كثرتها وتنوعها-دور كبير في عملية التماسك النصي في وصايا المعمرين، وهو ما يؤكد أصالة البديع، ووظيفته المحورية في البلاغة، ومضاهاته لعلمي المعاني والبيان، وأنه لا يختلف عنهما في تحقيق عنصر المطابقة لمقتضى الحال.

ثالثًا: وبناء على ما سبق وتأسيسًا عليه تتوفر الدراسة على وصاية الباحثين في البلاغة، ولفت أنظارهم إلى إعادة تقييم دور البديع البلاغي؛ من خلال هذه الدراسات النصية الحديثة، الجديدة في شكلها وهيئتها، الأصيلة قدمًا في لبها وجوهرها.

رابعًا: يعد عنصر الإحالة [المرجعية] من أقوى العلاقات الرابطة وأظهرها، وأكثرها حضورًا في عملية التماسك النصي؛ لتداخلها في بناية كثير من الوسائل والأدوات البلاغية التي تنهض بأداء هذا البعد الوظيفي، كالحذف والتكرار، وأسماء الإشارة، والضمائر، وغير ذلك مما جاء تفصيله وتحليله في محاور الدراسة ومباحثها.

خامسًا: كان لحروف العطف وأدواته –على اختلاف صورها، وتعدد أنماطها وأشكالها-دور بالغ، وأثر بارز في عملية التماسك النصي، فلم تخل منها وصية طالت أم قصرت، في التأليف بين أجزاء الكلام ومؤاخاة عناصره؛ لاختصاصها بالربط، وأصالتها فيه، وعدم خروجها في حال عن نهجه؛ ولانسجامها في خفتها، وقلة مؤونتها مع بنية الوصايا وطبيعتها التركيبية التي تتسم بالجمل القصيرة، والعبارات الموجزة، ذي الإيقاع القوي، والحركة السريعة.

سادسًا: لم يكن لأساليب البيان، وبخاصة التشبيه أثر يذكر في عملية التماسك في وصايا المعمرين؛ لخلوها منه إلا في مواضع قليلة جدًا، لا يعتد بها؛ ولعل السبب في ذلك يرجع إلى عدم تحقق التماسك بصورة جلية إلا في التشبيه المركب، ذي العناصر المتداخلة، والأجزاء الكثيرة، وهو ما لا ينسجم مع بنية الوصايا وطبيعتها التركيبية، حسبما سبق تفصيله في النتيجة السابقة.

سابعًا: يميل أصحاب الوصايا من المعمرين إلى تحقيق الترابط النصي، والتماسك البنيوي في نسيج وصاياهم من خلال الإطناب؛ بالتكرار، والترادف، والتعليل، والإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، وغير ذلك من صور الإطناب وأنماطه المبثوثة في طوايا هذا الجنس الأدبي؛ وفي هذا دلالة على أن نفوسهم قد أفعمت بمضامين هذه الوصايا، وامتلأت وجداناتهم بمعانيها.

ثامنًا: يعد التعليل من أكثر وسائل التماسك دورانًا واستعمالًا في وصايا المعمرين، وبخاصة ما جاء منه بطريق الفاء أو "إن"، ويرجع السر في ذلك إلى طبيعة المواقف التي قيلت فيها هذه الوصايا، وأحوال المتلقين المخاطبين بها، والمقتضيات التي سيقت من أجلها؛ إذ تتمحور هذه الوصايا في الغالب حول معاني النصح والإرشاد، والتربية والتوجيه، والتهذيب والتعليم، والحث على معالي الأخلاق، والقيم الراقية السامية، والتحذير من أضدادها، وتلك معان ومقامات تتطلب قدرًا زائدًا من التوكيد؛ لضمان تمكن هذه المعاني في النفس، واستقراها في حنايا الوجدان، وأسلوب التعليل من أقوى الوسائل وأبلغها في تقرير المعاني وتوكيدها، وتحقيق التماسك والترابط في سياقات الكلام؛ لأن العلة –أولًا-تدور مع المعلول وجودًا وعدمًا، وترتبط به ارتباطًا وثيقًا، ولا تنفك عنه، ولأنها – ثانيًا-تقوم مقام الدليل والبرهان على صحة الحكم، واستقامته في العقل والمنطق.

تاسعًا: رشح من خلال هذه الدراسة أن الإيقاع في مقاطع هذه الوصايا وفواصلها كان له أثر بالغ، وتأثير كبير في تحقيق التماسك، وتعميق أواصر الترابط في أنسجة الكلام، وبنى العبارات، وهذا ما بدا واضحًا في تناول البحث لبعض الأساليب التي طغى على سمتها عنصر الإيقاع في عملية التماسك، كالسجع والجناس؛ لذا يوصي البحث بدراسة أثر الإيقاع في عملية التماسك، من خلال بحثه في الشعر وزنًا وتقفية، وفي النثر تواطؤًا وتوافقًا، وفي الكلمات صوتًا وجرسًا.

عاشرًا: كان لعلمائنا الأوائل –على اختلاف توجهاتهم اللغوية-السبق في تأصيل مصطلح التماسك، وإن لم يسموه بهذا الاسم، أو يطلقوا عليه هذا المصطلح؛ فقد تناولوا بحثه في إطار دراسة أنواع العلاقات والروابط النحوية بين الجمل والمفرادات، وفي إطار تأمل العلائق والوشائج اللفظية والمعنوية بين أجزاء الكلم في سياق نظرية النظم التي أسسها عبد القاهر الجرجاني، كما تناولوا بحثه في إطار علم المناسبة عند علماء القرآن، وأهل التفسير، وهذا ما بدا واضحًا عند التأصيل لوجه التماسك وكيفيته في جميع الوسائل النصية التي تناولها البحث أثناء الدراسة. **وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرا.**

ثبت المصادر والمراجع

1. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق، د/ مصطفى ديب البغا، ط 3، 1996م، دار ابن كثير، دمشق.

2. الإحالة في نحو النص، دراسة في الدلالة والوظيفة العربية بين الجملة ونحو النص، د/ أحمد عفيفي، كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية، كلية دار العلوم جامعة القاهرة، 2005م.

3. الإحكام في شرح أصول الأحكام لابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون.

4. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق ه. ريتر، ط 3، بدون تاريخ.

5. الأطول للعصام، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، ط 1، 2001م، دار الكتب العلمية، بيروت.

6. الأعلام لخير الدين الزركلي، ط15، 2002م، دار العلم للملايين، بيروت.

7. إيجاز النص، مقاربات في التنظير والتطبيق، د/ أسامة عبد العزيز جاب الله، عالم الكتب الحديث، الأردن 2015م.

8. الإيضاح للخطيب القزويني، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

9. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، 1992م.

10. البديع بين البلاغة والعربية واللسانيات النصية، د/ جمال عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2006م.

11. البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ، تحقيق أحمد بدوي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1960م.

12. بديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق / حفني محمد شرف، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

13. البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، 1980 م.

14. بناء الرواية دراسة في الرواية المصرية، د/ عبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب المنيرة - مصر.

15. البيان في روائع القرآن، د/ تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003م.

16. البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت 1968م.

17. تحليل الخطاب الشعري [استراتيجية التناص]، د/ محمد مفتاح، الطبعة الأولى 1995م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

18. تسهيل نيل الأماني في شرح عوامل الجرجاني لأحمد بن علي الفطامي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1939م.

19. التطور اللغوي عند الأصوليين، د/ السعيد أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1981م.

20. التعريفات للقاضي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الريان للتراث،

القاهرة، بدون تاريخ.
21. التكرار بلاغة، د/ إبراهيم الخولي، الشركة العربية للطباعة والنشر 1993م.
22. التماسك النحوي في الحديث النبوي الشريف، نماذج من صحيح مسلم، د/ أحلام هويوة، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر 2016م.
23. التماسك النصي، دراسة تطبيقية في نهج البلاغة. د/ عيسى جواد فضل محمد الرباعي، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية 2005م.
24. التماسك والتناسب، دراسة في بلاغة النص القرآني، د/ محمد أحمد أبو عامود، ط1، 2014م، دار النابغة، القاهرة.
25. تهذيب الكمال في أسماء الرجال ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (ت: 742هـ)، تحقيق: د/ بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط 1، 1400 – 1980م.
26. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، تأليف: أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
27. الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق: د/فخر الدين قباوة، أ/محمد نديم فاضل، ط 1، ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت.
28. خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني. د/ محمد أبو موسى، ط 4، 1996م، مكتبة وهبة، القاهرة.
29. الخصائص لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986م.
30. دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت، ط1، 1994م.
31. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: الشيخ محمود محمد شاكر، ط 3،1992م، دار المدني، جدة، مطبعة المدني، القاهرة.
32. دلالات التراكيب، د/ محمد محمد أبو موسى، ط 2، ١٩٨٧م، مكتبة وهبة، القاهرة.
33. ديوان أبي تمام شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: راجي الأسمر، ط2، 1994، دار الكتاب العربي، بيروت.
34. سبل الاستنباط من الكتاب والسنة، د/ محمود توفيق، ط 1،2011م، مكتبة وهبة، القاهرة.
35. شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق، د/عبد الرحمن السيد، د/محمد بدوي المختون، الطبعة الأولى 1992م، دار هجر للطباعة، القاهرة.
36. شرح الكافية في النحو للرضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.
37. شرح المفصل لابن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.
38. شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
39. الصورة الفنية في الشعر العربي القديم حتى نهاية القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، د/ علي البطل، ط2، 1981م، دار الأندلس.
40. ضياء السالك إلى أوضح المسالك، تأليف: محمد عبد العزيز النجار، ط 2، بدون تاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت.
41. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي اليمني،

تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، ط 1، ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.
42. ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، د/طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، بدون تاريخ.
43. العربية من نحو الجملة إلى نحو النص. د/ سعد مصلوح، بحث بالكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية، جامعة الكويت، 1989 – 1990م.
44. العلاقات الملفوظة والعلاقات الملحوظة في النص القرآني، د/ تمام حسان، مجلة الدراسات القرآنية، العدد الثاني، المجلد الثالث، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية جامعة لندن ٢٠٠١م.
45. العلاقات النصية في لغة القرآن الكريم، د/ أحمد عزت يونس، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م.
46. علم لغة النص "النظرية والتطبيق"، د/ عزة شبل محمد، الطبعة الأولى 2007م، مكتبة الآداب القاهرة.
47. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق. دراسة تطبيقية على السور المكية، د/ صبحي إبراهيم الفقي، ط 1، 2000م، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.
48. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، ط5، 1981م، دار الجيل، بيروت.
49. عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د/ علي عشري زايد، ط3، ١٩٩٣م، مكتبة النصر، القاهرة.
50. الفصل والوصل في القرآن الكريم، دراسة في الأسلوب، د/ منير سلطان، ط 2، 1997م، منشأة المعارف، مصر.
51. قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، د/ محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م.
52. القصة في الأدب العربي وبحوث أخرى لمحمود تيمور، مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ.
53. قواعد الربط والارتباط ونظريات الربط اللغوية الحديثة. د/ حسام البهنساوي، ط 1، 2018م، مكتبة زهراء الشرق.
54. الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط 3، 1988م، مكتبة الخانجي، القاهرة.
55. كتاب المعمرين من العرب وطرف من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم، لأبي حاتم السجستاني، ط1، 1905م، تحقيق: محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.
56. الكشاف للزمخشري، ط 3، ١٩٨٧م، دار الريان للتراث، القاهرة.
57. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية للكفوي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.
58. اللباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء العكبري، تحقيق: غازي مختار طلمبات، ط 1، ١٩٩٥م، دار الفكر المعاصر، بيروت.
59. لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، مصر 1979..
60. لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، د/ محمد خطابي، الطبعة الأولى

1991م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
61. المطول لسعد الدين التفتازاني، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، ط1، 2001، دار الكتب العلمية، بيروت.
62. معاني النحو، د/فاضل السامرائي –ط 1، 2000م، دار الفكر، عمان، الأردن.
63. المعجم الوسيط، تأليف: إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة للنشر والتوزيع، اسطنبول، تركيا، بدون تاريخ.
64. المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني، تحقيق: بشير محمد عيون، الطبعة الأولى 2020م، مكتبة دار البيان، دمشق.
65. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية-صيدا، بيروت، 1987 م.
66. مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1997م.
67. المقتضب للمبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1994م.
68. المكونات التركيبية والدلالية لظاهرة التعليل في العربية. د/ طه الجندي، بحث منشور بحولية كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد 27، عام 1992م.
69. من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، سعيد يقطين، الطبعة الأولى 2005م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
70. منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ط2، 1981م، دار الغرب الإسلامي، تونس.
71. منهج التحليل النصي للقصيدة تنظير وتطبيق، د/ محمد حماسة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م.
72. نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية، د/ سعد مصلوح، مجلة فصول ج1، م10، العدد 154/1، أغسطس 1991م.
73. نحو التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية، د/ محمد مفتاح، الطبعة الأولى 1996م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
74. النحو الوافي لعباس حسن، الطبعة العاشرة 1991م، دار المعارف، مصر.
75. نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصًا، للأزهر الزناد، الطبعة الأولى 1993م، المركز الثقافي العربي، بيروت.
76. النص والخطاب والإجراء لدوبو جراند، تحقيق، د/ تمام حسان، الطبعة الأولى 1998م، عالم الكتب، القاهرة.
77. نفائس الأصول في شرح الوصول للقرافي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولى، 1995م.
78. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت: 681هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت.